ليلة خمر
من حياتي

يوسف السباعي

يطلب من مكتبة مصر
٣ كامل صدقي - الفجالة

الإهداء

اليها ...

الملهمة الصغيرة ..

الباسطة ذراعيها بأرض الغفير ..

النابحة على الغرباء .. الماسحة برأسها على قدمى فى شوق وحنين ..

لقد ألهمتنى القصة الأخيرة فى ساعة عز فيها الوحى واستعصى الالهام ..

يوسف السباعى

مقـــدمـة

هذا الكتاب يحتوى على ثلاث مجموعات من القصص القصيرة . كل مجموعة يجمعها رابط ويضمها شبه .

والكتاب مسمى باسم قصته الأولى «ليلة خمر» وهي قصة تروى بلسان نشوان ثمل .. ولشد ما أخشى أن تكون الرواية متقنة فأتهم ظلما بأنى سكير مجرب .. وأنا لم أجرب السكر فى حياتي مرة واحدة .

على أية حال تهمة السكر بسيطة اذا قيست بما سبق أن اتهمت به من أنى حشاش . وكان أول من اتهمني هو المرحوم الحاج مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية بعد أن قرأ - أو قرىء عليه - كتابى «نائب عزرائيل» فأبدى لى اعجابه به ثم مال على أذنى وسألنى هامسا : «هل تعاطيت شيئا وأنت تكتبه» .. وأنكرت بالطبع .. فلم يبد عليه الاقتناع . وأغلب الظن أنه قضى بقية عمره وهو واثق تمام الثقة أنى لا أقدم على الكتابة وأنا «فائق» .

وكان آخر من اتهمنى بالتحشيش هو الموسيقار محمد عبد الوهاب بعد أن قرأ لى قصة «حسن أفندى» من كتاب «الشيخ زعرب» والتى تروى بلسان طربوشه .

ولقد كنت أخجل من التهمة الظالمة حتى عرفت أخيرا أنى لست وحدى صاحبها .. وأن خيرا منى - وهو الأستاذ توفيق الحكيم -- قد سبق أن اتهم بها .. اذ بلغه من أحد أصحابه أن واحدا أكد له أن توفيق الحكيم يتعاطى الأفيون - أو المنزول لست أذكر - وأنه عرف عنه ذلك أيام عمله فى النيابة .

وتعجب توفيق الحكيم .. لأنه لا يعرف كيف يتعاطى تلك المخدرات وهو لايدخن ولا يشرب القهوة .

ولقد جرى بيننا حديث طويل فى نادى القصة عن هذا الموضوع .. وتساءل البعض عن أثر الخمر والمخدرات فى انتاج الكتاب .. وكان رأيى أن الكاتب لكى يصل انتاجه الى أتمه يجب أن يكون فى حالة ذهنية طيبة ، وأن

تكون لياقته تامة وجهوده متوفرة .. فالكتابة عمل ليس بالهين ، بل هي مهمة شاقة تحتاج الى أن يوفر لها الكاتب كل جهده وقدرته وأعصابه . وأن فكرة اتخاذ الخمر أو الحشيش أو غيره من المخدرات وسيلة لكي تجلو ذهن الكاتب وتلهمه أفكارا جديدة لاتخطر للانسان اليقظ السليم لا أظنها الا وهما من الأوهام . فان تخاريف الثمل لايمكن أن تكون أفكارا طيبة صالحة للكتابة ..

وأجابني الدكتور طه حسين بأنه لايوافق على قولي لأن أعظم كتاب النثر باللغة الفرنسية في عصرنا - من النساء والرجال - وهي مدام كوليت قد بلغت الثمانين ولم تترك نوعا من المخدرات الا تعاطته ولم تترك موبقة في صباها الا ارتكبتها .

وقد أجابه الأستاذ غراب بأنها ربما كانت تصبح خيرا من هذا لو لم تفعل ما فعلت .. فأجاب الدكتور طه : بأن أحدا لايستطيع أن يجزم وأنه هو نفسه لايرى أبدا صلة بين انتاج الكاتب ونوع طعامه أو شرابه .. وان كان يرى أن الكتاب أو الفنانين أكثر الناس استباحة لهذه الأشياء وأشدهم اقبالا عليها وانغماسا فيها وقد يكون سبب هذا حسهم المرهف ورغبتهم في التحرر والانطلاق من القيود ..

ولقد ذكرني ذلك بقول الأستاذ احسان عبد القدوس - على سبيل المزاح - : انه يجب أن يباح للكاتب أن يتخذ نماذج حية لبطلات قصصه كما يتخذ الرسام والمثال .

على أية حال انى لا أجد من الكتاب المصريين في جيلنا هذا من نستطيع أن نضعهم من حيث الادمان على المخدرات وارتكاب الموبقات في مرتبة الكاتبة الفرنسية الكبيرة ، بل أكاد أجدهم جميعا بعيدين كل البعد عنها .. ويجعلني هذا أؤكد أن غيبوبة المخدر لا ضرورة لها ألبتة في الهام الكاتب . وأن الذهن الصحيح اليقظ أقدر على الانتاج من الذهن الغائب .. ولست أحرم بقولي هذا المكيفات على الكتاب ولكني أفضل أن يباشرونها مباشرة مقتدر ، لا مباشرة مدمن ، وأن يتملكوا المتعة ولا يدعونها تتملكهم .

وأخيرا .. أؤكد لكم مرة أخرى .. أني لم أسكر مرة واحدة رغم قصة «ليلة خمر» ..

يوسف السباعي

ليلة حمراء

انها تنزل وحدها فى الغرفة .. وهى بنظراتها المستدعية المغرية لن تدهش كثيرا اذا أنا تسللت اليها . فأنا أفهم نظرات النساء جيدا .. أفهمها بالضبط عندما تقول لنا «تعال» .

هذا نصب .. هذا احتيال .

أنا أعرفهم جيدا .. أعرفهم تماما .. هؤلاء المخادعين المغررين .. وأعرف أساليبهم الشيطانية للضحك على أمثالى من النزلاء الطيبين .

أجل .. أجل .. هؤلاء السفلة من أصحاب الفنادق لابد أن يخدعوك فى شيء .. ان لم يكن فى أجر المبيت ففى أجر الطعام .. وان لم يكن فى أجر الطعام ففى كميته .. وان لم يكن فى كميته ففى نوعه .. لابد أن يجدوا شيئا يغررون بك فيه .

ولقد حاولت جهدى أن أكون حريصا .. وأن أحفظ تسعيرة الحكومة .. وأراجع كل حساب ، وأراقب وأحصى كل شيء .. وظننت أنى بذلك استطعت أن أحصن نفسى ضد ألاعيبهم وأن أقيها شر خداعهم واحتيالهم .

ولكن شيئا واحدا غاب عن ذهنى .. اذ لم يحضر ببالى قط أنه يدخل ضمن أساليبهم المخادعة .. وهو أن أعد السلم .. وأحفظ عدد درجاته .

أجل .. لم يطف بذهنى أنهم سيخدعوننى فى عدد درجات السلم حتى أعدها عندما صعدت فى الصباح الى حجرتى فى الطابق الثانى .. لقد كان السلم قصيرا ، لايمكن أن يزيد بحال عن عشرين درجة .. قفزتهم فى ثوان .. أما الآن .. فانى لا أجد له نهاية .. حتى لكأنه لا يفضى الى الطابق الثانى بفندق «البوريفاج» بل يفضى الى أبواب السماء .

عجبا لهؤلاء المخادعين .. حتى السلم يغالطون فيه ؟ .. يحاسبون فى الصباح على عدد ، فاذا ما أقبل المساء وانتصف الليل .. وتعذرت المراقبة .. واستحالت المحاسبة .. يزيدونه علينا أضعاف أضعاف .

لا .. لا .. هذا امر لا يطاق .. لا بد أن أبلغ البوليس فى الصباح .

ولكن ما حكمتم فى ذلك ؟ مايجنونه من خداعهم هذا ؟ اتراهم ينوون أن يحاسبونا على عدد الدرجات الزائدة ؟من يدرى ! ليس ذلك على سفالتهم بعيد .

ولكن هذا جنون .. هذا غير معقول .. لن ادفع لهم بحال .. بل لا أظن حمقهم بلغ هذا الحد .

آه .. عرفت .. أجل .. عرفت مكرهم السىء واحتيالهم الردىء .. لقد أطالوا السلم حتى ييأس الصاعد من بلوغ حجرته ، فيعود من حيث أتى .. ويترك الحجرة خالية .. فيستطيعون ايجارها لشخص آخر .

ولكن أين هذا الآخر الذى يستطيع الصعود اليها ؟ اذا كنت أنا قد قضيت هذة المدة الطويلة دون أن أستطيع أن أبلغ بعضه .. لا بد أنهم سينزلونه بالبراشوت .

أجل . هذه هى الطريقة الوحيدة .. يا للرعاع السفلة .. يؤجرون الحجرة مرتين .. مرة من الأرض ، ومرة من السماء .. يقبضون الثمن مضاعفا .. ولكنى لن أمكنهم من غرضهم .. لا بد أن أصعد .. وأصعد .. مهما طال السلم .. حتى أصل الى الحجرة .. وأكشف خداعهم ونصبهم .

ولكن مابالى لا أصعد .. أنى أحس بعلو الدرجات ، وتأرجح فى السلم والدرجات .. أم ترى التأرجح فى رأسى والثقل فى قدمى !

جائز .. جائزجدا .. فهذا الكأس الأخيرالذى تناولته لم يكن له داع .. سوى فروغية العين .. لقد كانت السبعة كؤوس الأولى كافية جدا .

ولكن اياكم تظنون أنى ثمل .. انى فى تمام الوعى وكمال الادراك .. والله العظيم .. وحق السماء .. السماء التى سينزل منها هؤلاء السفلة الذين سيحتلون حجرتى بالبراشوت .. أنا لست سكران .. أنا فقط .. مبسوط .. بل حتى هذا الانبساط أوشك أن يضيعه هذا السلم اللعين .

هيا .. لنصعد .. لا داعى لاضاعة هذا الوقت .. هيا قبل أن يحتلها اللعين الهابط من فوق .

لنصعد .. درجة .. درجة .

وبعد .. ما آخرة هذه الدرجات .. انى أكاد أسقط اعياء .. لقد كلت قدماى .. الكلاب .. أولاد الكلاب .. والله لأرينهم عاقبة خداعهم فى الصباح .

الصباح ؟ !! ولكن من يدرينى أنهم سيبقونها كذلك حتى الصباح .. أى غبى انا .. انهم لاشك سيعيدونها الى ما كانت عليه .. وسيقسمون أغلظ الأيمان أن السلم لم يتغير .. بل وربما بلغت بهم الوقاحة الى حد اتهامى أنى كنت سكران .

أفضل شىء .. أن أعد السلم درجة درجة .. وأعرف عدده بالضبط حتى أقطع عليهم كل سبيل للانكار .

هيا ..لنبدأ من جديد ..لأنزل ما صعدت .. ثم أصعد من جديد مع العد .

هذه هى الدرجة الأولى .. واحد .. اتين .. تلاته .. أربعه .. خمسة .. ستة .. سبعه .. سبعه !!

سبعة ؟ !! سبعة ماذا ؟! سبعة قروش .. سبع بنات .. ما هذا الذى أعده ؟ ضلة لى .. لقد نسيت تماما ماذا أعد .. سبع كؤوس .. أجل .. لقد تذكرت .. سبعة كؤوس .. ثمانية .. فقط .. هذا هو كل ما شربت .. والكأس الثامنة هى السبب .. لعنة الله عليها .. ما كان يجب أن أشربها .. ولكنها -

كما قلت – فروغية عين .. هى التى أوصلتنى الى حالة السكر هذه .. أما قبلها فقد كنت سليما معافى .. انى أنكر حالتى بعد السابعة .. كنت فى تمام الوعى .. وجلست أقص على الجرسون نكتة وأنا أحتسى الثامنة .. قلت له ان رجلا جلس مع ابنه على البار وأخذ الاثنان يحتسيان الكأس تلو الكأس ، وبدا للأب أن ينصح ابنه فقال له :

– اشرب كما تشاء ، ولكن اياك أن تصل الى حد السكر .

– وكيف أعرف أنى وصلت الى هذا الحد ؟

– عندما ترى ما أمامك قد تضاعف .

– كيف ؟

– أعنى اذا نظرت مثلا الى هاتين الزجاجتين اللتين أمامك على المنضدة .

ثم أشار الى زجاجتين كهاتين اللتين أمامنا على البار وأردف قائلا :

– فوجدتها أربعة .. فاعرف أنك قد سكرت وانصرف .

فنظر الابن الى الأب وجذبه من يده فى سكون قائلا :

– اذاً فلننهض يا أبتاه لأن ما أمامنا على المنضدة ليس سوى زجاجة واحدة .

وانطلقت أقهقه .. مستملحا النكتة التى ألقيتها .. ولكن الساقى اللعين لم يقهقه ، بل نظر الى وأجاب فى لهجة محذرة :

– سيدى .. انصرف .. أرجوك .. لأنه لايوجد أمامك على البار ولا زجاجة .

وغادرت البار .. فقد أدركت أن الثامنة لابد أن تكون قد أدارت رأسى قليلا .. فجعلتنى أرى على البار زجاجات .. دون أن يكون هناك شىء ، ولكنى أؤكد لكم مع ذلك أنى لم أصل الى حد السكر .. انه مجرد دوار .. يصحبه شعور بالانبساط .. ورغبة فى الغناء .

ولكن .. هذا السلم اللعين لم ينته بعد ..كل هذا الصعود ولم أبلغ حجرتى .

السفلة .. اللئام .. الغشاشين .. لقد تذكرت خديعتهم ، وتذكرت محاولتى كشفهم .. لقد بدأت فى عد السلم .. ماهو آخر رقم وصلت اليه .. ويحى .. لقد نسيت .. لا بأس .. لنبدأ من جديد .. لأنزل ما صعدت .. ثم أبدأ العد ثانية .

هذه هى الدرجة الأولى .. واحد .. اتنين .. تلاتة .. أربعه .. خمسه .. ستة .. سبعة .. سبعة .. سبعة .. سبعة ؟ !! سبع ماذا .. هذه المرة لابد أن أتذكر جيدا .. ماذا أعد .. سبع قروش .. سبع صنايع .. سبع سموات . سبع سواقي . أجل .. أجل .. ليس هناك غير :

سبع سواقى بتنعى لم طفو لى نار
يا منية القلب قوللى ازاى عشق الجار

وانطلقت أغنى .. وأحسست بصوتى جميلا .. كأجمل ما سمعت .. وأصابنى طرب .. فتربعت على السلم فى موضعى :

يبقى النظر فى النظر والقلب قايد نار
شط البحور مرقدى والموج بنا لى دار

وأخذت أردد شط البحور مرقدى .. مرارا وتكرارا حتى أحسست بألم فى ركبتى وتخديل فى ساقى .. وأدركت أن السبب هو أن «السلم مرقدى» وليس شط البحور .. فكان على أن أنهض .

أجل .. أجل .. ما هكذا يكون مرقد أكابر الناس !! هذه قلة قيمة .. لو رآنى عليها أحد لاتهمنى ظلما بالسكر .

لا .. لا .. لابد أن أنهض وأصعد الى حجرتى .

ولكن هذا السلم .. لاينتهى أبدا .

السفلة .. الكلاب .. أولاد الكلاب .. غشونى .. خدعونى لابد أن أعده .. أين وصلت ؟

لعنة الله على .. لقد نسيت .. هذه تانى مرة أنسى .. لابد أن أجد طريقة حاسمة للعد .. أجل .

عرفت .. فكرة هائلة .. سأريهم كيف تكون المهارة فى الضبط والكشف عن التحايل والنصب .

سأنمر السلم .. أجل .. ولم لا ؟ .. سأضع رقما على كل درجة . حتى أستطيع كشفهم فى الصباح اذا تلاعبوا فى السلم .. وحتى لا أنسى العد كما نسيت فى المرات السابقة .

لنهبط ثانية .. أجل هكذا .. ان الهبوط سهل جدا .. ليتنى أستطيع أن أقلب السلم .. فأهبطه بدل أن أصعده .. ولكن كيف أستطيع .. دون أن يساعدنى أحد .. لأذهبن الى الساقى وأطلب منه المساعدة :

- اسمع .. يا أخينا .

- سيدى ؟ !! ألم تصعد بعد ؟

- وكيف أصعد بعد أن فعلوا بالسلم ما فعلوا .. اسمع أريد منك مساعدة بسيطة .

- فيم ؟

- فى قلب السلم .

- قلب ماذا ؟

- لاتصرخ هكذا حتى لايسمعك أحد .. أقول قلب السلم .. لأنى أستطيع الهبوط أسهل من الصعود .. فاذا ما قلب هبطت الى غرفتى بدل أن أصعد اليها .. ثم عدلته ثانية .

- اسمع ياسيدى .. السلم ثقيل جدا .. وأرى أنه أسهل كثيرا أن تقلب نفسك أنت .

- أتظن ذلك ؟

- لاشك .. لقد جربتها كثيرا .

- حسن .. ولكن أرجوك اعطنى قلما كى أنمر الدرجات حتى أعرف عددها بالضبط .

- أظن فى جيبك قلما ياسيدى .

- أجل .. أجل .. تذكرت .. ولكن هل تظن القلم يترك أثرا على الدرج ؟ .. ألا تستطيع أن تعطينى قطعة من الطباشير الذى تكتب به الأرقام على هذا اللوح ؟

- تفضل .

ووقفت أمام الدرجة الأولى .

أيها المحتالون .. لقد وقعتم فى يدى .

وبدأت التنمير .

واحد .. اتنين .. تلاته .. أربعه .

فكرة مدهشة .. ستقضى عليهم .. سيذهلون عندما يجدون خديعتهم قد كشفت ومكرهم قد بان .

خمسة .. ستة .. سبعة .. برافو .

هكذا يكون الذكاء والعمل والا فلا .. ثمانية .. تسعة .. عشرة .

حتى وصلت الى العشرين .. فاذا بالطرقة الموصلة الى غرفتى قد ظهرت .

عجبا !! عشرون فقط !! غير معقول .

أيها الجبناء .. لقد عدتم تتراجعون وخفضتم العدد مرة أخرى .. عندما وجدتمونى أوشك أن أضبط احتيالكم . ان الطيبة لاتجدى معكم .. سأحتفظ بالطباشير فى جيبى .. حتى أنمر السلم فى كل مرة .. وأريكم أنى لست أنا الذى تستطيعون خداعه .

ولكن .. ما هذا !!

مرة أخرى .. عادوا الى خداعهم .. وألاعيبهم .. ان الطرقة طويلة جدا .. انها لم تكن كذلك فى الصباح .. ولشد ما أخشى أن أضل الطريق الى حجرتى .. وأخطئها الى حجرة أخرى .

هذه هى المشكلة الكبرى .

كيف أصل الى حجرتى .. بعد أن أطالوا الطرقة مثل هذا الطول العجيب ؟ .. ومن يدرى ربما يكونون قد خلطوا الحجرات ووضعوا هذه موضع تلك ، وتلك موضع هذه ، زيادة منهم فى الخداع والتضليل .. أو ربما يكونون قد زادوا عدد الغرف أو أنقصوها ، وربما تكون غرفتى قد ضاعت ضمن الغرف الضائعة .

على اية حال يجب أن أدقق جيدا .. أنا أذكر أنها الرابعة أو الخامسة على اليمين .. ولكن لابد من التحديد .

لعنة الله عليها .. هذه الكأس الثامنة .. كان يجب أن أتوقف عند السابعة حتى أستطيع أن أحدد الحجرة جيدا .. وحتى لا أخطئها الى حجرة مجاورة .

ولكن .. لم كل هذا ؟ ! لماذا أريد ألا أخطئها ؟! وماذا يضيرنى فى أن أذهب الى غيرها ؟ أى شىء خطير ثمين بها يجعلنى أخشى أن أخطئها .. وأصر على تحديدها والاتجاه اليها .. هى دون غيرها من الحجرات .

أجل .. تذكرت .. انها زوجتى .

أجل .. أجل .. زوجتى .. انها رابضة هناك .. تنتظرنى كما تعودت أن تنتظرنى فى البيت كل ليلة .. كما ينتظر السجان سجينه ، والآسر أسيره .

لقد رحبت بهذه السفرة الى الاسكندرية .. رغبة منى فى الانطلاق من اسارها والتحرر من قيد مراقبتها .. التى تطبقه على كما يطبقه المخبر على المراقب .. فلا تفلت منه حركة ولا سكنة .

كنت أعلل النفس بأمال عن الحرية طوال عراض .. كنت أمنى النفس ببحبوحة من الهلس والخبص والبرم . وكنت أتخيل النساء ترتمى بين أحضانى فى حجرتى الخالية .. وأمعن بى الخيال امعانا لم يوقفه الا قولها ببساطة : انها ستأتى معى .

ورغم انفجار كلمتها فى نفسى وتدميرها قصور التحرر التى بنيتها فى ذهنى ، فقد جاهدت أن أتمالك وأدعى عدم الاكتراث وقلت لها فى هدوء :

- ولكن البنت .. هل ستبطلينها من المدرسة ؟

- لا .. سأتركها عند أمي .

لعنة الله عليك .. وعلى أمك (قلتها فى سرى طبعا) .. وحاولت بمختلف الطرق أن أثنيها عن عزمها دون أن تشعر أنى لا أريدها .. حتى لاتشك فى سوء نواياى .. ولكنها كانت قد صممت على مصاحبتى .

والآن .. انها تجلس مرابطة في حجرتي .. تنتظر أوبتي بعد أن قلت لها انى سأجلس على البار لأشرب كأسا أو كأسين ثم أصعد اليها .

وبعد هذا أريد ألا أخطىء حجرتى .

لعنة الله على من أحمق غبى .

يجب على أن أخطىء الحجرة .. أجل يجب .

بعد هذا الخلط الذى صنعه السفلة اللئام بالحجرات والطول الذى أضافوه الى الطرقة .. والحجرات التى تتأرجح والأرض التى تهتز والسقف الذى يدور .. بعد كل هذا .. يجب على أن أخطىء الحجرة .. والا كنت مغفلا كبيرا ، بل كنت شيخ المأفونين .

أجل .. أجل .. ان الأصول فى مثل هذه المواقف .. ومع مثل هذه الزوجة .. أن يخطىء الانسان غرفته .. الى غرفة أخرى أفضل .. أو على الأقل ليس بها زوجته .

وهكذا استقر بى الرأى على أن أخطىء غرفتى .

ولكن كيف ؟ كيف أخطئها ؟ . لكى يخطىء الانسان شيئا يجب أولا أن يعرف مكانه حتى يخطئه .. وأنا .. لسوء الحظ لا أعرف مكانها بالضبط .

لعنة الله عليها .. لا ، ليس على امرأتى ، بل على الكأس الثامنة .. أو عليهما الاثنتين .. بالمرة .

أنا أعتقد أنها كانت الحجرة الثالثة ، أو الرابعة .. على اليمين .. أم هى الرابعة أو الخامسة .. لست أدرى .

على أية حال ، من باب الاحتياط ، يجب أن نخرج الثلاثة من الحساب .. فلا أقرب أية واحدة منها .

أمامى اذاً أية حجرة .. غير هذه الثلاث .. كيف أنتقى ؟

أظن ما دمت أنوى أن أخطىء الحجرة ، وما دمت أنوى أن أغامر .. فيجب على أن أنتقى جيدا .

صحيح ان مجرد البعد عن زوجتى والفكاك من أسرها يعتبر غنيمة .. ولكن لم لاتكون الغنيمة غنيمتين ؟ ولم لا أصيب - كما يقول المثل - عصفورين بحجر ؟

لم لا أنتقى حجرة ذات عصفور ثمين .. مليح .. حتى تكون المسألة تستحق المغامرة ؟

وتذكرت المرأة التى أبصرتها تدخل فى الصباح حجرة مجاورة لحجرتى .. وأحسست برأسى يدور أكثر مما هو دائر وبالحرارة تشع فى عروقى .

وتذكرت جسدها الذى بدا لى مفصصا كأنما قد صنعت أعضاؤها كل على حدة صنعا كاملا مستوفيا .. ثم ركبت الى بعضها البعض ، ثم ضمت بغلالة رقيقة لم تستطع أن تخفى كل عضو على حدة .

هل فهمتم ما أعنى .. لقد كان صدرها وحده .. وردفها وحده .. وساقاها وحدهما .

على أية حال .. لا ضرورة لأن تفهموا .. المهم أنها مرت بى أول مرة فعلق بها بصرى ، وملأ عبيرها خياشيمى .. وفى المرة الثانية منحتنى ابتسامة .. بدت فى ظاهرها تحية جارة وفى باطنها جعلتنى أتمنى لو أدفع نصف عمرى وأعيد زوجتى الى القاهرة .

وعندما استعدتها فى ذاكرتى .. وأنا أقف وقفتى هذه .. وقد نويت أن أخطىء حجرتى .. استقر بى العزم .. على أن يكون الخطأ مصوبا اليها .

انها تنزل وحدها فى الغرفة .. وهى بنظراتها المستدعية المغرية لن تدهش كثيرا اذا أنا تسللت اليها .. فأنا أفهم نظرات النساء جيدا .. أفهمها بالضبط عندما تقول لنا «تعال» .

وعلى أسوأ الفروض .. لو حدث أى شيء مما لا أتوقع . فسأقول : انى أخطأت الغرفة .. والمسؤول الأول فى ذلك ، هم الكلاب أولاد الكلاب .. الذين أطالوا الطرقة وخلطوا الغرف .

هيا .. هيا .. قبل أن تقلق زوجتى وتخرج للبحث عنى فتجدنى فى الطرقة فتطبق على وتدخلنى الى الحجرة وتضيع الليلة سدى .

وأحسست بالغبطة وأنا أذكر زوجتى .. وكيف سأفلت منها وهى بالقرب منى قاب قوسين أو أدنى .. وكيف سأخدعها رغم مطاردتها لى .

المسألة الآن تنحصر فى أن أصل الى حجرة صاحبتنا الشقراء الهيفاء المفصصة ..

نترك الثالثة والرابعة والخامسة .. ان الحجرات متشابهة لعنة الله على الذاكرة الضعيفة .

أظن حجرتها السادسة .. ولكن ماذا يحدث اذا لم تكن هى ؟ .

على أية حال .. لتكن ما تكون .. انها قطعا لن تكون غرفتى وهذا هو المهم .. والمسألة بعد كل هذا مغامرة أو مقامرة .

هيا لاداعى للتردد .

ووضعت يدى على أكرة الباب وضغطت ، وانفتح الباب فتسللت الى الداخل .

لحظة واحدة أتمالك أنفاسى .. أعذرونى .. أنا لست جبانا ولكنها المرة الأولى التى أقدم فيها على مثل هذا العمل .

صدقونى أنه ليس من السهل على المرء أن يقتحم مخدع امرأة غريبة لايعرفها .. ان الحجرة مظلمة الا من ضوء سهارى موضوع على المنضدة الصغيرة المجاورة للباب .

يجب على أن أفحص الحجرة .. انها شديدة الشبه بحجرتى حتى لقد مرت بذهنى لحظة خشيت أن أكون أخطأت الحجرة فدخلت حجرتى .. ولكن نظرة الى موضع المقاعد والمنضدة والدولاب .. جعلتنى أجزم أنها غرفة أخرى .

حسن .. بقى على بعد هذا أن أتاكد أنها غرفة صاحبتنا . لحظة واحدة .. حتى أتأكد .. ان الفراش فى آخر الغرفة قريبا من شرفة زجاجية صغيرة تطل على الفناء الأمامى .. وهذا الباب الذى على اليسار .. لاشك يؤدى الى دورة المياه ، وهو يماثل الذى فى حجرتى .. ولكن الآخر على اليمين .

ان الفراش يبدو به شبح جسد واحد .. وهذا مطمئن . فهو يؤكد لى أنى فى الطريق الصواب .. بقى على أن أعرف ما اذا كان الجسد لامرأة أم لرجل .

فاذا كان لرجل تسللت الى الخارج وعدت من حيث أتيت لأبحث فى حجرة أخرى .

واذا كانت لامرأة ؟

يكون على أن أعرف هى صاحبتنا أم لا .

ولكن هبها ليست هى ، ولكنها امرأة .. اذاً نجرب معها فاذا قاومت وثارت .. اعتذرنا وغادرنا الحجرة .

واذا استسلمت ؟ . خير وفضل .. انها امرأة على كل حال وهى ليست زوجتى .

واقتربت على أطراف أصابعى .

هس .. ولا كلمة .

انها هى .. ليست بعينها .. ولكن بشعرها .. أجل .. استطعت أن أميزها برغم الظلمة المحيطة التى لم يفلح الضوء الخافت على المكتب فى تبديدها .

وتقدمت .. ويعلم الله أو على وجه أصح يعلم الشيطان .. أى جرأة عجيبة ، دفعتنى دون تفكير ولا روية الى أن أنزلق بجسدى - كما أنا

بملابسى - فى فراشها .. وتحت غطائها لأجد جسدها اللين الدافىء ملاصقا لجسدى .

لا تنتظروا منى أن أشرح لكم التفاصيل فأنا رجل حى خجول عف اللسان .. وأسرار المضاجع يجب أن تبقى فى مضاجعها .. تفعل ولا تحكى .. نفعلها كلنا ونستحى من ذكرها كلنا .

المهم .. أنى تمتعت بها كما لم أتمتع بامرأة فى حياتى .. لقد تناومت .. واستمرا كلانا تناومها .. ورأيتها ممعنة فى تناومها فلم أوقظها .. حتى عندما غادرت الفراش وهممت بمغادرة الحجرة .

مغامرة عجيبة .. وحظ أعجب .

لا أظن الا أن كلا منكم يتمناها لنفسه ، ولا أظنها تحدث لنا فى حياتنا كثيرا .. ولا حتى قليلا .

وكان رأسى يدور من النشوة ومن نجاح المغامرة وأنا أهم بوضع يدى على الأكرة لأفتح الباب وأغادر الغرفة بسلام .. عندما وقعت عينى على مظروف على المنضدة الصغيرة المجاورة للباب ، وأبصرت على الضوء الخافت اسم صاحبه :

«مدير الشركة الأهلية الفنية للشرق الأوسط» .

وأدركت أن المذكور لا بد أن يكون زوجها ، وتملكتنى رجفة من نقمة رأسى الى أخمص قدمى .

اذا فهى امرأة متزوجة .

نهار أبى أسود .. ان لم أخرج حالا .. حالا .. فقد يكون زوجها المحترم عائدا فى هذه اللحظة .

وفتحت الباب وفى غمضة عين كنت خارج الغرفة .

الحمد لله .. وتنفست الصعداء .. هذه الخطوة القصيرة فيها نجاتى .. فالفارق بين أن أكون داخل الغرفة وخارجها كبير .. كبير جدا .. قد يكلفنى

حياتي .. لو كان المدير المذكور رجلا أبيا متهورا لايسلم شرفه الرفيع من الأذى الذى ألحقته به .. الا اذا أراق على جوانبه دمى .

ومرة أخرى أحسست بنشوة الانتصار وأنا أقف فى الطرقة سليما معافى .. بعد أن تمتعت بخيانة زوجتى ، وأكثر من هذا .. بخيانة رجل آخر .

وأى رجل .. مدير محترم .

انها لو تعلمون متعة كبرى .

أأعود الى حجرتى ؟ لا .. لا .. ليس قبل أن أحتفل بانتصارى العجيب على زوجتى .. وعلى المحترم مدير الشركة الفنية الأهلية .. الخ .

أجل .. لقد صممت على أن أهبط مرة أخرى الى البار ، لأشرب نخب ليلتى الحمراء .. كأسا تاسعة .

والهبوط كما قلت لكم سهل جدا ، والطباشيرة فى جيبى .. ولن يستطيع السفلة مغالطتى عند الصعود ثانية .

ووقفت أمام الساقى ، وهو ينظر الى فى دهشة :

- ألم تصعد بعد الى حجرتك ياسيدى ؟

- هات كأسا لى .. وكأسا لك ، واشرب نخب الخيانة الزوجية .. ألم تخن امرأتك أبدا ؟

- أبدا يسيدى .

- مسكين .. أنت لم تعش .. ألم تخن رجلا آخر ؟

- أستغفر الله .

- أيها التعس .. لقد ذهب عمرك سدى .. سلنى أنا عن هذه المتعة .. انها حياة أخرى .. انى فى هذه الليلة أقدمت على ..

ولكن قبل أن أشرح له ما فعلت .. لمحت رجلا يقبع فى ركن البار ، وقد أخذ ينظر الى نظرة فاحصة .

وأصابتنى رجفة .

ويحى .. أيمكن أن يكون هو ؟ .. لم لا .. محتمل جدا أن يكون مدير الشركة الأهلية الفنية .. وهو يبدو عريض القفا .. غليظ الجسد .. غبى المنظر كغيره من المديرين .

حمدا لله أني لم أنطلق فى حديثي .. كان يحتمل أن تضيعنى زلة لسان .. وصدق من قال : «لم يروهم يسرقون .. ورأوهم يتحاسبون» .

خذوها نصيحة منى ، عندما ترتكبون الاثم ، اربطوا ألسنتكم وادفعوها فى حلوقكم ، فليس أفضح للانسان من لسانه .

وشربت الكأس التاسعة فى صمت .. وأردفتها بالحادية عشرة بعد أن أعطيت الساقى العاشرة .. دون أن أعود لذكر الخيانة الزوجية ، خوفا من الرجل القابع في آخر البار ، والذى كان ما زال ينظر الى نظرته الفاحصة .

ولم أجد بدا من الهروب من نظراته .. فقد خشيت أن يفضحنى لسانى .. وتحسست الطباشيرة حتى لايخدعنى اللئام فى عدد السلم .. ثم أخرجت المحفظة لأعطى الساقى ثمن الكؤوس الثلاثة .

ولم أكد أنظر الى المحفظة حتى فغرت فمى ، وانطلقت منى صيحة دهشة لم أستطع كتمها .

واخيبتاه .. وامصيبتاه .. واليلتاه !

المخادعة .. المحتالة .. السافلة .

لقد خدعتنى وغررت بى .

تقولون سرقت نقودى ؟ .. لا .. لا .. ليتها فعلت .. لقد سرقت ليلتى .. لقد غشتنى .

لاتفهمون ...

وماذا يفيدنى في أن تفهموا .. بعد أن ضاعت الليلة .

لقد فتحت المحفظة لأخرج النقود ، فوجدت بها بطاقة كتب عليها «فلان الفلانى مدير الشركة الأهلية الفنية للشرق الأوسط» .

وفلان الفلانى - ان كنتم لاتعلمون - هو أنا .. أجل أنا نفسى .. الأحمق المأفون .. مدير الشركة المذكورة ، والتى أضعت معها ليلتى .. هى المخادعة .. المحتالة .. الغشاشة .. زوجتى .. ولكن ما ذنبها هى .. الذنب ذنبى أنا .. ذنب الكأس الثامنة .. لعنة الله عليها .

ومددت يدى بالنقود للساقى وأنا أقول له :

- لاتصدق ما قلت لك عن الخيانة الزوجية .. المسألة كلها وهم فى وهم .

وعندما مررت بالرجل القابع فى ركن البار الذى أخافنى بنظراته ، نظرت له وقلت فى غيظ :

- مالك اذاً تنظر الى هكذا . انها زوجتى أنا أيها الغبى .

ولم يفهم الرجل شيئا .

واتجهت الى السلم .. ووقفت أمام الدرجة الأولى وبدأت التنمير .. واحد .. اتنين .. تلاتة .

أيها السفلة اللئام .. كلكم خداعون غشاشون .

وعلى رأسكم .. تلك الرابضة فى حجرتى .. التى أضاعت على ليلتى .

★ ★ ★

انتقام

وأطرقت برأسى وأحسست للرجل بالرثاء والعطف .. لقد ثلم عرضه .. وخدش شرفه .. حقيقة أنه انتقم ، ولكن ليته ما انتقم وما علم !

دق جرس التليفون .. وأمسكت بالسماعة فاذا بصوت صديقتى «م» يهتف :

– ألو .. أهلا وسهلا .. كيف الحال .

– الحمد لله .. من أين تتكلمين ؟

– من البيت .. متى سألقاك ؟

– ليس اليوم .

– ولم ؟

– مشغول .

– بغيرى ؟ ! أنت دائما مشغول ، ولكن ذلك لن يمنع من أن نلتقى .

– هذه المرة .. مشغول وقرفان .

– مم ؟ .. كفى الله الشر .

– أريد أن أكتب .

- ولم لاتكتب ؟

- ليس عندى ما يكتب .

- المسألة بسيطة .. اذا لم يكن عندك ما يكتب فلا تكتب .

- أرجوك .. وفرى نصائحك .. ليس لدى وقت الآن أضيعه فى الدردشة .

- ولكن لابد من أن ألقاك الليلة .. ان الأستاذ « ح » يريد أن يتعرف بك وقد أعطيته موعدا لنلتقى فى جروبى الساعة السابعة فلابد لك من الحضور .

- لن أحضر .

- ولكنى أعطيت الرجل ميعادا .

- يجب أن تتعلمى ألا تعطى مواعيد بالنيابة عنى .. ان وقتى ليس ملكا لك .. أنا وحدى الذى أتحكم فى وقتى .

- هذه آخر مرة .

- ولكن يجب أن أكتب .

- ألم تقل ان ذهنك ليس به ما يكتب .. ما الفائدة فى أن تخزن نفسك فى البيت .. انى أستطيع معاونتك .. ان لدى مئات القصص التى أستطيع أن أقصها عليك لتساعدك .

- قصصك قديمة وبايخة .

- لدى قصة جديدة مدهشة وقعت للأستاذ «ح » سأجعله يقصها عليك .

وكان الأستاذ « ح » ممثلا أستلطفه عن بعد ، ورأيت أن صاحبتى على حق .. وأنه لا فائدة من أن أسجن فى البيت ما دام الذهن فى حالة تبلد وجمود ، وأنه خير لى أن أخرج للترويح عن نفسى .. من يدرى .. قد يكون لديهما حقا ما أستطيع كتابته .

وغادرت الدار ملقيا بالورق والقلم ، وفي الساعة السابعة كنت أقبع في أحد أركان جروبي ولم تمض لحظة حتى أقبلا على .

وقامت صاحبتي بعملية التعارف ، ومضت فترة التحيات الأولية ، وفترة أخرى تبادلنا فيها أنا والاستاذ « ح » آيات الاعجاب وتقارضنا المديح والثناء .. فقلت له انه أنبغ الممثلين . وقال لي انني أقدر الكتاب .

وضحكت صاحبتي وقالت لنا :

- كفاكما نفاقا !

ثم وجهت القول لي :

- ألا تريد أن تسمع القصة .. ألم تقل انك مزنوق وفي عرض قصة ؟

وضحك الأستاذ « ح» وفرك يديه ثم قال :

- نحن في الخدمة .. الأستاذ محتاج لقصة درام ؟ آ

- أهي قصة واقعية ؟ .. أم تنوى تأليفها ؟

- واقعية ، ولكن يمكن أن تكون دراما ، وأن تكون كوميديا كما تشاء .

- لاداعي للدرام .. لست على استعداد للحزن .

- اذن فدعنا ندخل في القصة رأسا .. سأذكرها لك كما وقعت .. بلا حواشي ولا رتوش .. وضعها أنت كما تشاء ..

أنت تعرف - أو لاتعرف - أنني أقطن في شقة في عمارة ايموبيليا .. شقة صغيرة .. على قدر الحال ، وقد مضى على ما يقرب العام وأنا في شقتي لا أكاد أعرف من يقطن بجواري ولا فوقي ولا تحتي ، فالعمارة أشبه ببرج بابل ، ووقتي ضائع بين الاستديو والمسرح ، فأنا لا أكاد أستقر فيها لحظة .. حتى أحاول أن أعرف شيئا عن جيراني .. لا أكاد أعرف في العمارة الا شقتي والطريق الذي يوصلني اليها .. أغادر الشقة من الباب فأعبر الدهليز الضيق الي الأسانسير ، ثم أهبط وحيدا أو مع أناس عابرين لاتكاد تستقر أشكالهم في رأسي حتى تنمحي .. فاذا ما لقيتهم مرة أخري .. بدا لي أني ألقاهم لأول مرة .

ومنذ بضعة أيام عدت الى الشقة بعد منتصف الليل عقب احدى حفلات السواريه التى كنا نقوم بتمثيلها فى الأوبرا .. وارتفع بى المصعد حتى توقف أمام الطابق الذى أقطن فيه ، ثم اتخذت طريقى فى الممر الضيق المظلم ، وضغطت الزر الكهربائى فعم الضوء ، ودفعت المفتاح الصغير فى ثقب الباب ثم دلفت الى الداخل .

وبدأت أخلع ثيابى فى عجلة وأقذف بكل قطعة فى ناحية عندما سمعت جرس الباب يدق .. فأنصت فى دهشة ، وخلتنى واهما .

أى طارق يمكن أن يطرق بابى فى مثل هذه الساعة من الليل ؟ .

ومضت برهة وأنا أرهف السمع دون أن أحاول أن أذهب الى الباب لكى أفتحه ، حتى عاد الجرس يدق مرة أخرى .

من يكون ؟ .. لص ؟! .. ناع جاء يسوق الى نبأ فاجعة أو نازلة ؟!

واقتربت من الباب فى حذر وتساءلت فى صوت كسوته ما استطعت من الشجاعة :

- من ؟

وأجابنى صوت .. هو آخر ما كنت أتوقع .. صوت امرأة .. ناعم رقيق :

- أنا .. افتح .

وبلا أى تردد تقدمت الى الباب ففتحته على مصراعيه .

من يرفض أن يفتح لهذا الصوت الجميل ؟!

ورأيتها رأى العين .. امرأة فارعة الطول .. ممشوقة القد .. مستوية ناضجة .. فى أتم جمالها وأوفر أنوثتها !

- أتسمح لى بالدخول ؟

أسمح ! .. يا نهار اسود !

أنا لاشك في حلم ..

هذه المرأة تريد الدخول ؟ الى شقتى أنا ؟!

لقد بدا لى أنها أخطأت الشقة أو أنها تود أن تسأل عن شىء ، ولم يخطر ببالى أبدا أنها تقصد الدخول .

وتملكتنى حيرة شديدة ، لم أستطع معها أن أنبس ببنت شفة ، ولم تنتظر المرأة اجابتى بل دلفت الى الداخل فى ثقة وجرأة !

وخلعت معطفا فوق كتفيها فوضعته على المشجب ، ثم استقرت على مقعد كبير مريح ووضعت ساقا فوق ساق وسألتنى سيجارة .

وبلا أى تفكير ولا ارادة .. وكأى مذهول تقدمت اليها بالسيجارة وأشعلتها لها فى حيرة ودهشة .. وبى شك فى أن المسألة لاتعدو أن تكون وهما أو حلما .

وتكلمت مرة أخرى فسألتنى عن شىء يشرب :

- شىء يشرب ؟! .. ويسكى ؟ .. كونياك .

- ويسكى صودا .

ونهضت الى البوفيه فأخرجت زجاجة ويسكى ، وذهبت الى الثلاجة فأحضرت بضع زجاجات من الصودا ، وشيئا من المزة .. جبنه وزيتون وعلبة سردين .

من يصدق هذا ؟

سهرة تهبط من السماء .. لقد أحسست أنى ثمل نشوان . قبل أن تمس شفتى الشراب .

وجلسنا نشرب ونمز . والأسئلة تتزاحم فى رأسى : من تكون ؟ وما أمرها ؟ ! وما قصدها ؟ !

ورفعت الكأس الى شفتيها فأفرغته فى جوفها مرة واحدة .

وهممت بضع مرات أن أسألها ايضاحا ، ولكنى جبنت وخشيت أن أكون فى حلم جميل فأضيعه بالسؤال .

ووجدتنى أنهض من مقعدى فأجلس على حافة مقعدها ، ثم أمد يدى فأضعها على ذراعها البضة .

وكانت ترتدى «كم جابونيز» يسمح لليد بالتسلل الى الداخل والتجول .. وأخذت يدى تنتقل من ذراعها الى ما فوق الذراع .. الى الكتف .

ولم تبد المرأة اعتراضا .. بل تركتنى أتحسس كما أشاء .. وهممت بضمها .. ولكنها أبعدتنى برفق ، ثم قالت فى صوت خفيض :

- لا أريد منك أن تتساءل من أكون .. وماذا أريد .. وكيف أتيت ؟ لا تسأل عن شىء . سأهبك ليلة بلا ثمن ، أو بثمن لايكلفك سوى الصمت .. ما رأيك ؟

ولم أكن فى حاجة الى السؤال ، فقد كنت أريدها بأى ثمن !

وأجبتها بالموافقة .. فاستسلمت .

وأخيرا همت بالانصراف وهى تقول محذرة :

- لاتحاول أن تقتفى أثرى .. أو تعرف من أكون .. اعتبر كل ما بيننا منتهيا .

- كيف ؟! .. كيف أتركك تذهبين بهذه السهولة ؟ ..

وصمتت برهة .. وهى تفكر .. ثم قالت :

- اسمع .. يخيل لى أن من الخير أن أرضى فضولك . أنا أعلم أنه أمر عسير أن أتركك هكذا حائرا .. انى زوجة « س » بك .. الذى يقطن الشقة التى أسفلك .

وأحسست بالخجل الشديد .. من نفسى .. أأنا أخون جارى ؟

وأخذت المرأة تتمم حديثها قائلة :

- ولقد فعلت ما فعلت لكى أثار لنفسى ، ولك .

- تثأرين لى .. أنا ؟ !

- أجل .. أثأر لك من زوجتك الخائنة .. التى ضبطتها مع زوجى .. عندما ظن أنى سافرت فدعاها الى شقته في غيبة منك .. وعدت فجأة فوجدتهما معا فى فراش واحد .. فصممت على أن أنتقم لنفسى منه ولك منها ، ما رأيك ؟ .

★ ★ ★

وصمت الأستاذ « ح » ، وأطرقت برأسى وأحسست للرجل بالرثاء والعطف .. لقد ثلم عرضه .. وخدش شرفه . حقيقة أنه انتقم ، ولكن ليته ما انتقم وما علم !

ورأيت القصة محزنة .. من نوع الدرام .. ووجدتنى - دون أن أدرى - أرفع رأسى اليه وأسأله فى دهشة :

- ولكنك قلت أن القصة ليست درامة بل كوميديا ؟

- وماذا كنت أستطيع أن أقول للمرأة .. بعد أن قالت ما قالت .. هل كانت هناك فائدة فى أن أخبرها بأنى لست متزوجا ، وأن الرجل الذى تعنيه هو (ع) بك .. الذى يقطن فى الشقة المجاورة التى تقع فوق شقتهم وأنه هو صاحب الزوجة الخائنة ؟ ! ما الفائدة فى أن أضيع مجهودها سدى ؟ ! . ان كل ما استطعت أن أفعله هو أن أقول - فى سرى - للجار المسكين : «تكون فى بقك ، وتقسم لغيرك» .

★ ★ ★

نكتة قديمة

من يجفف الدمع ويحقن الدماء ؟ ! من يجبر الأوصال .. ويشفي الرؤوس ؟ من أقدر على هذا .. سوى .. «نكتة حلوة» تنسينا الهموم .. وتصفي أكدار الحياة ؟ ..

لقيته تحت شجرة جميز ، غليظة الجذع ، وارفة الظلال ، وقد خلع مركوبه ينفس عن قدميه ، وبدت ساقه العارية بيضاء تطل من سرواله الأسود المنتفخ ، وأحاط خصره بحزام عريض ضغط بطنه المنتفخ ، وانبسطت لحيته على صدره ، وعلت العمامة الضخمة رأسه .. وبدا لي منظره وقورا يوحي بالاحترام والتبجيل .. لولا أمران بدّدا هيبة الرجل وأضاعا وقاره .

أولهما حبل شدّ به عنقه وربطه في فرع من فروع الشجرة ، وثانيهما انطلاقه الشديد في ضحكة مفاجئة .. وقهقهة مباغتة يهتز لها بطنه وتترنح أعطافه .. ثم يظل يرفص بقدميه ويصفق بيديه من فرط الضحك .

ووقفت على مقربة منه ، أرقبه دون أن يراني ، وأتلفت حولي وحوله .. علّي أجد مبررا لضحكه .. أو سببا لقهقهته ، فلم أجد سوى حماره .. يرعى العشب في سكون وتؤدة وصمت وقور .

وأخيرا كف الرجل عن القهقهة .. وهدأت الزوبعة التي هزت كيانه ، وأفاضت من عينيه دموع الضحك .. وأخذ يمسح عينيه بطرف كمه .. ثم

وجدت وجهه قد اكتسى فجأة جلة الجد .. وعلته مسحة ضيق وملل .. وأخذ يقلب شفتيه بين آونة وأخرى مبديا اشمئزازه .

وتملكنى الدهش .. ولم أشك فى أن الرجل - رغم وقار مظهره - به مس من خبل .. وخاصة أني وجدته بعد هذا الضيق والتبرم يندفع ثانية الى عاصفة من الضحك الصاخب ويكاد - لولا الحبل فى عنقه - أن يستلقى من فرط الضحك على قفاه .

وهكذا استمر الرجل .. يتأرجح بين الضحك والتبرم .. يضيق بنفسه مرة ويضحك منها مرات .. والحبل فى عنقه .. والحمار يرعى من حوله حرا طليقا وقورا .

واستبدت بى الدهشة وأخذت أقترب منه وقد عقدت العزم على أن أتبين سبب سروره وضحكه .. أو ضيقه واشمئزازه .

وأقرأته التحية فى أدب واحترام .. ثم قلت :

- أيسمح سيدى أن أشاركه ظل الله فى أرض الله ؟

ونظر الىّ واندفع مقهقها ، فقد كانت النوبة نوبة الضحك ، وأحسست من ضحكه بخجل شديد .. وكرهت أن أكون موضع ضحك وسخرية .. وهممت بأن أؤنبه .. لولا أن كف عن هذا الضحك ، وأجابنى فى رقة :

- أرض الله واسعة ، وظل الله مديد .. تكفى عباد الله كلهم لو كفوا عن الطمع والأنانية .. تفضل ياسيدى اجلس .

وتربعت بجواره بعد أن أزحت مركوبه جانبا .

ومضت فترة صمت .. وجدت فيها نوبة التبرم قد عاودته ، فبدأت أستدرجه الى الحديث قبل أن تعاوده نوبة الضحك .. وقلت له أعرفه بنفسي :

- أنا محسوبك فلان الفلانى .

- وأنا محسوبك جحا .

- جحا .. ؟ !

وتلفت الىّ مستغربا دهشا وهز رأسه وقال ببساطة :

- أى نعم .. جحا .. ألم تسمع بى من قبل .. ؟

سمعت بالطبع ، ولكن لم يخطر ببالى أنك ما زلت على قيد الحياة حتى الآن .. لقد ظننتك انقرضت منذ قرون خلت .

- أنا أنقرض .. ؟ ! جحا ينقرض ؟ ! حرام عليك .. كيف يعيش العالم بلا جحا ؟ العالم البائس الشقى .. المتعب المكدود .. المبهور الأنفاس .. السائل الدموع .. المراق الدماء .. المحطم الأوصال .. المصدوع الرأس .. كيف يمكن أن يحتمل العيش بلا جحا ؟

من يضيء البسمة البيضاء فى سواد الأحزان وحالك الشجن ؟ من يريح النفس المبهور والجسد المنهوك ؟ .. من يجفف الدمع ويحقن الدماء ؟ .. من يجبر الأوصال .. ويشفى الرؤوس ؟ . من أقدر على هذا سوى .. نكتة حلوة .. تنسينا الهموم .. وتصفى أكدار الحياة ؟ .

كيف يكون العالم لو خلا من نكتة حلوة ؟ .. العالم الجاد المكتئب .. كيف يكون بلا جحا ؟

ماذا يفيدنا شيوخه وقساوسته وعلماؤه وجهابذته ومخترعوه وعباقرته ؟

ماذا تفيدنا حكمة هؤلاء وفلسفتهم لو طوينا الأرض فى جد وعبوس ؟

كم شيوخ وقسوس أكثروا
فى انتقاد الكون حتى ثرثروا

بالغوا فى الحدس حتى حذروا
ثم سل الموت منهم مقولا

وغدت أقوالهم سقط متاع

ان ابرّ الناس بالناس .. وأرحمهم للناس ..من استطاع أن يمنحهم ضحكة .

(ليلة خمر)

أليس هدف الانسان الأول فى الحياة .. هو سعادة الفرد ؟ ألم توجد كل هذه الاختراعات والتعقيدات والحروب والثورات لكى تقود الفرد الى عيشة راضية ؟

لقد فشلت كلها .

لقد فشل رجال الفكر .. وأصحاب المبادىء ، والعلماء ، وقادة الحروب ، والقساوسة ، والشيوخ .. كل هؤلاء فشلوا فى أن يسعدوا الانسان .

ولكن فردا واحدا استطاع أن يسعده .. وأن يقتل أحزانه .. هو جحا .

جحا وحده .. الذى منحه هنيهات سعيدة ضاحكة .. بلا تعقيد ولا التواء .

جحا الرحيم العادل . الذى يهب الضحكة لساكن القصور . كما يهبها لساكن الكوخ .. لا يفرّق بين كبير وحقير .. يضحك هذا كما يضحك ذاك .

جحا الذى يجلو الصدور اذا ما حلّ بها صدأ المطامع والأحقاد .

ان ربح العمر ساعات الضحك .. واكثر الناس ربحا من استطاع أن يضحك دائما ، فجعل كل عمره رابحا .

كيف يعيش العالم بلا جحا وبلا نكتة حلوة ؟ . نكتة تضيف الى حلاوة الحياة حلاوة .. وتسلب العيش المرير مرارته .. تجمّل القبيح .. وتضفى على المليح ملاحة .

نكتة تغيّر المرئيات فى نفوسنا .. وتلوّن أمام أعيننا منظار الحياة .. وتنسينا البغضاء ، وتجعل قلوبنا أميل الى الحب وأقرب الى الصداقة والوفاء .

وصمت جحا . وأبصرته يمد يده فيوسع فتحة الحبل حول عنقه وهززت رأسى متسائلا :

– لم تربط نفسك بالحبل ؟

– نوع من المساواة !..

- أية مساواة ؟ ..

- بين الحمار وبينى .. !

- كيف ؟

- هو يربط مرة .. وأنا أربط مرة .. لقد اتفقنا على أن نتساوى فى كل شىء .. حتى الركوب ! . يركب هو مرة .. وأركب أنا مرة !

- وهل يركب هو .. ؟

- لا .. لأننى - منذ أن اتفقنا - فضلت ألا أركبه .. حتى لايجىء يوم يركبنى فيه .. آه لو يعلم كل راكب اليوم أنه سيركب فى غده .. لما ركب أحد قط .

- ولم تربط نفسك اذن ؟

- بينى وبينك .. هذه مسألة مريحة .. لو لم أكن مربوطا الآن لما استطعت أن أتمتع بالجلوس والراحة والتفكير .. ان الانسان يجب عليه من آن لآخر أن يجلس ويستريح ويفكر . ولو فعل كل انسان هذا .. لما أقدم على ارتكاب المساوىء .

ومسألة أخرى تريحنى فى هذا الربط .. هى أن الحمار هو المسئول أن يبحث عنى ، بدلا من أن أشغل نفسى بالبحث عنه !

وصمت جحا ، ورأيته يمد يده ويمسك بالمركوب ويدسه فى قدميه .. فنهضت للاستئذان حتى لا أثقل عليه ؛ ولكننى تذكرت فجأة السؤال الذى من أجله قدمت اليه وتحدثت معه ، وهو الاستفسار عما كان يضحكه .. ويثير تبرمه .

وسألته فى أدب وأنا أنهض واقفا :

- أتسمح لى بسؤال قد يكون فيه بعض التدخل فيما لايعنينى ؟

- سل ما تشاء .

- ماذا كان يثير فى نفسك هذه الزوابع من الضحك ؟

ونظر الىّ جحا فى دهش ، وهز رأسه مستغربا سذاجة سؤالى كأنما هو لايحتاج الى جواب ، وقال ببساطة :

– كنت أحكى لنفسى نكتا .

وفغرت فمى فى بله .. وهززت رأسى .. كان يجب علىّ أن أفهم هذا .. أجل .. ماذا كان يمكن أن يضحك جحا .. سوى أن يقص على نفسه نكتة .. ؟ ولكنى تذكرت الضيق والتبرم .. فعدت أسأل :

– ولكنى كنت أراك تتبرم أحيانا ؟

فنظر الىّ فى غيظ من غباوتى وأجاب :

– أجل .. عندما تكون النكتة قديمة .. سمعتها من قبل !

معه حق .. !!

★ ★ ★

من تحت لفوق

وأما من حيث النوع فبعد أن كانت السرقة سرقة المحتاج ، فقد أضحت السرقة سرقة الطامع الجشع .. لقد أضحت هواية .. لقد كانت الحاجة الى المسروق تكسر حدة الشر وتوجد للسارق عذرا .. أما الآن فقد أضحت السرقة .. سرقة صميمة وشرّا مركزا .

هنا السماء .

نحن الآن فى ركن الأبالسة .. ولكن خرب مقفر أشبه بالطل البالى .. محاط بحديقة صفراء ذابلة مليئة بالصبار الشائك والفروع الجافة والأوراق المتساقطة وأكوام الحجارة والأتربة .

تحيط بالمكان جحور أشبه بالمخابىء ، وضعت على أبوابها لافتات خشبية تبين أسماء المصالح المختلفة فى ركن الأبالسة قد كتب عليها : «مصلحة السرقة» ، «مصلحة الخمر» ، «مصلحة الميسر» ، «مصلحة الغش» ، «مصلحة الرشوة» الخ .. وعلى باب جحر يبدو أكبرها وأوسعها ، كتبت لافتة «مدير عموم الأبالسة .. الشهير بالشيطان الرجيم» .

وفى وسط هذه الجحور صخرة مستديرة أشبه بالمائدة ، وقد وضع فى منتصفها صحفة جمر عالى اللهب مستعر الأوار .

وحول المائدة رصت مقاعد صخرية مليئة بالنتوءات ، وبدا أحد الفراشين من الأبالسة يجهز المكان للاجتماع ، وقد أخذ ينثر الأتربة والأشواك على المقاعد ، ولايكاد ينتهي من عمله حتى يطلق من صدره زفرة حارة ، ثم ينزع عن رأسه القرنين المثبتين فوقه ، ويسحب قدميه من الحافرين المدسوسين فيهما ويحرك أصابع قدميه .. ثم يخاطب نفسه قائلا :

- اللهم تب علينا من القرون والحوافر .. اللهم ارحمنا من هذه السخافات .

ثم يبدأ في الغناء منشدا أحد المواويل البلدية .

ولايكاد يبدأ الغناء حتى يسرع بوضع الحوافر في قدميه والقرون على رأسه ، ثم يقف منتصب القامة ، مخفوض الهامة اذ يرى أحد أبواب الجحور تفتح ويخرج منها رئيس مصلحة السرقة .

يتقدم رئيس مصلحة السرقة في خطوات متمهلة حتى يصل الى مقعده ويجلس عليه في ثورة وهو يقرىء الفراش التحية بقوله :

- صباح الشرياميهوب .

ويحنى «ميهوب» رأسه في أدب شديد ويجيب :

- صباح السوء ياصاحب السفالة .

ويبدأ بعد ذلك توافد رؤساء المصالح الواحد تلو الآخر . فاذا ما انتظم عقدهم واستقروا في أماكنهم ، هل مدير عموم الأبالسة فلا يكاد يقترب من المائدة حتى ينهض بقية الشياطين مرحبين .

ويجلس الفساد الأكبر متصدرا المائدة ويوزع التحيات ذات اليمين وذات اليسار ، ثم يقول :

- والآن لنبدأ العمل .. ماذا عندنا في جدول الأعمال ؟

ويجيب سكرتير المجلس بفتح ملف أمامه ويأخذ في سرد جدول الأعمال قائلا :

- ترقية ثمانية من مساعدة الأبالسة الى درجة ابليس .

- أعندهم كفاءة ؟

- لا .

- نزاهة ؟

- لا .. لا .

- أحلّ عليهم الدور ؟

- حاشا لله .

- ألهم صلة بمجلس الأبالسة ؟

- كلهم أقارب ، ومحاسيب .

- عال .. عال .. كل شروط الترقى متوفرة .. نوافق على الترقية .. بعده .

- احالة ثمانية من أعضاء مجلس الأبالسة ومديرى المصالح الى المعاش لما ثبت من اخفاقهم الشديد ، واعادتهم الى صفوف الملائكة لما تحقق لنا من تقصيرهم الشائن فى نشر الفساد .

تسمع همهمة بين مجلس الأبالسة وتعلو أصوات احتجاج خافتة من الأعضاء .

يضرب «سفالة الرئيس» المائدة بيده آمرا اياهم بالصمت قائلا فى لهجة تنم عن الخطورة :

- هذا الموضوع الذى نحن بصدده موضوع خطير للغاية . انه يهدد كياننا جميعا .. انه تقويض لبنيان الشر والفساد .. فيجب أن نعالجه بحزم وقسوة ، ويجب ألا نتردد فى الضرب على أيدى العابثين والمقصرين .. يجب ألا نجامل ولا نخجل .. يجب ألا نجامل ولا نخجل .. يجب أن نبتر العضو الصالح حتى ولو كان ذلك العضو هو أنا .

وصمت «الفساد الأكبر» ، وخيمت على المكان سحب الجدية والخطورة .. وقطع رئيس الأبالسة صمته بقوله آمرا سكرتير المجلس :

- اقرأ ما عندك .

- تنذر الاحصائيات العامة للفساد بهبوط مستمر فى نسبة الفساد فى كل من مصالح السرقة ، والفسق ، والميسر ، والخمر ، والحشيش الى ٧٥٪ ، والمسؤول الأول عن هذا الهبوط هو مدير المصلحة .. فهو مسؤول أمام مجلس الأبالسة عن كل ما يخص مصلحته .

وتنحنح مدير مصلحة «الفسق» برهة وهمّ بالكلام ولكنه عاد الى الصمت حتى اضطر سفالة الرئيس الى أن يستحثه بقوله :

- ما قولك فى هذا ؟

- السبب واضح يا سفالة الرئيس ، لايحتاج الى تبيان .. لقد ألغى الفسق الرسمى .. بأمر عسكرى .

- وماذا فعلت أنت ازاء ذلك ؟ لماذا لم تقاوم ؟

- أقاوم من ؟ .. أصحاب اللحى والعمائم ؟ أو أصحاب الدولة والسعادة ؟ .. ولماذا لم تقاوم أنت ؟ ولماذا لم يتحرك المجلس كله وقتذاك ؟

وشعر «شيخ الأبالسة» بحرج شديد فلم يجد طريقة للتخلص من الحرج أفضل من أن يحول الحديث الى شيطان السرقة :

- وأنت .. ما سبب ذلك الهبوط عندك ؟

- لقد فعلت كل مافى وسعى ، وأغريت كل من استطعت بالفساد فى نطاق عملى .. وهم الآن فى السجون .. كلهم فى السجون .. قبض البوليس عليهم ، وحاكمهم القضاء ، وأغلقت عليهم السجون .. ماذا أستطيع أن أفعل الآن ؟ من أحض على السرقة ؟

وحك الرئيس رأسه وقال فى حيرة :

– هذه مشكلة .. لم نعمل لها حسابا .. على أية حال دعنا الآن منها .. سنشكل لجنة لبحثها .

ثم التفت الى شيطان «الميسر» وقال مؤنبا :

وأنت ؟ ما عذرك ؟

– عذرى ؟ .. الفقر يا صاحب السفالة .. بم تريد أن يلعب الناس الميسر ؟ .. بالطوب ؟ .. أو بالزلط ؟

– وأنت يا شيطان الخمر والحشيش ؟

– مثله .. زجاجة الويسكى أصبحت بكذا .. وفص الحشيش المغشوش أصبح بكيت .. والناس لاتملك لا كذا ولا كيت .

– وأنت يا شيطان الحب والهوى ؟

– لقد وضعت أصبعى فى الشق .. كلما أوقع اثنين فى الهوى يتزوجان .. لقد أصبح الزواج أرخص وأسهل من أى شىء فى الوجود .

– ما شاء الله .. اذاً فليس أمامنا الا أن نغلق المصلحة ، ونعلن عجزنا التام وفشلنا الذريع .

وساد الصمت الجميع .

ولأول مرة يتكلم «شيطان الخبث» بعد أن ظل طول الجلسة صامتا يرقب ويسمع ولاينبس ببنت شفة . قال موجها الحديث الى سفالة الرئيس :

– أنت وحدك الذى تملك الحل .

– كيف ؟

– تحدث انقلابا عاما شاملا ، وتبدل هذه الأساليب العتيقة التى تسير بها مصالحك .

ما هذا الخراب والفقر الذى نعيش فيه ، وماهذه القرون والحوافر .. هذه كلها أشياء عتيقة وأساليب بالية .. وأى أوساط سفلى تلك التى تصر على أن

ننفث فيها سمومنا ؟ انها لم تعد تصلح لنا ميدانا للعمل . دعنا منها .. فهى سبب بلائنا ونكبتنا .. حوّل جهودنا الى فوق .. فوق .. الى الطبقات العليا الكريمة .

- أى هراء هذا الذى تهذى به ؟ كيف نترك الطبقات الدنيا التى يسهل اغراؤها ونصعد الى الطبقات العليا الكريمة الأصيلة . كيف يمكن اغراء بنيها الذين نبتوا فى منابت العز .. والذين تحميهم دروع من التربية والأخلاق ؟

- آه منك ومن حسن نيتك ، اسمع نصحى وجرّب .. دعنا نصعد الى فوق .. دعنا نشم أنفاسنا .. ماذا عليك لو جرّبت .. لقد وصلنا الآن الى حالة يأس .. بعد أن نفدت كل وسائلنا مع الأوساط السفلى .. لقد دفعنا اليها كل ما استطعنا من الشر .. حتى تشبعت .. ولم يعد هناك لديهم طاقة لقبول أى كمية أخرى من الشر .. لأن طاقتهم محدودة .. فى كل شىء .. حتى فى الشر .. فلم نحاول مع الطبقة العليا .. الكريمة ؟ .. لم لا نجرب ؟

وتلفت «سفالة الرئيس» الى بقية الأعضاء وهز رأسه متسائلا :

- ما رأيكم ؟

وأجاب الأعضاء فى نفس واحد :

- لنجرّب .. ليس هناك من ضرر .

وفض الاجتماع واتجه كل منهم الى مصلحته .

★ ★ ★

هنا السماء .. مرة ثانية .

ونحن فى ركن الأبالسة .. بعد بضعة أشهر .

لا خراب ولا فقر ولا أشواك ولا أتربة ولا صبار .. بل صالة رحبة أنيقة فرشت بالسجاجيد وعلقت على جدرانها الصور الزيتية وتوسطتها مائدة وجيهة قد صفت حولها المقاعد وبدت فيها ردهات واسعة تفضى الى أبواب وضع فوقها مصابيح صغيرة حمراء كالتى توضع فوق مكاتب كبار الموظفين وعلى الأبواب لافتات براقة كتب عليها «مصلحة السرقة» ،

«مصلحة الرشوة» ، «مصلحة الميسر» الخ ، وبدت من خلال النوافذ حديقة غناء فيحاء .

وقد أخذ «ميهوب» يروح ويجيء في الصالة وقد ارتدى حلة أنيقة وأمسك بريشة خفيفة ينفض بها الغبار من الأثاث الفاخر وهو يصفر بفمه أحد ألحان «السامبا» .

وبعد لحظة قصيرة أخذ أعضاء «مجلس الأبالسة» يتوافدون الواحد بعد الآخر .. وليس عليهم من سمات الأبالسة شيء . لا قرون ولا ذيول ولا حوافر .

ولم يكد عقدهم ينتظم حتى أقبل «الشيطان الرجيم» أنيقا وجيها رشيقا حليق الذقن ، مبروم الشارب ، معطر الثياب ، يضع «منوكل» على أحد عينيه .

يلقي على الحاضرين تحية أرستقراطية من أنفه ، ثم يلتفت الى السكرتير ويقول له :

- اقرأ علينا جدول الأعمال يا حضرة السكرتير .

ويبدأ السكرتير في قراءة بعض الأعمال العادية من تنقلات وترقيات ، فلما ينتهي من سردها يفتح ملفا آخر ويأخذ في قراءته :

- هذه احصائيات الفساد الجديدة .. وهي تبرز لنا ارتفاعا عجيبا في نسبة الفساد .

- لنستعرض كل حالة على حدة .. لنبدأ بمصلحة السرقة .. ما آثار التجربة الجديدة يا صاحب اليد الطويلة ؟

- رائعة يا سفالة الرئيس .

- من حيث ؟

- من حيث الكم .. والنوع .. والضمان .. والاستمرار .

- أفصح .

- أما من حيث الكم .. فبعد أن كانت المسروقات بالملاليم والقروش أضحت بالجنيهات . وبعد أن كانت بالعشرات أضحت بالألوف والملايين ، وأما من حيث النوع فبعد أن كانت السرقة سرقة المحتاج فقد أضحت السرقة سرقة الطامع الجشع ، لقد أضحت هواية .. لقد كانت الحاجة الى المسروق تكسر حدة الشر وتوجد للسارق عذرا ، أما الآن فقد أضحت السرقة .. سرقة صميمة وشرّا مركزا .. وأما من حيث الضمان فقد باتت السرقة الكبيرة مأمونة العواقب سليمة النتائج .. وأما من حيث الاستمرار .. فان اللصوص الكبار .. أكبر من أن يزجوا في سجون .. فهم أبقى لنا .. وهم معين لاينضب ومورد لايكف .. حيًا الله الأوساط العليا والطبقات الكريمة .

- وأنت يا شيطان الفسق ؟

وقبل أن يجيب قبل يده وجها وظهرا وقال فى لهجة ملؤها الغبطة :

- رضا يا سفالة الرئيس .. ليس بالامكان خير مما كان . الجرسونيرات الفاخرة تملأ البلد .. وعين البوليس بصيرة ويده قصيرة ، مغلولة الى عنقها .. ورجال الدين يتمتمون ويبسملون ويحوقلون ويحمدون الله رب العالمين .. اللهم أدمها نعمة .

- وأنت يا شيطان الميسر ؟

- أنا ؟ ! حدّث عنى ولا حرج ، النقود تجرى فى أفخم الصالونات كالتبن .. لقد ذاع دائى واستشرى .. ليس هناك بصرة ولا عشرة طيبة .. بل بوكر .. بوكر وبكاراه .. وليس هناك ملاليم وقروش .. بل جنيهات تجرى غير مقطوعة ولا ممنوعة .

- وأنت يا شيطان الحشيش ؟

- فى كل يد حلوة .. وفم جميل أرستقراطى . لقد أصبح الحشيش موضة الأوساط الراقية الكريمة .. لم أعد أنزل الى الغرز والبؤرات .. بل صعدت الى فوق .. فوق .

وهز «شيطان الخبث» رأسه وقال :

- ألم أقل لكم ؟ ! ألم أنصحكم بالصعود الى فوق ؟ .. كلما صعدت السفالة الى فوق ، كلما قوى ذراعها واشتد ساعدها .

الوطن المحتضر

أداتهم اللسان .. وانتاجهم الكلام .. قديرون بلسانهم على احقاق الباطل وابطال الحق .. يدعون لأمر ، وبلا خجل ولا استحياء يدعون لنقيضه .

قال لى صاحبى متسائلا :

– ما بالك يا صاح تعيش فى الدنيا كأنك لست منها ؟

– كيف ؟

– أراك مغرقا فى أوهامك المعسولة .. ممعنا فى الكتابة عن الهوى والعشاق .. مرح الأحلام ، مترنم القلم ، شادى الفؤاد .. تغض الطرف عما حولك من مرير الحقائق والوقائع حتى ليخيل الى أنك لاتعيش فى أرضنا هذه .. أو أنك ثمل لاتحس ولاتفيق .. أو أنك لست منا ولايعنيك أمرنا .

بل أحس وأشعر وأتألم .. ولكنى أغض الطرف اغضاءة يائس وأتعزى بمعسول الأوهام عن مر الحقائق .. ان كلمات النصح لن تغير ما بقومى ، بل ستزيد النوّاح نائحا ، والباكين باكيا !! ولخير لقومى من نوح باك .. ترنم شاد .

– بل نوح باك خير وأجدى .. فالنائح خير مذكر بالمصاب «وذكر انما أنت مذكر».

– أذكر قوما أحياء فى وطن حى .. أما الموتى فى وطن يحتضر ، فماذا يجدى معهم ؟

- الى هذا الحد أنت يائس .. أما عاد يرجى لهذا الوطن خير .. وما عاد يفيد أهله نصح ولايردعهم نذير ؟

- لا أظن .. حتى ولو فعلنا بهم ما فعل حكيم «الوطن الميت» بأهله .

- حكيم «الوطن الميت» ؟ وماذا فعل هذا الحكيم بأهله ؟

- زعموا أنه كان فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان حكيم يعيش في بلدة عم فيها الفساد واستبد بأهلها الفقر والمسغبة والحرمان ، وانتشرت بها الأمراض والأوبئة ، وشاع فيها الجهل والتواكل والضعف ، وتلفت الحكيم حوله عله يجد من أهل البلدة فئة صالحة تعينه على أن ينقذ الوطن مما تردى فيه ويصلح حاله ويقيل عثرته ، ولكنه لم يجد سوى الاعراض من القوىّ والتخاذل من الضعيف .. ووجد سوس الفساد قد نخر فيهم جميعا .. فما ترك أذنا تصغى أو ذهنا يعى .

تلفت الى الحكام ، فاذا بهم فى شغل عن مصالح وطنهم بالعراك على حكمه والتسابق الى امتطاء صهوته ، والتدافع الى جنى ثمار سلطانه ، فلا يكادون يتربعون على دست الحكم حتى يذل الحرص أعناقهم ويعشى أبصارهم ويصم آذانهم ويضعف ذاكرتهم .. فهم لايبصرون ما كانوا يبصرونه ، ولا يسمعون ما كانوا يقولونه .. واذا بجهودهم قد تركزت فى التشبث بأعناق الحكم والالتصاق بصهوته .

مختلفون والهدف واحد .. مقتتلون والأمانى مشتركة .. يتهم كل منهم الآخر بما هو فيه ، ويعيب كل منهم على صاحبه ما سبق أن أتاه .

يعلنون ما لايبطنون .. ويقولون ما لا يفعلون .. يدّعون التسابق الى مصلحة البلد وهم الى مصالحهم أسبق .. ويدعون الحرص على انقاذ الفقير والعامل والفلاح وهم على ثرواتهم أحرص .

يطالبون بالحرية .. اذا ما أفادتهم الحرية .. ويقتلونها اذا ما كشفت عن سوءاتهم .

أداتهم اللسان .. وانتاجهم الكلام .. قديرون بلسانهم على احقاق الباطل وابطال الحق .. يدعون لأمر ، وبلا خجل ولا استحياء يدعون لنقيضه .

وتلفت الى العلماء ورجال الدين .. فاذا بهم أتباع جبناء أشبه بشرّابة الخرج .. سائرون فى مواكب الحكام .. محرقين البخور تحت أقدامهم .. فهم موظفون ميرى .. يحرصون على عيشهم أكثر من حرصهم على الدين .. قانعين راضين .. لايثورون الا بأمر الحكام ، ولايغضبون الا باشارة منهم ، ولايميزون بين الرذيلة والفضيلة الا بأعينهم .. فهم أسبق لنيل رضاء الحكام من نيل رضاء الله .

وتلفت الى الشباب فاذا به رقيع مخنث .. قليل الصلابة ضعيف الاحتمال ، لاصبر له على المكاره ولا جلد على المشاق .

والى الكتاب فاذا بهم أنانيون نفعيون منافقون .. لايحركون أقلامهم الا للاستجداء .. استجداء الحكام أو استجداء الجماهير .

والى الشعب فاذا به متخاذل متكاسل مغرق فى القذارة .. قذارة الخلق والجسد والثياب والدار .

وهكذا لم يجد الحكيم من حوله معينا .. بل كان الكل عونا فى الانهيار والتدهور وحليفا للعدو المثلث «الفقر والمرض والجهل»

وفى ذات يوم روع الناس بالحكيم يعدو فى الطرقات باكيا مولولا وقد شق ثيابه ، ولطم خديه ، وأخذ يصيح مستنجدا :

- آه .. آه .. الى ، الى ، النجدة ، النجده ، المعونة ، المعونة .. الغوث ، الغوث .

وأقبل عليه الناس يسألونه فى فزع وارتياع :

- ماذا بك ؟ ماذا أصابك ؟ قل .. أنطق .

واستمر الرجل فى عويله وبكائه حتى تكاكأت عليه البلدة وهو ممعن فى الصراخ والنواح ، واخيرا نجحوا فى تهدئته .. واخذوا يسألونه فى الحاح :

- قل لنا ماذا بك ؟ ماذا حدث أيها الشيخ العادل الحكيم ؟

- انه يموت .. انه يحتضر .. أدركوه ، أغيثوه .

– من هو ؟ من تعنى ؟

– الوطن ! الوطن يحتضر .. انه يلفظ آخر أنفاسه .. ان لم تنجدوه فعليه العفاء !!

وضج القوم بالضحك .. وهتفوا ساخرين :

– لقد جنّ الشيخ !

ثم صاحوا :

– عد الى بيتك واياك أن تقلقنا بمثل هذه الخزعبلات . أى وطن هذا الذى يحتضر ؟ أكل هذا الصراخ والبكاء لأجل هذه الأكذوبة .. والله لو عدت لمثلها أيها المخرف لجلدناك على سور البلدة .

وعاد الشيخ الى بيته باكيا حزينا وهو ما زال يصيح :

– آه .. آه .. الوطن يموت .. الوطن يحتضر ، أما من منجد ؟ ألا من مغيث ؟

وتفرّق أهل البلدة وعاد كل منهم الى عمله وهم يتندّرون بالحادثة ويروون خبر جنون حكيم البلدة .

وفى اليوم التالى فوجىء القوم بالحكيم يعدو فى الطرقات مرة أخرى .. ولقد اشتد بكاؤه وعلا نواحه وأخذ يصيح بصوت ملؤه الحزن والأسى :

– آه .. واحسرتاه .. واضيعتاه .. لقد مات الوطن ! لقد قتل شر قتلة .. واغتيل شر اغتيال .. أمسكوا القاتل . اقبضوا عليه .. لاتدعوه يفلت .. لابد من عقابه .. لقد قتل الوطن .. ولابد من الثأر له .. أمسكوا القاتل .. آه .. آه .

دعوه يذهب لدفنه ولاتعطلوه .. قل لنا : متى ستدفن الوطن حتى نسير فى جنازته ؟ وفى أى قبر ؟

وصاح الحكيم :

– ليس المهم دفنه .. المهم هو أن نقبض على القاتل .. أجل .. لابد من البحث عنه والعثور عليه وشنقه فى ساحة البلدة .

وهكذا انطلق الرجل فى البلدة يهيم على وجهه باحثا عن قاتل الوطن .. واعتاد الناس أن يبصروه فى كل يوم فى الطرقات وهو يصيح :

- القاتل الشرير .. سأقبض عليه .. لن يفلت منى .. سأنتقم للوطن .. سأردى القاتل وأمثل به وأعذبه عذابا لم يعذبه أحد .

ومضت بضعة أيام دون أن يبصر أحد من الناس للحكيم وجها ولم يعد يراه أحد يهيم فى الطرقات .. وأخذ الناس يتساءلون عن مصيره .. فمن قائل أنه هجر البلد .. ومن قائل انه قد مات .. حتى فوجىء الناس به ذات يوم وقد أقبل يعدو فى الطرقات وهو يثب فرحا ويرقص طربا ويصفق بيديه صائحا :

- أيها الناس أبشروا .. لقد وجدته .. لقد عثرت عليه .. القاتل الشرير .. لقد أمسكت بتلابيبه وضيقت عليه الخناق ولم أمكنه من الفرار . وبضربة واحدة انتقمت للوطن شر انتقام . لقد ثأرت لكم منه وقتلته شر قتلة .. لم أتوان عن ذلك لحظة واحدة خشية أن يتمكن من الفرار ويعاود فعلته .. انه مغامر شرير لا خلق له ولا كرامة .. انه مجرم سافل كذاب محتال .

واستمر القوم فى ضحكهم على الشيخ حتى صاح بهم رجل :

- من يدرى ! قد يكون الشيخ المجنون قتل انسانا كما يقول .. وقد يكون القتيل راح ضحية جنونه .

وأجابه آخر :

- لاتخف .. ان الرجل واهم .. انه لايجسر على قتل نملة .

وصاح الرجل مؤكدا :

- بل قتلته شر قتلة .. وليس أسهل علىّ من أن أثبت لكم ذلك .. لقد قتلته ووضعت جثته فى تابوت داخل البيت .. ويستطيع أى انسان منكم أن يأتى بنفسه ليشاهد قاتل الوطن قبل أن أواريه التراب .. انه عدوكم جميعا ولابد لكم أن تمتعوا أبصاركم بمشاهدة جثته مسجاة فى النعش .. هيا يا قوم ولا تترددوا .

وسرى الخبر فى البلدة سريان البرق .. وبلغ من بها من حكام وأهل علم ودين .. وعرف كل منهم أن الشيخ الحكيم قد قتل قاتل الوطن وأنه وضعه فى تابوت في بيته وأنه على استعداد لأن يريه لكل من يريد رؤيته .

وثار فى نفوس القوم حب الاستطلاع وصمم كل منهم على أن يرى جثة قاتل الوطن .. وبين عشية وضحاها كان أهل البلدة صغيرها وكبيرها وقفوا بباب الرجل يتزاحمون على رؤية القتيل القاتل .

ووقف الحكيم يصيح بهم :

– مهلا مهلا .. ما هذا التزاحم والضجيج ؟ قفوا صفوفا متراصة بعضكم وراء البعض .. سأريه لكم واحدا واحدا .. لن يحرم من رؤيته أحد .. ولكن لابد من النظام حتى تستطيعوا رؤيته كلكم .. أجل .. قفوا هكذا صفا واحدا .. لقد وضعت الجثة فى النعش داخل هذه الحجرة وعليكم أن تدخلوا بنظام واحدا وراء الآخر .. وتلقوا على القتيل نظرة وهو راقد فى نعشه ثم تخرجون من باب الحجرة الآخر وتذهبون فى سبيلكم .. فاهمون ؟

وصاح القوم : أجل .. أجل ..

وبدأ الطابور فى التحرك .. ودلف القوم الى الحجرة واحدا بعد الآخر .. ولم تمض لحظة واحدة حتى أخذوا يظهرون من الباب الآخر خارجين من الحجرة بعد مرورهم بالنعش .

ونظر الناس المتراصون خارج الحجرة والذين لم يأت دورهم للدخول الى وجوه الخارجين الذين رأوا القتيل فأدهشهم ما علاها من وجوم واطراق وحزن وأسف ، وأدهشهم قطرات العرق التى تتصبب منها ، وحاول بعضهم أن يسألهم عما رأوه وكيف وجدوا القتيل ومن هو ؟ ولكنهم لم ينبسوا ببنت شفة فقد كانوا ذاهلين عما حولهم شاردى الأذهان زائغى الأبصار يتعثرون فى مشيتهم وقد استغرقوا فى الصمت وبدا عليهم سيما خجل شديد .

وهكذا استمر الناس يخرجون من الحجرة وقد علت سيماهم علامات حزن والأسى والأسف وكسا وجوههم ذلك المظهر العجيب الذاهل الشارد .

وأخيرا مرّوا جميعهم بالنعش ولم يبق فى البلدة كبير ولا صغير الا وأبصر القتيل .. وخرجوا جميعا لاينبسون ببنت شفة ولايجسر أحدهم على أن ينظر فى وجه الآخر .

ومرت الأيام فاذا بالأعجوبة تحدث ، واذا بالوطن الميت يحيا ، واذا بالحكام يتحدون ويزهدون فى مظاهر الحكم وينسون المصالح الشخصية ويخلصون فى تصرفاتهم ويهدفون الى منفعة الوطن .. واذا الأغنياء يعطون الفقير ماله والمظلوم حقه .

واذا برجال الدين يتخلفون عن ركاب الحكم ويتعالون بأنفسهم ويتسامون فى تصرفاتهم ويعملون لوجه الله والدين والأخلاق لا لوجه الوظيفة وأكل العيش .

واذا الشباب الفاسد ينصلح ويرعوى ويشتد عوده ويصلب ويسير فى طريقه مؤديا عمله مخلصا لوطنه .

واذا الكتاب يصبحون غير مغرضين ولا أنانيين ويكتبون بما توحيه اليهم شجاعتهم ورأيهم دون أن يستجدوا أحدا .

واذا الشعب المتكاسل المتخاذل ينهض ويشتد وتزول من نفسه ومن جسده ومن ثيابه ومن داره القذارة التى لصقت به حتى أضحت شيئا منه .

واذا الركب كله يسير فى هدوء وسلام واطمئنان .. واذا بخيرات البلدة تكفى أهلها جميعا وتغمرهم بالهناء والنعيم .

★ ★ ★

وساد الصمت .. ورأيت صاحبى ينظر الىّ فى دهشة ويقول متسائلا :

- ولكن كيف حدث هذا ؟ ماذا رأى الناس فى التابوت حتى غيروا ما بنفوسهم ؟

- لا شىء .. لا شىء أبدا .. لقد كان التابوت فارغا .. كل ما فعله الرجل هو أن ألصق بقاعه مرآة .. فكلما أطل فيه انسان أبصر فيه صورته

وعرف أنه قاتل الوطن .. وأنه بالجزء الذى يقوم به من الفساد فى حدود عمله قد قتل الوطن ، وأن الوطن لايموت الا اذا تعاون بنوه كلهم على قتله .. كل بما يعمل من شر مهما ضؤل .. فهو مسمار فى نعش الوطن .

وأطرق صاحبى برأسه مفكرا ثم قال بعد برهة :

- من يرزقنا بحكيم مثل هذا يرينا قاتل وطنه ؟

- لا فائدة .

- لم ؟!

- سيطل كل منا فى النعش ويخرج رافع الرأس .. فاذا ما سألوه عمن رأى .. ادعى انه أبصر صورة غيره .. نحن قوم متبجحون مدعون .. لانخجل ولانستحى .

★ ★ ★

نقصوا واحدا

وكان سعيدا ما دام لديه الصبر والايمان والجهد والمحبة .. فهو يستطيع أن يعاود البناء .. والبناء يمنحه الأمن والطمأنينة والاستقرار ..

ما الآخرة ؟

ما آخرة كل هذا الملل الطويل والسآمة القاتلة ؟

من المسؤول عن تبديد أسعد أيام حياته فى هذه الوحدة الموحشة بين الأسلاك الشائكة والبيوت الخشبية وأكواخ الصاج والرمال الملتهبة ؟

من المسؤول عن حرمانه فى تلك الفترة الطيبة من عمره من كل ما يمكن أن ينعم به بشر من استقرار وسلامة وحياة هادئة وادعة فى وطنه وبين أهله ؟

لمن ؟ ومن أجل من ؟

واندفعت الأسئلة تتواتر على ذهنه حائرة بلا اجابة ولا تعليل .

كان يقف أمام منضدة فى أحد الأكواخ الصاج المتناثرة فى أحد معسكرات القنال وقد أمسك بيده سكينا يقشر بها كوما من البطاطس ووضع جانبا سلاحه الذى أنقض ظهره مذ أعلنت حالة الطوارىء ، والذى لم يكن – بلا أى مبرر – يتركه فى كل غدوة وروحة .. وبجواره أخذت القزانات تئز

بمياهها التى تغلى فى جوفها والتى ألقى فيها بتعيين اللحوم الطازجة التى ترد اليه لطبخها .

وأطلق الرجل زفرة حارة وهو يشرد ببصره من النافذة الصغيرة المغطاه بسلك شبكى لصد هجمات الذباب .

ومن وراء النافذة أبصر عربة المتعهد تنزل صناديق المشروبات ولفائف البضائع ، وتجاوز بصره العربة فأبصر من ورائها الأسلاك الشائكة ممتدة الى مدى البصر ومن ورائها بدت داوريات الجند وقد قامت أشباحها فى الأفق تعترض طريق المارة والعربات من الأهلين لتجرى تفتيشا مملا ثقيلا لا جدوى فيه ولا طائل تحته .. وتذكر شكوى زميل له فى احدى تلك الداوزيات من أن الحالة قد انقلبت فأضحت عملية التفتيش أكثر ازعاجا لهم منها للأهلين ، ووصف له كيف يسخرون منهم فيملأون اللوريات بالصبية اللاهين ويجعلونهم يعبرون الطريق ذهابا وايابا حتى يرهقوا الداوريات فى تفتيشهم ولا يتركوا لهم فترة راحة فى الشمس المحرقة .. والداوريات مضطرة للتفتيش كالأوامر رغم معرفتهم أن هؤلاء يعبثون بهم وأنهم سبق أن مروا بهم ذهابا وايابا .. وهكذا انقلبت الآية فأضحت الاجراءات المهددة مصدر ازعاج للجنود لا للأهلين .

وضحك الرجل فى سخرية ضحكة قصيرة ما لبث حتى انقشعت عن وجهه آثارها وحلت محلها سحب الضيق واليأس والملل ، وعاودته أسئلته الحائرة التى لا تدأب تطن فى أذنه ، ثم شرد به الذهن الى الماضى البعيد عله واجد به ما يجتره من ذكريات تعينه على مسغبة حاضره ..

تذكر حبه منذ سنوات عديدة .. سقى الله أيامه ورعى عهده .. كانت أياما عزيزة آمنة ناعمة .. كان يحيا بها كما يريده الله أن يحيا .. كانت له حبيبة .. وكان بينهما لقاء .. وكانت تجمعهما نزهات بريئة ممتعة .. تتشابك فيها الأيدى وتتلامس الشفاه .. كان ينعم بأشياء كثيرة .. يعتقد أن الله قد خلقها لكى ينعم بها ابن آدم .

وقد تزوّج فى يوم جميل .. وهو يذكر الحفل البهيج المتواضع .. وأضحى له بيت ليس على كثير من الفخامة .. ولكنه كان نظيفا هادئا مرتبا ،

وكان يشعر بكثير من طمأنينة وهدوء عند الأوبة اليه والانطواء بين جدرانه برفقة المخلوقة الطيبة الجميلة التى ترعاه .

كل هذا كان له .. ولم يكن بالمحسود عليه فقد كان شيئا طبيعيا ، يكاد يتمتع به كل الناس .. اذ كانت تلك هى طبيعة الحياة .. كما أرادها الله لخلقه .

ومع ذلك لم تدم النعمة .. لقد أبى الخلق ما أراد الله لهم ، وهو لا يذكر أنه تضايق كثيرا وقتذاك وهو يرتدى حلة الجندية ويغادر أرض الوطن مع أفواج الجنود الراحلين الى حيث لايدرى .

حقيقة أنه أحس بلوعة وهو يفارق زوجه ويهجر داره .

ولكن خفف من لوعته أنه يؤدى – كما أفهموه – واجبا نحو وطنه . وأن غيبته كانت الى حين .. سرعان ما يعود بعدها الى بيته وقد أضحت حياته أكثر أمنا وعيشة أوسع رزقا .

ولم يكن يفهم كثيرا من دقائق السياسة .. ولايعرف بالضبط ما دعا الى نشوب الحرب والى خلق العدوان والاقتتال ، ولكنه اقتنع مما سمع من خطب وأحاديث أنه لابد من الحرب للدفاع عن سلامة الامبراطورية وقهر أعدائها ، ولذا لم يضق ذرعا بالذهاب الى الحرب ، لقد كانت ضريبة لابد أن يؤدى قسطه منها .

وهو لايذكر كثيرا عن الحرب .. فقد كانت الفترة التى قضاها فعلا لحظة خاطفة سريعة مليئة بالخطوب والأحداث لم يكن لديه خلالها فرصة للتفكير أو الوعى أو التذكر .. وسرعان ما انتهت الفترة بالأسر .

وفى معسكرات الأسرى فى ألمانيا .. قضى بقية فترة الحرب .. خمس سنوات .. حتى أعلنت الهدنة .

خمس سنوات طوال قضاها بعيدا عن زوجته الحبيبة وعن بيته الآمن الهادىء .

وأخيرا انتهت الحرب ، وتنفس العالم الصعداء .. وكان هو أكثر الناس تنفسا وهو يحل عنه قيود الأسر ويقذف عن كتفيه حملا من الحرمان والبعد

والحنين أنقض ظهره ، ووجد نفسه أخيرا تتحرك به قدماه لتعبرا الحواجز الى الحرية وتقوداه الى أرض الوطن .. الى الأمل المفتقد .. الى الزوجة والبيت .

وغمرته فرحة العودة وفرط الشوق وطول الحنين .. وأحس السعادة المفرطة وهو يضم زوجته بين ذراعيه ، ويحس لهفتها عليه .

أجل .. أخيرا .. عاد .. وعاد كل شيء الى ما كان عليه . ولكن .. لا .. لقد عاد هو حقا .. ولكن لم يعد كل شيء الى ما كان عليه ، بل ما بقى شيء على ما كان عليه .

هذه الأطلال البالية .. والدمن العافية .. هذه الخرائب والأنقاض .. لم تكن هى الأصل الذى تركه .. لشد ما تغيرت الأمكنة وبدا عليها الوجوم والوحشة .

وهز رأسه ، وأدهشه أن يكون هذا هو نصيب المنتصر ، وأن يكون ذلك الحال من الخراب هو ثمن الحرب .. ثمن السنين التى أضاعها هو فى الأسر ، وثمن الأرواح التى بذلها سواه .

أو قد حارب هو من أجل الحصول على مثل هذه الحال ؟ أو كان يمكن أن يصابوا بأسوأ من هذا لو لم يحاربوا ؟

ورفع كتفيه فى حيرة .. انه على أية حال لايفهم كثيرا فى السياسة .. والساسة أدرى منه بمثل هذه الأشياء .

وعاد مرة أخرى الى حياته .. يحاول ثانية أن يعيدها الى حيث أرادها الله .. عمل وكد وربح وعودة الى الدار الآمنة وتنعم بنعم الله .

وكان سعيدا ما دام لديه الصبر والايمان والجهد والمحبة .. فهو يستطيع أن يعاود البناء .. والبناء يمنحه الأمن والطمأنينة والاستقرار .

ان كل شيء يمكن عمله ، ما دام يحيا فى ظل المحبة والسلام بعيدا عن قصف المدفع ، وصفير الرصاصة ، ودوى القنبلة .. وما دام قد أدى واجبه نحو الامبراطورية ، وأبعد عنها شبح الحرب وجعلها تستطيع أن تلعق جراحها فى هدوء وطمأنينة .

ولكن .. يبدو أن الامبراطورية الشقية ، كان بينها وبين مسألة الهدوء والطمأنينة ، تنافر شديد .. وفى نفس الوقت بينها وبين شبح الحرب تجاذب أشد .. وكان أشد ما يعيى تفكيره قدرة الساسة على تعقيد الأمور وتوتيرها ، وعلى خلق الأعداء والتحرش بهم ، بحيث تبدو الامبراطورية دائما وهى وشيكة دخول حرب .

ومرة أخرى .. وبلا أدنى سبب ولا مبرر .. لا حرب .. ولا ضرب .. ولا هجوم .. ولا دفاع .. وجد نفسه يشد رحاله ، ويشحن مع بقية القطيع .

مرة أخرى ترك زوجته .. وهجر بيته .. بلا حماس ولا اقتناع ولا مبادىء .. ورحل الى منطقة القنال .. أو الى ما يسمونه بالشريان الحيوى للامبراطورية التى لاتغرب عنها الشمس .

واستقر به الحال مرة أخرى داخل الأسوار .. ولكنه فى هذه المرة لم يكن أسيرا .. بل آسرا .. وكان الأسرى هم الاثنين وعشرين مليونا الذين يقطنون خارج الأسوار .

ومرّت به الأيام وهو فى حيرة من أمره .. وعندما كان يجلس ليفكر ويشرد ببصره الى الأسوار من وراء النافذة الشبكية .. كان يجد المسألة برمتها خرافة .. أشبه بالأساطير المتوارثة .

أول خرافة فى المسألة .. هى الامبراطورية التى لاتغرب عنها الشمس .. والخرافة الثانية هى الشريان الذى يربط الامبراطورية .. لأن شريان الخرافة خرافة .. والذى يربط الخرافات ببعضها لايزيد عن خرافة مثلها .. والدفاع عن الشريان بطبيعته خرافة .. وتشريد آلاف الجنود وصرف ملايين الجنيهات أشد خرافة .. ان ما وضعوه وما صنعوه فى المنطقة هو الذى جعل لها مثل هذه القيمة ولو تركوها لأصحابها ورحلوا عنها وأزالوا كل ما بها لأضحت غير ذات قيمة .

والخرافة الكبرى هى انهم يدافعون عن شىء لايريد أصحابه دفاعهم عنه .. وأنه اذا ما حدث هجوم سيكون من الطرفين ، من المعتدى الخارج ، ومن صاحب الأرض الداخل وأنه ليس هناك أبعث للهجوم والاعتداء من مجرد وجودهم .

ذلك ما كان يطوف بذهنه .. وهو يرى الكره العميق من الأهالى .. ويرى نفسه لا يأمن على روحه الا اذا سار مدججا بالسلاح .. لم يكن لديه أقل ايمان بسبب وجوده .

كانت حياته كريهة بغيضة .. كانت أبغض من حياة الأسر وآلم من حياة الحرب .. لقد كان فى معسكر الأسرى يعيش بأمل انتهاء الحرب .. كان يلوح له فى الأفق بارقة رجاء .

أما هنا فماذا يأمل ؟ ! أيأمل فى انتهاء السلم ؟ ! أيأمل فى ثورة الأهالى ؟

كانت الحرب تعزية عن آلامها وشرورها بسمو الهدف وطيبة المبادىء وحسن المآل .. أما هنا فأى تعزية يرجو ؟

انه يشعر عندما يصارح نفسه أن الأهداف السامية والمبادىء الطيبة لا ترجى الا بالقدر الذى يحقق المصلحة الخاصة ، وانها لاتطبق الا فى حدود معينة ، فاذا ما خرجت عن هذه الحدود أضحت أوهاما وأباطيل من خدع السياسة ووحى الدعاية .

لقد أحس بالمثل العليا التى كانت تعزيه عن آلام الحرب وأوجاع الأسر قد أضحت فى أسره الجديد مثلا سفلى .

والى متى كل هذا ؟ ! الى متى يضيع عمره فى أوهام الامبراطورية وسلامة الامبراطورية !!

والى متى يظل فى هذه الحياة العفنة المحاطة بأشواك الأسلاك وأشواك البغضاء من شعب ينظر اليهم نظرته الى لصوص قناصة .

الى متى يظل هكذا مغروسا فى حقل من الكراهية ؟

الى متى يظل سجينا فى هذا الكوخ الحار القذر لايكاد بصره ينفذ الى أبعد من حلقات النافذة الا ليقع على المنظر البغيض المتكرر ، عربة المتعهد تسلم البضاعة .. ووراءها الأسلاك ، ووراءها أشباح جنود أشبه بقطاع الطرق .

عزاء واحد هو الذى كان يحمل اليه السكينة بعد طول تخبط فى ظلمات اليأس .

وصورة واحدة هى التى كانت تبدو وراء كل ذلك فتمحو الأحزان وتبدد الآلام .

تلك هى صورة زوجته وذكراها .. والأمل فى العودة اليها .. انها ما زالت تنتظره .. كما انتظرته فى المرة الأولى .. وحيدة صامتة صابرة لا وليد يؤنس وحشتها ولا صديق يفك ضيقها .

هى وحدها عزاؤه .. وكل شىء الى النفاد مآله .. الا هى الباقية .. هذه الأيام القاسية لابد ماضية الى سبيلها .. وبعد ذلك العودة .. واللقاء ..

وأحس من ذكراها هدوءا ملأ نفسه .. وعندما عاد يتطلع من النافذة كانت صورتها تمحو كل ما عداها .. كانت تمحو عربة البقالة وكانت تمحو الأسلاك والداوريات .

شيئا واحدا لم تستطع محوه .. وهو جسد عامل البريد المتقدم نحو الكوخ .

انها لم تمحه .. لأنه يحمل جزءا منها .. أجل .

أجل .. انه لاشك يحمل اليه رسالة .. أو رسالتها هى بالذات .. فمن الذى يسأل عنه فى هذه الوحدة سواها .

واقترب عامل البريد .. وقبل أن يطرق الباب .. كان قد فتحه له ، ومد يده يتلقى الرسالة فى لهفة .

حمدا لله .. انه خطها .

وبأصابع متعجلة فض الرسالة .. وجلس فوق أحد الصناديق يقرأها .

ولم تكد عيناه تقعان على الأسطر الأولى حتى بدرت منه صيحة دهشة مليئة بالفرح ، وأحس بالدموع تملأ عينيه .. وترك يده تسقط بالرسالة فى حجره وتلاحقت أنفاسه .. وحاول جهده أن يتمالك نفسه .

وأخيرا أنعم الله عليه بطفل .. بعد هذه السنين الطويلة من الصبر .. رزقت زوجته بوليد يؤنس وحشتها . لابد أن يذهب ليراه .. ترى ما شبهه ؟ ! وماذا سمته ؟ ولكن ...

وأحس برجفة مفاجئة .. وكأن يدا تعتصر قلبه .

متى ولد ؟

أولد الآن فقط ؟

مستحيل .. لقد مضى عليه ما يربو على العام وهو بعيد عنها .

ربما تكون قد أنجبته منذ مدة ولم تنبئه الا الآن .

أجل .. أجل .. انه لابد أن يكون الآن طفلا ناميا .

ورفع الرسالة .. بيد مرتجفة وبعينين زائغتين أخذ يلتهم السطور التهاما .. ويتم ما قرأ :

«وأظن أنه لا فائدة هناك من محاولة اخفاء الأمر .. لقد استطعت أن أصبر خمس سنين طوالا .. كنت أحيا خلالها على أوهام لقائك وعلى ذكريات حبك .. أما الآن .. فقد بات الصبر متعذرا .. لقد تبددت الأوهام وامحت الذكريات .. وكل ما أرجوه منك الآن هو الانفصال .. ولست أظنه بالشيء المتعذر لأننا لن نفعل سوى أن نسمي الأشياء بمسمياتها .. لأننا منفصلان فعلا .. وانى أحس أنى سأكون أسعد حالا مع الشخص الآخر .. وأظن أنك لاتنكر علىّ بعض السعادة بعد طول الصبر والشقاء ، وأظنك كذلك لاتنكر لى حياة نظيفة أمام الناس بدلا من حياة قذرة فى الخفاء» .

وسقط الخطاب من يده .. وسقط معه العزاء الأخير .

وعندما رفع بصره لم يتخلل النافذة .. ولا أبصر عربة البقال ولا الأسلاك ولا داوريات الجنود .. ولكنه أبصر شيئا واحدا .. كان يملأ كل ناظريه .. وهو السلاح الذى كان يحمله فى كل غدوة وروحة .. والذى كان مفروضا أن توجه فوهته لأحد أولئك القابعين خارج الأسوار التى تفيض نفوسهم بالبغض والكراهية .

وأمسك الرجل بالسلاح وصوّب فوهته نحو رأسه وضغط على الزناد وهو يهتف لنفسه :

«أنا أولى بها ...» .

وانطلقت الرصاصة فاستقرت فى رأسه .

ونقص جنود الامبراطورية التى لا يغرب عنها الشمس .. واحدا .

ذاكرة لا تغفل

وانتظرته كثيرا .. كنت الانسان الوحيد الذى أفتقده .. والذى أحس غيبته .. والذى لم ييأس من عودته .. ولم يغفله من ذاكرته أبدا ..

انحدرت بنا العربة من النقب رقم ١٣ ، ولم يكن عبور النقب بالأمر الهين ولاسيما قبل أن تمتد اليه يد الاصلاح وقبل أن ينسف المهندسون العسكريون جوانبه ويدكون أرضه .

عبرنا النقب بسلام وتحركت بنا العربة فى الطريق الضيق الذى رسمته عجلات العربات بين الأعشاب والآكام ، وقد أخذت تعلو بنا وتهبط متأرجحة بين موجات الأرض كأنها زورق تتقاذفه الأنواء .

كان ذلك فى عام ١٩٣٩ وقد عسكرنا على المرتفعات المشرفة على الواحات البحرية بالقرب من النقب رقم ١٣ المؤدى الى الطريق الواصل الى سيوة ، وكان كل ما حولنا يبعث على الملل .. فقد سئمت نفوسنا صفرة الرمال والفراغ والوحدة .. ولم يكن هناك مايهيىء لنا بعض التسلية الا تلك الزيارات التى كنا نقوم بها من آن لآخر لرجال الحدود والمأمور فى استراحتهم فى بلدة الباويطى ، وهى مركز الواحات البحرية وأهم بلدانها ، والا تلك الجولات التى كنا نقوم بها داخل الباويطى والزبو ومنديشا فنبتاع منها بعض البرتقال والبلح .

ولم يكن هبوطنا من معسكرنا الى منخفض الواحات فى ذلك اليوم بقصد زيارة استراحة الحدود أو التجول فى احدى القرى .. وهما المتعتان الوحيدتان اللتان كان يمكن أن نباشرهما فى ذلك الوقت .. بل كان لأمر جديد لا أكتمكم القول أنه بعث فى نفوسنا غبطة وحبورا .

كنا فى طريقنا الى مسز أندروز .. ولست أشك أن كلمة – مسز – فى ذلك الوقت وفى ذلك المكان كانت من خير الكلمات التى تقع فى النفس موقعا حسنا وترن فى الأذن رنينا موسيقيا .

كان وجود «مسز أندروز» فى الواحات البحرية أمرا عجيبا ، ولاسيما اذا ما علمنا أنها قد استوطنت وزوجها الواحات منذ مدة ليست بالقصيرة وأنهما يقطنان فى دار قد شيدت فوق الجبال المسماة جبال منديشا .

ومع ذلك فلست أظن وجود الزوجين فى مثل هذا المكان هو الحدث الأول من نوعه .. فقد سمعت من قبل عن غيرهما من المستشرقين الذين يقطنون الصحارى المصرية .. ويستوطنون فيها ويجعلون منها مأواهم حتى آخر العمر .. بل انى قد زرت من قبل رجلا يدعى «براملى» يقطن هو وزوجته وابنته فى بيت فى جوف الصحراء على مقربة من برج العرب ووجدت الدار من الداخل والخارج ، آية فى الفخامة والجمال .

وقد وقع بصرى على «مسز أندروز» أول مرة عندما صعدنا لمشاهدة جبل منديشا وتسلقنا الصخور المؤدية الى المواقع التى كان يحتلها السنوسيون عندما استولوا على الواحات فى الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٧ .

وشاهدنا دار «أندروز» المبنية من الصخور السوداء المقطوعة من الجبل نفسه وأخذنا نطوف حولها ، وكانت الدار فى الواقع على شىء من الروعة .. زاد من تأثيرها الجو المحيط بها والموقع المشيدة عليه .

لست أدرى اذا كانت السيدة ربة البيت أحست بوقع أقدامنا فهبطت الينا لتتبين من نكون ، أم أن خروجها من الدار كان محض صدفة .

على أية حال لقد وجدنا باب البيت يفتح ولمحنا السيدة تواجهنا وقد

ارتسمت على وجهها ابتسامة رقيقة وأشارت لنا برأسها محيية ، فأجبنا التحية ، وتقدمنا اليها مصافحين .

كانت السيدة فى العقد الرابع من عمرها لم تحاول أن تستر بالأصباغ ذلك الشيب الذى وخط رأسها ، وحسنا فعلت .. فلقد منحها الشيب وقارا جميلا .. أو جمالا وقورا ، اذ لم يكن جمالها من نوع سريع الأفول .. بل كان جمالا يتعذر على السنين أن تنال منه ، وحتى لو استطاعت أن تنال منه .. فان آثاره وبقاياه كانت كافية لأن تعلن لك : أن المرأة كانت ساحرة فاتنة ، وكان جسدها على شىء من الضآلة والنحول ، الذى يبديه قويا متماسكا بلا استرخاء ولا ترهل .

ولا أظن هناك خير ما ألخص به وصف المرأة من أنها كانت - رغم يقين الناظر اليها ، من أنها قد بلغت الأربعين ، أو جاوزتها - ذات رقة تسبى ، ولطف يأسر .. وأن الانسان لايستطيع الا أن يحس رغبة فى الجلوس اليها ، والحديث معها .

أم ترانى كنت واهما .. ؟ وأن طول حرماننا من رؤية نساء متمدينات ، متعطرات ، متأنقات ، كان هو سبب اعجابى بالمرأة .. وأنها لم تكن أكثر من كعكة فى يد اليتيم - والكعكة فى يد اليتيم عجبة - !!

قد .. وقد .. فانى لا أكتمكم القول ، أننا فى تلك الفترات التى كان يطول بنا البقاء خلالها فى الصحراء .. كان مجرد رؤيتنا لثوب ملون .. يبعث فى نفوسنا نشوة ، ويملؤنا طربا .

دعتنا المرأة الى التفضل بزيارة دارها .. ولكن موعد عودتنا كان قد أزف ، ولم يكن لدينا من وقتنا فسحة تهيىء لنا مجالسة السيدة ومشاهدة دارها ، فاعتذرنا عن الدخول ، واعدين اياها أن نعود فى الغد ، لنتناول معها الشاى فى الساعة الخامسة .

لبينا الدعوة مرحبين وعدنا فى اليوم التالى .. ووقفت العربة أمام سفح الجبل وقفزنا منها أنا ورفيقى .. وأخذنا نتسلق الجبل ، وبعد دقائق كنا واقفين أمام الدار نطرق بابها .

وفتح الباب خادم من أهل الواحة ، وقادنا الى حجرة الجلوس وجلست وصاحبى نقلب البصر فيما حولنا ، مأخوذين بجمال الرياش وحسن تنسيقه .. وبعد لحظات أقبلت السيدة وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث حتى أحضر الخادم الشاى ، فأخذنا فى احتسائه .

وكان ذهنى يشرد من حين لآخر فى سؤال حيره : أين مستر أندروز ؟

لقد فهمت من المأمور : أن الرجل يقطن مع امرأته فى الدار .. ومع ذلك فاننا لم نصادفه فى المرة السابقة .. ولم يخف لاستقبالنا مع زوجته فى هذه المرة .

وكنت أتوقع أن يحضر الينا بين آونة وأخرى ، ولكن الوقت مرّ ، وطال بنا الحديث .. وبدأنا نتأهب للانصراف ولا أثر للرجل فى الدار .

وقبل أن ننصرف جالت السيدة بنا فى حجرات الدار .. وتملكنا العجب مما شاهدنا .. فقد كانت الدار أشبه بمتحف ، ملئت جدرانه بمختلف أنواع الحيوانات المحنطة ، وأسلحة الصيد ، والصور الزيتية الرائعة ، والتماثيل الدقيقة .

ووقفنا أمام دهليز طويل مظلم ، يؤدى الى باب مغلق .. وأشارت السيدة الى الباب قائلة :

- هذه حجرة مكتب زوجى .. انى شديدة الأسف لأنه لم يخرج للقائكما ، فهو منهمك هذه الأيام فى كتابة مذكرات له .. وهو دائم الخلو بنفسه .. حتى لايزعجه أحد ، ويقطع عليه حبل أفكاره .

وتمتمنا ببضع كلمات نقبل بها اعتذار المرأة .. ولم يكن هنا أسهل من قبوله .. فما كان بنا كثير شوق الى لقاء الرجل .

وترددنا بعد ذلك على السيدة بضع مرات فى أوقات متفاوتة فقد وجدنا فيها كما وجدت فينا : كثيرا من التسلية .. والواقع أنها كانت محدثة ماهرة .. وكانت دائما تملك ناصية الحديث ، فقد كانت أقاصيصها لاتنفد .. وكانت تبدو لنا كلها واقعية ، لا أثر فيها للخيال .

وفى كل تلك المرات التى ترددنا فيها على السيدة لم يبد لنا زوجها .. اللهم الا ذبالة تتراقص في حجرته من وراء النافذة ، فتفيض علينا جوا رهيبا ، موحشا ، وتوحى الينا بأن الحجرة مليئة بالأشباح والأرواح .. وأن الرجل المختفى بها ساحر يحرق من حوله البخور ، ويحضر الجن ، والشياطين .

وفى ذات يوم دعتنا السيدة لتناول العشاء .. وذهبنا اليها قبل الغسق ، وجلسنا فى شرفة الدار الرحبة .. نرقب الغروب ، وتمدد ثلاثتنا على مقاعد طويلة وشغلنا عن الحديث بمراقبة القرص الأحمر ينزلق ببطء وراء الأفق مخلفا وراءه حواشى وذيولا من الشفق الأحمر .

وسحرنا المنظر المحيط بجماله .. وبدا لنا كلوحة أبدعتها ريشة فنان .. وهل هناك أبدع وأروع من فن الخالق ، وسحر الطبيعة ؟ ..

بدت الواحة منبسطة أمامنا .. وقد قامت فى ركن منها بلدة الباويطى ، واختفت أكواخها المتواضعة ، خلف نخيلها الباسق ، وأشجارها الكثة الداكنة ، وبدا العرب عائدين بحميرهم العجفاء ، وقد وضعوا عليها زنابيل العجوة .. وفى الناحية الأخرى : بدت غرود الرمال الناعمة ، القائمة فى الطريق الى الربو ، وقد ظهرت عليها آثار أقدام الرجال والجمال ، واضحة جلية .. وخاصة بعد أن انعكست عليها أشعة الشمس المنزلقة ، فتركت لها ظلالا طويلة داكنة .

وتناثرت فى الأفق المرتفعات بمختلف الاشكال والأحجام والألوان ، ففي أقصى اليمين بدا المرتفع المخروطى الأسود وفى الوسط قامت تلك القباب المستديرة الصفراء ، وفى اليسار بدا جبل آخر كأنه رأس أبى الهول .

وهوى القرص الأحمر ، وهوت من بعده ذيوله وحواشيه وأخذت الظلمة تتسرب رويدا رويدا .. كأنها اللص يسترق الخطأ ، أو النوم يتسلل الى الجفون .. حتى أحسسنا فجأة أن الليل قد أقبل ، وأن النهار قد ولى .

وأخيرا تحدث صاحبى فقال للسيدة :

- لقد سلبنا الغروب متعة حديثك .. وأغرقنا فى صمت عميق .. والآن هات بعض أقاصيصك الممتعة .

وضحكت السيدة ، ومدت يدها الى صندوق سجائرها فتناولت واحدة ، وأعطت صاحبى واحدة .. وأشعل صاحبى سيجارتها وسيجارته .. وأخذت أرقب السيجارتين المشتعلتين فى الظلمة .

وبدأت السيدة حديثها قائلة :

- لا أظن أنكما قد سمعتما عن جالن .

وصمتت برهة حتى تتلقى جوابا بالموافقة .. ولكننى لم أتكلم ، فما كنت أعرف من يكون «جالن» هذا .. وشعرت بخجل من جهلى ، وتمنيت لو أن صاحبى كان يعرفه حتى لانظهر أمام السيدة بهذا الجهل .. ولكنه لم يتكلم هو الآخر .. وأخيرا عاودت السيدة حديثها :

- حسنا .. ان هذا سيجعل مهمتى أكثر صعوبة .. كان جالن من كبار المكتشفين الذين اكتشفوا مجاهل أفريقية ، وكان صاحب النظرية القائلة بأن حملات الاكتشاف الصغيرة التى لا تحمل من المهمات والأمتعة ما يثقل حركتها ، أفضل كثيرا فى أعمال الكشف من تلك الحملات الضخمة التى تثقل نفسها بأثقال من المؤن والتوابع .

قام جالن بآخر رحلاته منذ بضعة أعوام فى أوائل الصيف مصطحبا معه زميلا له يدعى هيلز فى مثل شدته وحنكته . وكان فى رفقتهما اثنان من المواطنين السود .. وكان غرضه من الرحلة هو عبور بعض مناطق لم تكتشف بعد فى اتجاه الشمال الغربى من أوغنده .

وكانت المنطقة التى ينويان عبورها منطقة جرداء لا أثر بها للحياة ، أو على الأقل هكذا كانت تبدو على الخريطة ، رغم أن الأقاصيص كانت تقول انها نقطة آهلة عامرة ، يقطنها قوم لم يستطع أن يصل اليهم مخلوق على قيد الحياة .. وكان هناك من الأدلة ما يثبت صحة هذه الأقاصيص .. فمنذ ما يقرب من عامين قبل بدء الرحلة ، التقى جالن فى احدى رحلاته التى كان يحاول فيها اختراق المنطقة بأحد المواطنين الذى أراه بضع قطع من العملة الذهبية ، وخاتما فضيا ركب فيه فص من حجر أخضر داكن لم يستطع جالن أن يميز كنهه .

وعندما سأل الرجل عن مصدر القطع الذهبية والخاتم أنبأه أنه قد عثر عليها منذ سنوات فى أحد الجبال الكائنة فى اتجاه الغرب ، ولم يرد الرجل أن يعطيه القطع الذهبية ، ولكنه تنازل له عن الخاتم فى لقاء بعض الخرز والحلى .

ومنذ ذلك اليوم والخاتم لايفارق أصبعه ، وقد أخذت رغبته تزداد فى عبور المنطقة ، واكتشاف المدينة ، حتى كان ذلك اليوم الذى بدأ فيه رحلته فعلا .

بدأ الأربعة الرجال رحلتهم وحلكة الظلام لم تنقشع بعد ، وسار الرجلان الأبيضان يتبعهما التابعان ، وقد حملا أخف ما يمكن حمله من الزاد والمؤن والأمتعة .. وعندما قطعا من رحلتهما ستين ميلا عاد التابعان . واستمر الرجلان فى سيرهما وحيدين .

لم تكن هناك أنهار معروفة فى تلك المنطقة ، ولكن الرجلين العائدين كانا يحملان رسالة من جالن بأنه يتبع فى سيره نهرا صغيرا يجرى فى اتجاه الغرب .

مضت أيام وأسابيع وأشهر ، وما من نبأ عن الراحلين ، وأرسلت فى أثرهما قافلة للبحث عنهما ، وقادها التابعان الى النقطة التى تركا عندها الرجلين .. وقضت القافلة بضعة أسابيع فى البحث والتنقيب ، ثم عادت أدراجها دون أن تعثر لهما على أثر ، ومنذ ذاك الوقت لم تبصرهما عين ولا سمعت عنهما أذن .

ولست أشك فى أن خاتمة جالن بهذه الكيفية لاتبدو الا أمرا طبيعيا ، فما كانت ترجى لمغامر مثله دأب على أن يلقى بنفسه الى التهلكة سوى هذه الخاتمة .. ولقد تقبل الناس نبأ اختفائه ببساطة كأنه شىء كان لابد من حدوثه .. ولا أظن أن هناك مخلوقا قد افتقده ، أو أحس بغيابه .. اللهم الا مخلوق واحد .

كان هذا المخلوق الذى افتقد جالن .. هو أنا .

لا أريد أن أندفع فى تحليل مشاعر .. أو وصف أحزان وأشجان .. فتلك أشياء مضت .. سلبها الزمن جدتها ، فلم يبق منها الا ذكريات باهتة شاحبة ،

كنت فى ذلك الوقت أعيش فى أوغندة حيث كان والدى يقوم بالتبشير فى مجاهل أفريقية ، والتقيت بجالن لأول مرّة قبل أن يبدأ رحلته الأخيرة ببضعة أشهر .

كان مخلوقا عجيبا .. أشبه بأبطال الأساطير .. كان جميل النفس والقلب والوجه والجسد .. فسرعان ما أحببته .. ولست أدرى ما اذا كان قد أحبنى لأنى كنت المرأة الوحيدة التى يستطيع أن يحبها وقتذاك .. أم أنه قد أحبنى لفضل فىّ وميزة بى ؟ !

ولكن الذى كنت موقنة به هو أنه أحبنى كما أحببته .. واتفقنا على الزواج بعد أن يرجع من رحلته .

وانتظرته كثيرا .. كنت الانسان الوحيد الذى أفتقده .. والذى أحس غيبته .. والذى لم ييأس من عودته .. ولم يغفله من ذاكرته أبدا .

وأيقن الناس أن جالن وصاحبه قد ماتا .. حتى بدأت الاشاعات تزعزع ذلك اليقين .. فلقد صادف بعض منهم بعض الرجال السود الذين أنبأوهم بأنهم صادفوا آخرين أنبأوهم بأنهم سمعوا أن هناك من رأى رجلين من البيض يسيران فى الأدغال .

لقد كانت هناك دائما اشاعات تغذى النفس الساغبة وتحيى فيها موات الأمل ، كانت الاشاعات لاتكف أبدا ، هذا سمع من هذا الذى سمع من ذاك الذى صادف هؤلاء الذين التقوا بأولئك .. وهكذا دائما .

ومضى عام دون أن يعتبر الراحلان قد ماتا رسميا .. حتى تواترت بعض الأدلة التى استطاعت أن تثبت شيئا حقيقيا عنهما .

كان أحد الرجال البيض يبحر للصيد فى أحد الأنهار فعثر على رجل من المواطنين أثبت أنه قد رأى جالن وصاحبه بعد أسبوعين من اختفائهما .

قال الرجل أنه رأى هيلز الذى وصفه بأنه الرجل الأشقر . - كان هيلز أشقر الشعر ، وكان جالن أسوده - مصابا بعرج شديد ناتج عن تسمم جرح فى ساقه ، وأنهما سارا فى اتجاه الشمال الغربى رغم أن الطريق كان من المستحيل عبوره .

ثم قال انه سمع من بعض رجال القبائل المجاورة بأن هيلز قد مات بعد يومين ، وأن جالن قد عاود السير فى طريقه وحيدا .

وعندما سئل الرجل أن يصف جالن قال : انه يلبس فى أحد أصابعه خاتما فضيا ذا حجر أخضر .

فلوكانت رواية الرجل صحيحة فان جالن يكون قدشوهد آخر مرة فى البقعة التى مات فيها صاحبه ، وهى تبعد حوالى مائة ميل عن أحد الأنهار ، وكان يقال ان القبائل التى تسكن شمال هذه المنطقة قبائل متوحشة ، ومن المستحيل أن يكون جالن نجا من براثنها اذا كان قد حاول عبور المنطقة .

ومع ذلك فقد قامت حملة للبحث عنه ، واستطاعت الوصول الى النقطة التى مات فيها هيلز وعثرت على ما أثبت وفاته ، وأكد صحة قول الرجل .

ونجحت الحملة فى التقدم بعد ذلك ما يقرب من ثلاثين أو أربعين ميلا فى طريق شديد الوعورة ، واستمرت فى تقدمها حتى تعذر عليها السير ، فاضطرت الى العودة دون أن تعثر على أى أثر لجالن .

ولم يكن هناك شك فى أن هذه الحملة مجهزة خيرا من جالن وأنه لايمكن أن يكون قد استطاع التقدم حيث تعذر عليها هى التقدم .

وكانت كل الدلائل تجزم بأن الرجل يستحيل عليه أن يكون قد عبر المنطقة واستطاع الوصول الى النهر الكائن فى الشمال الغربى ، وعلى ذلك فقد اعتبروه - رسميا - ضمن الوفيات .

وهكذا انتهى جالن .. ولم يعد ثمة شك فى وفاته .. حتى الاشاعات نفسها قد كفت عن ذكره .. فما عاد أحد يقول أنه رأى من سمع أنه رأى من رآه .. وتزوجت أنا فى ذلك الوقت زوجى الأول .. وهو رحال يدعى أشلى وكان صديقا لجالن .

وجلسنا ذات يوم نتحدث عن الرجل المفقود فأنبأنى أنه يتمنى لو استطاع أن يكشف سر اختفائه ، وأنه يود أن يقوم برحلة لتتبع آثاره .

وظلت الفكرة تساور نفسه بعد ذاك حتى استيقظ ذات صباح فأخبرنى أنه قد نوى أن يقوم بالرحلة .. لأن هناك فكرة جديدة طرأت على ذهنه ..

قال أشلى : ان جالن ربما يكون قد استعصى عليه السير فى اتجاه الشمال الغربى .. فاتجه الى الجنوب الغربى قاصدا احدى القرى الكائنة على مسيرة مائة وخمسين ميلا .. وأن اختفاءه لاشك كان فى هذا الطريق .

وكانت خطة أشلى هى أن يبدأ السير من النقطة التى توفى هيلز عندها مخترقا الأدغال متجها الى الجنوب الغربى بقصد الوصول الى القرية .. وكان علىّ أن أذهب الى القرية رأسا بطريق النهر ، وهو طريق سهل يقودنى من سكننا الى القرية المذكورة دون أية مشقة .. وكان علىّ أن أنتظره فى القرية حتى تاريخ معين ، فان لم يصل فى هذا التاريخ أبدأ البحث عنه .

وبدأ زوجى رحلته مصطحبا اثنين من المواطنين ، وتحركت أنا الى القرية وفى رفقتى اثنان مثلهما .

ووصلت الى القرية أخيرا بعد عشرة أيام قضينا معظمها متحركين فى النهر ، ووجدت القرية لاتزيد على بضعة أكواخ تحيطها الأدغال الكثيفة . ووجدت فى ناحية منها منشأة أقامها البيض لتعليم المواطنين .

وكانت مكونة من جناحين : جناح به المدرسة والكنيسة وجناح به بعض حجرات أعدت للسكنى .

كان المكان يبدو رهيبا ، وقد أحاطته الأدغال من كل جانب .. وكانت المنشأة تبدو خربة موحشة بجدرانها التى كانت بيضاء فيما مضى من الزمن ، ثم حطت عليها الأتربة ، وخيمت العناكب ، ولم تكن المساكن التى بها تبدو مساكن أحياء ، بل أجداث أموات .

لقيت عمدة القرية وأنبأته بما قد أتيت لأجله فرحب بى وقادنى الى احدى الحجرات فوجدتها خالية الا من عنجريب للرقاد ، وخزنة خشبية لوضع الأمتعة .. وتملكتنى رهبة وخشية وأنا أطوف ببقية الحجرات المهجورة الخالية ، حتى وقفت أمام حجرة مغلقة ، وأنبأنى الرجل أنها حجرة حارس المنشأة ..

ورويدا رويدا بدأت أتعوّد المكان وتبددت من نفسى الخشية وانقشعت الرهبة .. ومضى اليوم دون أن أبصر الحارس ، فقد قيل لى انه غائب فى قضاء حاجة .

وذهبت الى الفراش وأصابنى أرق فى مبدأ الأمر ، ولكن تعب الرحيل سرعان ما تغلب عليه .. ولم أستيقظ فى الصباح الا والشمس قد تسللت من النافذة الضيقة ، وغمرت أرض الحجرة ،

نظرت من النافذة فكان أول ما وقع عليه بصرى هو حارس المكان .. كان كهلا أشيب الشعر أشعثه ، لايستطيع الانسان أن يميز تقاطيع وجهه وسط ذلك الكوم – الهائش – من شعره المسترسل ولحيته المطلقة .

وكان يرتدى ثياب المواطنين وان كنت قد استطعت الجزم أنه ليس منهم .. فقد كان جسده أسمر لوّحته الشمس ، وكانت هيأته توحى بأنه أوروبى استوطن المكان منذ زمن طويل .

وعندما تحرك الرجل وجدت باحدى ساقيه عرجا وأحسست بدافع قوى يدفعنى الى أن أهبط من حجرتى .. وأن أقترب للتحقق منه .

ولم تمض لحظة حتى كنت أقف أمامه ، وتأملت وجهه مليا .

وأحسست برجفة تسرى فى بدنى ، وعلت عينىّ غشاوة ، ومددت يدى لتحيته ، فمد الى يدا قد وضع فى احدى أصابعها الخاتم ذا الحجر الأخضر .

وهتفت فى صوت مبحوح :

– جالن ؟ ..

ولكن الرجل رفع حاجبيه فى دهشة وتمتم معتذرا :

– آسف ياسيدتى .. انى أدعى جيم ..

هكذا أجابنى الرجل .. ومع ذلك فانى كنت واثقة من أنه لايمكن أن يكون سوى جالن .

لم يكن من المستحيل أن يكون جالن قد وصل الى هذا المكان ، ولم يكن أهل هذه الناحية قد سمعوا من قبل عن جالن .. فقد كانت المواصلات بيننا تكاد تكون معدومة .. وحاولت أن أتفاهم مع الرجل الذى أنكر نفسه ، والذى بدا راغبا عن الحديث معى ، كارها للقائى ، وسرعان ما رفع يده بالتحية .. ثم أعطانى ظهره وانصرف .

واستمر الرجل ينأى بنفسه ، وحاولت أن أستفسر عنه من بعض المواطنين ، فأجابونى بأنهم أبصروه أول مرة آتيا من ناحية الغرب ، ووصفوا لى كيف وجدوه يزحف بين الأدغال على قوائمه الأربع وقد تملكه الاعياء ، حتى أفقده القدرة على النطق والتفكير ، وحملوه بين أيديهم كأنه خرقة بالية ، أو كوم من العظام .

ومرت بضعة أيام حتى بدأ الرجل يتمالك وعيه .. ويستعيد قواه ، ويصبح كائنا حيا .. ولكنه لم يكن يعرف نفسه ، أو يذكر من أين أتى ، والى أين يذهب .. وكان يشعر بخوف شديد من الأدغال .. ولا يجسر على الاقتراب منها .. واستمر مستوطنا فى القرية لم يفارقها حتى ذاك الوقت .

ولم أشك مما قيل لى أن الرجل هو جالن نفسه ، وأنه لم يصل الى القرية الا بعد أن أوشك على الانتهاء .. وأن ما لاقاه من مشاق فى السير والجوع والعطش قد أفقده عقله ، وأصابه بذعر شديد من الأدغال .

ولم أعدم بعد ذلك الوسائل التى استدرجت الرجل بها الى مجالستى .. وحاولت جهدى أن أزيل بعض السحب التى تخيم على ذهنه ، وأن أعيد اليه شيئا من ذاكرته الضائعة ، وحاولت أن أتحدث اليه عن جالن ، ولكنه أبدى نفورا شديدا ورفض أن يستمع الى .

ومرت بى الأيام وأنا منهمكة فى معالجة الرجل حتى حل الموعد الذى كان على زوجى أن يصل فيه .. ولكنه لم يصل .

جهزت المؤن والأمتعة .. واصطحبت اثنين من المواطنين ، وغادرت القرية متجهة الى الناحية التى كان يجب أن يأتى منها زوجى والتى أتى منها جالن من قبل .

كان الطريق شاقا .. والسير منهكا .. ومضت بضعة أيام قطعنا فيها بضعة عشر ميلا .. وفي اليوم السابع التقينا بأحد المواطنين الذى حذرنا من السير خشية أن نقع فى أيدى احدى القبائل المعادية التى صادفت منذ بضعة أيام أحد الرجال البيض وذبحته .

ولم تكن قصة الرجل مقنعة تمام الاقناع ، ولكن الأمطار بدأت تهطل بغزراة وأجبرتنا على العودة .. ولم أبصر زوجى بعد ذلك أبدا .

عدت الى القرية ومكثت فيها حتى خفت الأمطار ، وحتى أضحت العودة مستطاعة ، ثم عدت الى البلدة ورحلنا بعد ذلك عائدين الى انجلترا ، ثم سافرت الى مصر ، واستمر بنا المقام هنا .

وصمتت السيدة .. ورأيتها تتناول سيجارة ، ولمحت وجهها على ضوء الثقاب الذى أشعلته ، وبه كثير من غموض وابهام .

وساد الصمت برهة وقفز الى ذهنى سؤال كنت أعد الاجابة عليه أهم ما فى القصة كلها ، وسرعان ما قذفته اليها قائلا :

- وجالن .. هل تركتيه هناك ؟ !

ونفخت السيدة الدخان من شفتيها بشدة قبل أن تقول :

- انه لم يعد جالن .. لقد فشلت فى اعادة ذاكرته اليه .. وفشلت فى اقناعه انه هو نفسه حبيب العمر ورفيق الصبا الذى فقدته فى غابر الزمن دون أن تغفل عنه الذاكرة لحظة واحدة . ولم أجد بدا فى النهاية من الموافقة على أنه ليس بجالن .

وعادت السيدة مرة أخرى الى صمتها ، ثم أردفت بعد برهة بصوت خافت :

انى أحس فى بعض الأحيان برغبة شديدة فى العودة الى هناك مرة أخرى .. انى أشعر أنه لا بد لى من الحصول على دليل يثبت أن زوجى السابق قد قتل .. وأن هؤلاء الهمج الذى وقع فى أيديهم قد ذبحوه فعلا .. أجل .. لابد أن تكون هناك أخبار جديدة بعد مضى هذه السنين الطويلة .. انه حقيقة

يعتبر بين الأموات ، ولكنى عندما أفكر فى جالن .. وكيف وجدته حيا بعد أن أيقنا من وفاته .. يعترينى دائما نوع من الشك .. وأعتقد أنه من المحتمل أن أجده هو الآخر حيا .

وكنت أجد السؤال الذى يلح على نفسى ما زال معلقا بلا اجابة .. كان مصير جالن هو أهم ما أريد أن أعرف من القصة كلها .. فقد كنت أراه على حد قولها حبيب العمر الذى لم تغفل عنه الذاكرة .. وكنت أعجب كيف تركته لمصيره فتسرب من أصابعها بعد أن أطبقت عليه يدها .. وكيف تريد العودة الى الأدغال لتتأكد من مصير الزوج الميت بدلا من التأكد من مصير الحبيب الحى ، ولم أستطع أن أمنع أفكارى من التسرب من رأسى فى صورة سؤال أطلقته قائلا :

- لاشك أنك تريدين أيضا معرفة ماذا تم لجالن المسكين ؟

وتصاممت عن سؤالى ولم تعبأ بالاجابة عليه ، بل قذفت بعقب سيجارتها .. ثم نهضت من مقعدها وضحكت ضحكة خفيفة وقالت :

- الى العشاء .. لقد أضعت وقتكما سدى .

وبدأنا الجلوس حول المائدة . واقتربت السيدة من حجرة زوجها وصاحت تنادى :

- لقد أعد العشاء .. والضيوف فى الانتظار .

وتطلعت ببصرى الى باب الحجرة ، فقد كانت بى لهفة الى رؤية الرجل .

وفتح الباب وخرج الرجل علينا لأول مرة .. فاذا به كهل أشيب مسترسل الشعر ، مطلق اللحية ، لايستطيع الانسان - على حد قولها - أن يميز ملامحه وسط ذلك الكوم الهائش من الشعر .. وكان الخاتم ذو الحجر الأخضر واضحا فى أحد أصابعه ، وعرّفتنا به السيدة قائلة :

- زوجى .. مستر جيم .. جيم أندروز .

وحاولت جهدى أن أكتم صيحة الدهشة التى أوشكت أن تنطلق من شفتى .. لقد عرفت ماذا تم لجالن .. وعرفت أيضا سبب رغبتها فى السفر للتأكد من وفاة زوجها الأول .. ووجدتنى أقول لنفسى وأنا أجر المقعد الى المائدة وعيناى ترقبان المرأة وهى تجلس الرجل برفق وحنان :

- لقد استعادته مرة أخرى .. يا للمرأة العجيبة .. ويا للذاكرة التى لم تغفل .. لقد أغفل عنها ذاكرته .. ولكن ذاكرتها لم تغفل عنه أبدا .

★ ★ ★

هذيان محموم

كل ما أطلبه منك هو أن تزوريني بعد أن ينتهوا من عمليتهم . عديني بأنك ستأتين ، فتهبيني قوة ، فقد قلت لك انني لا أملك في هذه الحياة سوى الذكرى .. والأمل .. وأنت ..

حدثني صاحبي قال :

– عندما نظرت اليّ فنفذت نظرتها من الضلوع واستقرت في الفؤاد .. ساءلت نفسي : أتلك هبتها تمنحها كل حدث شارف الهلاك وبات من الموت على قاب قوسين ؟

وعندما نظرت اليها واستقر بصري على شعرها وعينيها وشفتيها .. أصابتني حسرة وتملكتني لوعة .. وأحسست بقلبي يتململ وجسدي يرتجف .. وقلت لنفسي ان الحياة قد سخرت مني وخدعتني وهي غرارة .. توشك أن تدبر حيث يجب أن تقبل .. وتوشك أن تولي ، وأنا ما أحسست بحاجتي اليها كما أحسست في تلك اللحظة .

هأنذا مسجى على فراش الموت .. قد برح بي الداء ، وأنهكتني العلة .. فلم تبق مني الا جلدا على عظم .. وعظما على وضم . وهاهي ذي أمامي الروح الجميلة التي أعياني البحث عنها ، ونصفي الآخر الذي طالما تقت الى لقائه .. قد لقيته أخيرا .. ولكن بعد أن حانت الساعة ودنا الأجل .

لقد مرت بى أيام ثلاثة .. كنت لا أعى فيها شيئا سوى أننى أتعذب وأتألم .. حتى أضحى الموت والحياة لدىّ سواء ∴ ثم حملونى فى عربة الى المستشفى ومعى خطاب من الطبيب الذى أشرف على علاجى .. وهناك وضعونى على مقعد متحرك ثم دفعونى فى طريق ضيق حتى وصلت الى غرفة استقبال مكثت فيها أنتظر الطبيب .. وتركنى الرجل الذى يدفع المقعد ثم ذهب الى احدى الممرضات فتحدث اليها برهة . فأقبلت الممرضة وطلبت منى الخطاب .

وقفت الممرضة تقرأ الخطاب وهى منى على قيد خطوات ووجدتنى أمعن البصر فى شعرها الذهبى الذى انساب على كتفيها وفى عينيها الصافيتين اللتين يشع السحر من خلال أهدابهما الطويلة .. ولاشك أن فتنتها كانت شيئا عجيبا فلا أظن أن من السهل أن يستثار مريض ييس عوده وغاض من جوفه ماء الحياة .. الا اذا كان ما أثاره شيئا خارقا .. ولقد كانت فعلا خارقة .. باستدارة خديها .. ودقة أنفها .. ولون شفتيها .. وبريق أسنانها الذى يخطف البصر .

وانتهت من قراءة الخطاب فاقبلت علىّ قائلة : «أرنى نبضك» ثم مدت يدها الدقيقة فقبضت بها على رسغي وأخذت تنظر الى ساعة فى يدها وأحسست اذ ذاك بنشوة عجيبة وتمنيت لو طالت وقفتها بجانبى حتى آخر العمر .. على الا يكون له آخر .. بل يكون بلا نهاية .. لقد كرهت الموت .. وأعجب من هذا أنى كرهت الشفاء .. ولم أك أطمع الا فى شيء واحد هو أن أبقى هكذا مستلقيا .. تجس الفتاة نبضى .

وبعد لحظة تركت يدى ، ثم كتبت على الخطاب شيئا وردته الى بعد أن وضعته فى ظرفه طالبة منى أن أسلمه للطبيب عندما يصل .. ونظرت الى عينيها نظرة طويلة . وخيل الى أنى أبصر فيهما شيئا عميقا .. وأدركت أنها مثلى مخلوقة غير سطحية ولا تافهة .. مخلوقة مرهفة الحس فياضة الشعور .. وأنها تستطيع أن تفهم مشاعرى دون أن تصيبها دهشة ولا سخرية .. فقلت لها هامسا .. وقد انحنت على برأسها ، وبدا فى عينيها عطف شديد :

- انى أود أن أعيش .

- ولم ؟

- لأنى سوف لا أبصرك فى الحياة الأخرى .. ستغيبين عنى فترة طويلة .

- ولكن لابد أن أذهب أنا الى الحياة الأخرى فى يوم ما ..

- ستكونين قد أصبحت شيئا آخر .. ولكنى أريدك كما أنت .. هذا هو ما أود أن أعيش لأجله .. لأراك كما تبدين الآن .. انى لا أرغب أن أنتظر ما سوف يفعل بك الزمن .. فهو سيفعل بك ما يفعل بالآخرين .

- وأى شىء يفعله بالآخرين ؟

- يسلبهم قوة الاحساس والادراك التى نتمتع بها الآن ، انه يتركهم مجرد رسوم متحركة لا روح فيها ولا حياة .

ونظرت الى باسمة وانصرفت قائلة :

- انه لايستطيع أن يفعل بى ذلك .

ونظرت الى الخطاب .. وفتحته وقرأته رغم أنى كنت أعلم أنه لايجب علىّ قراءته ، فعلمت منه أننى مصاب بتسمم فى الدم ، ولم تمض لحظات حتى أقبل الطبيب وألقى على نظرة خاطفة بعد أن قرأ الخطاب ثم نادى ممرضة أخرى سوداء الشعر ، دقيقة التقاطيع ، رقيقة الملامح ، وتحدث اليها برهة .

ودفعتنى الممرضة السمراء خارج الحجرة فسألتها الى أين تذهب بى ، فأجابت بأننى ذاهب الى غرفة العمليات لاجراء عملية عاجلة . وصمت برهة ثم سألتها ان كنت أستطيع أن أرى الممرضة الشقراء قبل أن أذهب الى هناك .. فهزت رأسها متسائلة عن السبب ، فأجبتها أن ذلك أمر يتعلق بى وبالممرضة نفسها .. وبدا عليها كثير من الدهشة .. ولكنها وعدتنى باحضارها .

لقد كنت أخشى الذهاب الى غرفة العمليات لئلا أحرم رؤية الفتاة .. كنت أود أن أتزود منها بنظرة أخيرة .. لقد أثار شجنى أن يكون لقائى مع توأم نفسى لقاء لحظة تغرب بعدها الحياة .

وفي تلك اللحظة رأيتها مقبلة .. وعندما اقتربت مني توقفت قليلا وبدأت تصغي لما أود أن أقول .. موجهة الى تلك النظرة التى تفيض عطفا وحنوا .. تلك النظرة التى تجعلنى أتعلق بالحياة .. وقلت لها هامسا :

– انهم سيذهبون بى الى غرفة العمليات .. ويساور نفسى احساس بأنى على شفا الموت .. ووسط هذه الدنيا الواسعة التى تصطخب أحس بوحدة مضنية .. لا زوجة لى ولا أهل ولا أصدقاء .. واذا ما مت فلن يكون هناك أحد بجوارى على فراش الموت .. اننى مازلت فى مقتبل العمر .. ولا أملك سوى الذكرى والأمل .. وهذان يجعلان الموت أمرا عسيرا على نفسى .. كل ما أطلبه منك هو أن تزورينى بعد أن ينتهوا من عمليتهم .. عدينى بأنك ستأتين فتهبيني قوة ، فقد قلت لك اننى لا أملك فى هذه الحياة سوى الذكرى .. والأمل .. وأنت .

– سأفعل ما تريد .. عندما تفيق من العملية ، ستفتح عينيك لتجدنى بجوارك .. واياك أن تموت فسيصيبنى موتك بخيبة أمل وستثير غضبى عليك اذا سمحت للموت بأن يقهرك ، لابد أن تعود لكى تخبرنى ماذا رأيت فى غيبوبتك .. عدنى بألا تموت .

وفارقتها بعد أن وعدتها بما طلبت .. وقد غمرتنى السعادة وملأنى الأمل فى الحياة ، وفى غرفة العمليات وضعت تحت تأثير المخدر .. ولم أعد أحس بشىء .

وانى لأذكر كيف بدأت أعود الى وعيى ..فرأيت فوقي قفصا مكسوا بقماش أحمر ومن ورائه ضباب كثيف وفى أعلى السقف أبصرت بضوء يتألق .. وحملقت فى هذه الأشياء برهة ثم أدرت رأسى لأجدها جالسة هناك ، وكانت تنظر الى بهدوء وقد علت شفتيها بسمة حلوة .. وقلت لها متسائلا :

– لم كان شعرك بهذا اللون الذهبى العجيب ؟ ولم كانت عيناك تشعان بهذا السحر الذى لايقاوم ؟ .. ولم ترتدين هذه البلوزة الزرقاء وتجلسين تحت هذا الضوء المتألق ؟ .. ولم هذا السكون الذى يسود المكان والضباب الكثيف الذى يلفه ؟

- لم تسأل عن هذه الأشياء ؟

- انى لم أعد الى الحياة الا لأعرف الاجابة عنها .. ان ذلك هو سبب حياتى .. لقد وعدتك أن أعود .

- ماذا أبصرت فى غيبوبتك ؟

- لقد أبصرت أشياء هامة .. تتعلق بشعرك وعينيك .. وبكل شىء فيك ، ولو استطعت أن أعرف سر هذه الأشياء لعرفت لماذا كنت أنت كما أنت ، ولعلمت لم أضحيت أنت تعنين كل شىء عندى .. تعنين الليل والنهار .. والشباب والعمر .. والربيع والخريف .. تعنين الحياة وما بعد الحياة .

أريد أن أعرف كيف تتنفسين وكيف تنامين .. أريد أن أعرف كيف تفعلين هذه الأشياء البسيطة التى يفعلها كل انسان ؟ ! أريد أن أغيب عنك النهار لأعود اليك فى الليل فأقرأ ما برأسك وأسمع همساتك عندما تجمعنا سويا غرفة مظلمة هادئة .. أريد أن أسير معك جنبا الى جنب .. نعدو ونلهو .. بين حفيف الشجر وهمس الطير .. أريد أن أستلقى بجوارك على شاطىء البحر ثم نغمر نفسينا سويا فى الماء .. أريد أن أفعل معك أشياء كثيرة لاتحصيها الذاكرة .. أريد أن أعيش معك فلا أفارقك .. حتى ولابعد الموت .. فبالذكرى وبالأمل .. وبك .. أستطيع أن أقهر الزمن والموت واليأس .

- لقد قهرت الموت فعلا .. وبالذكرى والأمل تستطيع أن تقهر الزمن واليأس .

- لن أقهرهما الا بك .. أنت وحدك فقط .

- اصغ الى جيدا .. عندما تذهب من هنا لن أكون معك .. ولكننى سأكون فى ذاكرتك .. انك لن ترانى ولكنك لن تنسانى .. واذا ما رأيتنى فقد لاتعرفنى واذا ما رأيتك فقد لا أعرفك .. ولكن سيبقى كل منا كائنا فى نفس الآخر حتى آخر العمر .. هذا الشىء الذى يكمن فى نفوسنا فى زمن الصبا .. فيرينا شخصا معينا بطريقة مخصوصة .. ويخلع عليه هالة من الضوء ويلفه فى جو غامض من السحر والفتنة . هذا الشىء الذى جعلك تقهر الموت

واليأس .. وتعود الى الحياة مليئا بالأمل الحلو والأماني الخلابة .. هذا الشيء هو كل شيء .. أما أنا فلا شيء .. هذا الشيء سيبقى منه فى نفسك بصيص يضيء حياتك ولن يخبو اذا خبا غيره من الأضواء .. هذا البصيص لن يستطيع الزمن اطفاءه .

وصمتت الفتاة ورأيتها تقترب مني وشعرت بشفتيها توضعان برفق على شفتي .. ثم أحسست أنها قد اختفت فجأة وأن الضوء الذى كان يتألق فى سقف الغرفة قد ذهب وشملني ضباب كثيف .

وعندما استيقظت رأيت نور النهار قد غمر الحجرة .. ومر اليوم وأنا أحملق أمامي في سكون .. أنتظر مجيء الليل حتى تعود الى فأتحدث اليها مرة أخرى .

واستيقظت فى الليل .. فلم أجد أحدا بجوارى وكانت الحجرة يسودها السكون .. وبعد لحظة أقبلت ممرضة الليل .. السمراء الرقيقة .. وقد علت شفتيها بسمة تفيض حنوا وعطفا .. وقلت لها متسائلا :

- ألم تحضر الممرضة الشقراء التى كانت بجوارى فى الليلة السابقة ؟ والتى منحتني بمعونتها الحياة ؟

ونظرت الى بعينيها السوداوين ورمقتني بنظرة عتاب رقيقة لم أفهم لها سببا ، وضمت شفتيها المفترتين وصمتت لحظة قبل أن تجيب :

- لا .. انها لم تأت بعد .

- اذاً سأظل مستيقظا حتى تأتي .

- اذا كان الأمر كذلك فدعني أعطيك شيئا يساعدك على البقاء متيقظا .

ومدت يدها الى بقرص صغير وكوب ماء .. فابتلعت القرص وشربت بعض الماء ونظرت اليها فى رضاء وسكينة فأبصرت فى عينيها نفس النظرة الحزينة العاتبة .

واستيقظت بعد ذلك فرأيت ضوء الشمس قد تسلل من النافذة وتلفت

حولى فرأيت ممرضة الليل ذات الشعر الحالك جالسة بجوارى ، وقد ارتدت ملابسها العادية فسألتها قائلا :

- ألم تأت بعد ؟

وهزت رأسها ببطء وأجابت :

- كلا .

- ولم أنت هنا بجوارى ؟

- ستعود الى دارك اليوم ولم أشأ أن أتركك وحيدا .. فقد خيل الى أنك قد تكون فى حاجة الى شىء .

وعدت الى دارى فى ذلك اليوم ولم أر الممرضة الشقراء بعد ذلك ، ولكن كلماتها بقيت منقوشة فى ذهنى : «عندما تذهب من هنا لن أكون معك ولكنى سأكون فى ذاكرتك .. انك لن ترانى ولن تنسانى .. هذا البصيص من الضوء لن يستطيع الزمن اطفاءه» .

وبالطبع لم تكن تلك الكلمات الا أضغاث أحلام .. فانى لم أر الممرضة الشقراء بعد العملية (اما لأنها لم تأت أو لأنها قد حضرت وأنا فى غيبوبة الحمى) ولم يكن ما حدث بينى وبينها مما توهمته بعد العملية الا أوهام ذهن عصفت به الحمى .. أجل .. لقد كان كل ذلك هذيان محموم .

وفى كل مرحلة من مراحل الحياة يتخيل معظم الناس أنهم يعرفون كل شىء تتحتم عليهم معرفته ، أما ما لايعرفونه فانهم يعتبرونه تفاهات لاتستحق المعرفة .

والآن لقد تزوجت بعد ذلك ومرت بى الأيام وأنا أتوهم أنى قد فهمت زوجتى تمام الفهم وأننى قد استطعت أن أسعدها وأهبها ما تتوق اليه من هناك وأنها قانعة راضية .. حتى سمعتها تقطع الصمت ذات ليلة فتهمس فى أذنى قائلة :

- لم لا تسألنى .. لم كان شعرى كما هو ؟ ولم كانت عيناى كما هما ؟

ألا تريد أن تعرف لم أنا كما أنا ؟ أم يتحتم على أن أكون شقراء وأن أرتدى بلوزة زرقاء وأجلس تحت ضوء متألق ؟ !

واني لأذكر أننى لم أبح بسر هذه الأقوال قط لكائن من كان .. ولكن بقيت كلمة أخيرة قد تفسر الأمر .. وهو أن زوجتى هذه هى الممرضة السمراء الرقيقة التى كانت تسهر بجوارى عندما كانت تعصف بى حمى العماية .. والتى لم يغمض لها جفن حتى أنقذتنى من براثن الموت .. وكان أكثر ما يحز فى نفسها هو انكارى شخصها فى خلال غيبوبتى عندما كانت تمرضنى وتجلس الى جانبى ليل نهار .. أجل .. لقد كان أكثر ما يحزنها أننى أتوهمها الممرضة الشقراء .

على أننى مازلت أذكر الفتاة الشقراء وأذكر كيف جعلنى الأمل فى رؤيتها مرة ثانية أقهر الموت وأعود الى الحياة .. قد تكون لم تف بوعدها ولم تأت .. وقد يكون حديثها الى وأنا ذاهب الى غرفة العملية .. مجرد حديث ساقته الى انسان لا أمل فى حياته ، وقد تكون جهود زوجتى وسهرها وعنايتها هى التى صدت عن جسدى غائلة المرض وعادية الموت .. ولكنى واثق أنها هى التى دفعت فى روحى قوة المقاومة .. فقد ملأت نفسى بالأمل .

وما الانسان ؟ وما الحياة ؟ .. اذا لم يوجد الأمل !!

★ ★ ★

خاتمة المطاف

وهن منها العظم ، وضمر الجسد ، لولا حجل فى الساق .. ولولا بقية من جمال بائد .. ولولا نبالة ما زالت تشتعل فى القلب فتريه حقيقة الأشياء لما عرفت فيها شبح صاحبتى الأولى ومعبودتى السابقة .. وحبيبة الروح وصديقة الصبا .

١ يونيو

«ولاتمش فى الأرض مرحا انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا» ..

جادك الغيث اذا الغيث هما .. يا زمانا كنت لا أمشى فيك الا مرحا .. وكيف أستطيع غير ذلك !! وقد كنت من فرط قوتى أضرب الأرض بحافرى فأكاد أخرقها .. وكنت أملأ خياشيمى بالهواء وأرفع رأسى عاليا فى السماء فيخيل الى أنى أطاول الجبال .. ترى ماذا كان يمنعنى من المشى فى الأرض مرحا وأنا أستطيع أن أخرق الأرض وأن أبلغ الجبال طولا ! ..

من كان يصدق أن المطاف سينتهى بى فى آخر العمر فألقى فى ركن مظلم فى هذه العربخانة الكريهة القذرة مع غيرى من سوقة الخيل ودهمائهم .

انى لأقلب الذهن فى صفحات العمر .. فينتهى بى التفكير الى أننى حتما .. لست أنا .. والا لما أحتملت هذا المصير أو رضيت هذه النهاية .

انى لأذكر مولدى وما حف به من اشراق ولألاء .. وأذكر تلك الفرحة والغبطة التى سرت فى نفوس القوم .. وأذكر مظاهر الاجلال والاكبار التى استقبلنى بها القوم كأننى المهدى المنتظر ، وعلمت بعد ذلك سر ذلك التقدير والاهتمام .. فقد كنت نتاج خير أب وخير أم .

كان أبى من أكرم الجياد وأوسعهم شهرة ، وكانت أمى لاتقل عنه كرامة محتد ونبالة أصل .. واستقر رأى القوم على أن يجمعوا بينهما اذ لم يكن لديهم شك أن نتاجهما سيكون بين الجياد أعجوبة .

وخرجت الى الدنيا فكنت حقا أعجوبة .

انى لأذكر رقدتى بجوار أمى الشقراء الجميلة وقد أخذت تهمس فى أذنى كلمات التدليل .. وتسوق الى النصائح بصوتها الرقيق الحنون .

كانت تحذرنى وقتئذ من بنى الانسان وكنت أعجب لها وأتهمها بنكران الجميل .. فقد بدا لى الانسان رقيقا مهذبا .. وكان شديد العطف علينا والبر بنا .. بل انى كنت أعجب ماذا عسانا كنا صانعين فى هذه الدنيا لولاه .. من كان يقدم لنا الطعام .. ومن كان يسقينا ؟ .

ولكنها أنبأتنى أنه ماكر غادر .. وأنه أنانى جشع ، وأنه لايعطى أبدا الا اذا أدرك تماما أنه سيأخذ أكثر مما أعطى .

لشد ما كانت حانقة عليه كارهة له .. فما تحدثت عنه الا ونفسها تفيض بالحقد والموجدة .. لقد كان بقلبها جرح تنكؤه رؤية الانسان أو ذكراه .

وعلمت بعد ذلك سبب حقدها على الأنسان .. فقد ذكرت لى أن كل أهلها وذويها قد قتلهم الانسان .. وكانت عيناها تترقرق بالدموع عندما قصت على كيف استيقظت ذات يوم وهى ما زالت فى المهد صبية .. وافتقدت أمها فلم تجدها .. وبحثت عن بقية الخيل فلم تجد منهم أحدا .. وأفزعتها الوحدة وأعياها البحث .. ثم صادفت حصانا عجوزا مريضا فسألته عن بقية الجياد فأنبأها بصوت حزين أنهم ذهبوا جميعا .

- ذهبوا ؟ !! الى أين ؟ !!

- لقد امتطاهم الرجال وذهبوا الى حومات الوغى .

- حومات الوغى ؟

وهز الجواد العجوز رأسه .. وأنبأها أن الانسان قد تعّود القتال مع نفسه .. وأنه لايعدم بين آونة وأخرى مبررا لهذا القتال .. فيجرد أسلحته ويذهب الى ميدان القتال ثم يعود مثخنا بالجراح ممزق الأعضاء .. هذا اذا عاد !

- ولكن ما دخلنا نحن اذا كان الانسان يهوى أن يقتل بعضه ؟

- لقد هداه تفكيره أن يشركنا معه فيطهمنا ويشد علينا أسلحته ويلقى بنا فى ميدان القتال لنساعده فى فعلته المنكرة .

وهزت رأسها غير مصدقة وخيل لها أن الحصان العجوز يهذى بما لايعى .. ولكنها أدركت فى النهاية أنها الحقيقة التى لا غبار عليها .. ومن ذلك اليوم دب فى قلبها كره الانسان ومقته .. وعلمتها الأيام بعد ذلك أنها كانت محقة فى ذلك الكره .

كانت أكثر ما يحزنها أن الانسان يسيطر على غيره من المخلوقات وهو أكثرها غباء .. وأنه يمتطينا ونحن أحق بامتطائه .

كانت تنصحنى ألا أخدع بما أراه من ابتكارات أو اختراعات فانه سرعان ما يهدم ما بنى ويحطم ما صنع ويعود بنفسه الى حالته الهمجية الأولى .. وهذا هو دليلها على أن الانسان مجنون مهما أبدى من آيات الذكاء والنبوغ لأنه يحطم بيساره ما صنع بيمينه .. وهذا هو سيماء المجانين .

وبدا علىّ الجزع وقتئذ .. فقد خشيت أن يعاوده جنونه فيذهب بنا الى الحرب ، ولكنها طمأنتنى فى رفق وأنبأتنى أنه لم يعد علينا خوف ولا حرج اذ لم يعد الانسان فى حاجة الينا فقد أصبحنا أعجز من أن نستطيع معاونته اذا ابتكر لنفسه معاقل متحركة من الصلب خيل اليه أنها تقيه الخسائر ، ولكنه

كان فى ذلك غبيا كعادته ، فخسائره هى هى .. سواء سار على قدميه .. أم امتطانا .. أم أمتطى الشياطين .

ولم يطل بقائي مع أمى فترة طويلة .. فسرعان ما افترقنا ولم أعد أراها الا لماما .. وبدأت أخوض وحدى معترك الحياة وأنا ملىء بالقوة والأمل .. ولم أر فى الانسان ما يجزعنى اذ كان شديد العناية بى .. والسهر على راحتى بل انه فى أكثر الأحيان كان يفضلنى على نفسه .. حتى كدت أنسى تماما ما لقنتنى أمى من أسباب الحقد عليه وسوء الظن به .

وفى ذات يوم وقع لى ما أظنه قد وقع لكل جواد .. بل لكل مخلوق تدب فيه الحياة .. فقد أصابنى شرر الحب .

رأيتها أول مرة .. شقراء ذهبية الشعر .. باحدى ساقيها حجل .. ورأيت برأسها الصغير تلك السيالة البيضاء فى وجهها والرتمة فى مقدمة أنفها .. ورأيت معرفتها كأنها خيوط من ذهب وقد مالت على صفحة عنقها والريح تعبث بها .. وأبصرت جسدها الملفوف وذنبها الممشط الأنيق .

فكانت الواقعة !!

لقد سقطت فى الهوى .. ولم أجد هناك ما يمنع قط من السقوط فيه .. فقد كان لذيذا ممتعا .. وكنت لا أكاد أراها عن بعد أو يحمل الىّ النسيم عبيرها حتى أصهل بشدة وأحس بالدماء تجرى حارة فى عروقى فأندفع اليها تاركا كل ما أمامى حتى ولو كان أجود الطعام .

وكنت أعلم أنها تهوانى ، فقد كنت شديد الخبرة بأمور الاناث وأحوالهن .. ولم أكن أعبأ بما يبدو عليها من ادعاء للغضب قد يصل فى بعض الأحيان الى الضرب «بالجوز» فقد كنت أحس أنه غضب مصطنع وكنت أشعر كما يقول الانسان : ان «ضرب الحبيب زى أكل الزبيب» .

ومرت الأيام وأنا لا أرى الا كل ممتع لاذ .. لاتشوب صفو العيش شائبة ولا يضيره كدر .. وأمنت الزمن .. والانسان .. والدنيا .. وخيل الى أن الحياة قد ذهب منها الهم وامحى الشقاء .

وأخيرا حلّ اليوم الذى رأيت فيه صدمات الحياة .. فقد عرضت للبيع ، وعلمت يومئذ أن كرم الانسان نحوى وعنايته لم يكونا بلا سبب .. فقد كان ينتظر من ورائى صفقة رابحة .. ولم تكن الصدمة التى أصابت نفسى منشؤها عرضى للبيع أو الانتقال من انسان لانسان .. فقد كانوا كلهم عندى سواء . ولكن الكارثة كانت فى فراق صاحبتى .. هذا هو مبعث الألم ومنبع الوجيعة .

«ووقفنا لوداع .. وافترقنا بعد نظرة» وأحسست حرقة فى قلبى .. ولوعة فى فؤادى .. وكنت حديث العهد بالمصائب ، فقد عشت حياتى كلها خلوا من الهم والسوء .

وبدأت حياتى الجديدة فى مكان جديد ، وخفف من لوعتى أننى ما زلت محل احترام واكبار .. بل لقد خيل الى أن القوم الجدد يضمرون لى من الاجلال والتقدير أكثر من السابقين .

وعلمت أنهم يعدونني لكى أكون ضمن خيول السباق .. فأحسست بعض الاغتباط اذ كان لدى من القوة ما يملؤنى ثقة وأملا .. وخيل الى أن انتصارى فى السباق قد ينسينى وجيعة الفراق .

ودخلت السباق لأول مرة .. وكنت أحس الهيبة تملأ نفسى وكان يساورنى الشك والقلق .. وبدأ السباق فانطلقت كالسهم المارق .. ولم أعد أحس الا الريح تصدم وجهى وتندفع الى خياشيمى .

وانتهى الشوط فاذا براكبى يربت على عنقى ويقبلنى بحرارة ، وتدافع الناس الى فعلمت أننى قد ربحت السباق .

وسرتنى حياتى الجديدة .. حياة الفوز والمغامرة ، وأخذت أنتقل من انتصار الى انتصار حتى جاء يوم أحسست فيه بما ثبط همتى وبدل قوتى عجزا .

كان ذلك فى أحد السباقات .. وقد اندفعت أمام الجياد وقد سبقتها بمرحلة أثارت الدهشة .. ولكننى أحسست فجأة أن راكبى يجذب اللجام فى فمى .. وشعرت أنه بدلا من أن يستحثنى قد أخذ فى عرقلتى عن العدو حتى سبقتنى بقية الجياد .

وملأ اليأس نفسى ودهشت من راكبى كيف سبّب لى هذه الخسارة ، وأخيرا علمت أنها ألعوبة من ألاعيب السباق القذرة وأنه قصد عرقلتى حتى يفوز غيرى الذى لم يكن ينتظر له أحد أن يفوز فيربحون من ورائه ربحا طائلا .

ومن ذلك اليوم لم أربح قط فقد تبرمت بالسباق وبالانسان ، وعاودتنى ذكرى صاحبتى التى كان قلبى قد سلاها بعض الشىء .

وبدأت معاملة الانسان لى تسوء ، ولم أعد أرى من كرمه ما كنت أراه .. وأخيرا بدت لى حقيقة خلقه عندما أصبت بعرج فلم أعد أصلح بعد ذلك للسباق .

عجيب هذا الانسان .. ما رأيت أشد منه نكرانا للجميل ولا نسيانا للمعروف .. لقد نبذنى نبذ النواة .. فكأنى ما جلبت له المال ولا ملأته فخرا وزهوا .. لقد أنكرنى بعد طول اعتبار .. وازدرانى بعد اجلال واكبار .. فقد أخذ منى كل ما يمكن أخذه .

وعرضت للبيع مرة ثانية .. وشتان بينها وبين الأولى .. كنت فى الأولى مهابا مرفوع الرأس ، وفى الثانية ذليلا مطأطأ الهامة .. كنت فى الأولى جسدا قويا .. وفى الثانية حطاما باليا .. كنت أفيض بالحياة والأمل .. فأصبحت أفيض بالفناء واليأس .

وتمت الصفقة .. وانتقلت الى عملى الجديد أجر مع زميل محطم مهدم .. احدى عربات الحنطور .

٤ يونية :

«عزيز قوم ذل» .. لو كنا معشر الخيل نكتب أسماءنا على بطاقات كما يفعل الانسان .. لما كتبت على بطاقتى سوى هذه العبارة .. فما رأيت أصدق منها للتعبير عن حالتى .

هذا الجسد القوى الذى كان يندفع فيسابق الريح .. قد أضحى لايكاد

يقوى على جر تلك العربة التى تتمايل ذات اليمين وذات اليسار .. هذا الجسد الذى كان فتنة للأعين قد أضحى قذى لها .

كم خدعتني الحياة .. وهي غرارة ضرارة .

كنت فيما مضى أعجب لتلك الرقع السوداء التى توضع على أعين الخيول التي تجر العربات ، وكنت أرثى لهم ، فقد حجبت عنهم الدنيا .. ولكنى عرفت الآن حكمتها ولمست فضلها .. ولو أنصف الانسان نفسه لوضع مثلها على عينيه لتخفى الدنيا عن ناظره ، فمساوىء الحياة أكثر من محاسنها .. فلو حجبت عنا المساوىء والمحاسن لكنا الرابحين .

وبدأت أعود النفس على عملها الجديد وأروضها على احتمال المكاره .. وماذا أستطيع سوى ذلك .. ما دمت سأفعله راضيا أو كارها .. بل اننى بدأت أجد فيه بعض اللذة عندما أسير فى الطرقات مع زميلى الذى يمثل الصبر والقناعة .. وقد أخذنا نتجاذب أطراف الحديث .. فأقص عليه شجونى ويقص شجونه ، ويقطع علينا الحديث فجأة فرقعة من سوط الحوذى لا مبرر لها ولا موجب .. فتنزعجنا برهة ثم نعاود الحديث .

ولم يكن يعجبنى فى ذلك الحوذى شىء قدر اعتداده بنفسه وبعربته وبخيله .. اذ كان يسير فى الطريق .. وكان الطريق ملكه لا يأبه لغيره من مخلوقات الله المتعجلة .

٦ يونيو :

أخبرنى زميلي أنه يحس مرضا بجوفه وأنه يخيل اليه أن نهايته قد قربت .. وتمنى لو أراحه الحوذى يوما أو بعض يوم حتى يسترد قواه .. فحاولت جهدى أن أرفه عنه وأن أدخل الاطمئنان على نفسه .

٧ يونيو :

رفض الحوذى رفضا باتا أن يريح الزميل التعس مع أننى كنت على أستعداد لأن أجر العربة وحدى فى سبيل راحة المسكين .. ولم نكد نسير فى الطريق بضع خطوات .. حتى سقط صاحبى على الأرض .. ونفق لساعته ..

لا أدرى من منا أحق بطلب الرحمة من الله .. الذين ذهبوا من الحياة أم الباقون فيها .. رحمهم الله ورحمنا .

٨ يونيو :

ابتاع الحوذى زميلا آخر .. أتدرون من هو ؟ فرس عجوز عجفاء .. قبيحة شوحاء .. وهن منها العظم وضمر الجسد لولا حجل فى الساق .. ولولا بقيه من جمال بائد .. ولولا نبالة ما زالت تشتعل فى القلب فتريه حقيقة الأشياء .. لما عرفت فيها شبح صاحبتى الأولى ومعبودتى السابقة .. وحبيبة الروح وصديقة الصبا .

ونظرت اليها فى صمت فلمحت فى وجهها المغضن أبلغ آيات الحب والعطف ورأيت فى عينيها بريق دموع أغلب ظنى أنها دموع حمد وشكر ، واقتربت منها وألصقت برفق أنفى بأنفها وأحسست بقلبى يفيض بالهناء ، وشعرت لأول مرة بحلاوة الهدوء والاستقرار وأدركت أن خير ما فى الحياة .. هو قلب جميل يفيض علينا رقة وحنانا فنروى منه ظمأنا عندما يشفنا ظمأ الحياة ويكون لنا ملاذا عندما نحرم الملجأ والملاذ ..

★ ★ ★

لنا عودة

ولكن يده لم تقبض على عنقى
بل امتدت لتفعل بى أقصى ما كنت
أتوق اليه .. لتربت جسدى ..
ولتتحسس ظهرى ، بمنتهى الرفق
والحنو ..

كان الوقت ابان الظهيرة .. وسياط من لهب الشمس تلهب ظهر الأرض بضربات مستعرة حامية .. وكنت أحاول أن أحمى ظهرى بقطعة ظلال جاد بها على جدار قائم ما لبث أن غلّ بها يده .. وأخذ يقبضها عنى وأنا أتبعها بقدر ما يسمح لى الحبل الذى شد الى عنقى .. والذى ثبت طرفه الآخر فى قطعة حجر .

وكنت أرقد على الثرى لاهثة مدلاة اللسان .. عندما وقعت عيناى نصف المغمضتين من خلال قضبان الباب الحديدى على ستار من غبار أثارته عربة وقفت بالباب .

ومن وراء الستار هبط شبح طويل عريض المنكبين ومد يده فأغلق باب العربة ثم دفع الباب الحديدى وخطا الى الداخل .

وهرول اليه مرسى بجسده الضئيل النحيل وجلبابه الرث ووقف الاثنان يتحدثان .. وكنت فى حال من التعب والاسترخاء جعلنى أتشبث بقطعة الظلال التى أقبع تحتها فلم أحرك ساكنا .. وتركت القادم الطويل يقتحم المكان ويطوف بأرجائه .. دون أن آبه له بالترحيب أو النباح .

ولم يلتفت هو الى ، بل لم يحس لى وجودا ، وانبرى فى طريقه يتحدث ويشير بيده هنا وهناك وصاحبى يتبعه مصغيا حتى انتهى بهما المطاف الى حيث رقدت ، ووجدته يشير الى الركن المترب الواقع بين الجدارين قائلا :

– هذا الركن يحتاج الى عناية .. انه أقبح مافى الفناء .. اذ يبدو خربا متربا .. لماذا لاتزرع به شيئا ينفعك ويضفى عليه خضرة تكسبه بعض الرونق ؟ .. أو على الأقل تنشر تلك الأصص التى كدستها فى بقعة واحدة لكى تغطى بها سطحه المترب المعفر .

وأجاب مرسى موضحا :

– لقد أردت أن أفسح لها مكانا .. وأبعد الأصص عن محيطها حتى لاتتلفها بسافيها .

وتساءل هو فى دهشة :

– تفسح لها مكانا ؟ .. من هى ؟ ..

– الكلبة ..

– كلبة ؟ ..

ونظر فى عجب الى حيث أشار مرسى .. ولأول مرة وقع بصره علىّ قابعة على الأرض ، ملتصقة بقطعة الظل بجوار الجدار .. فى قمامة وقذارة .. وقد علت جسدى طبقة من الطين الجاف بعد أن تمرغت مبتلة على الثرى .. ومددت عنقى وأسندت بوزى الأسود على الأرض .. وتناثرت حولى آثار قمامة مخلوطة بالتراب .

ولا جدال أنى كنت بمنظرى هذا أمثل أقبح ما فى فناء المقبرة الجديدة الذى – كما عرفت بعد ذلك – كان يبذل كل جهده فى تنسيق وتنميقه وغرس الورود والرياحين فى أرجائه حتى يكسبه جمالا يذهب عنه وحشته ورهبته .

وتطلعت اليه وأنا ما زلت راقدة لاهثة مدلاة اللسان .. والتقت أبصارنا للمرة الأولى .. ونظر كل منا الى الآخر نظرة مليئة بالدهشة .. وشتان ما بين

الدهشتين .. كانت دهشته ملؤها الازدراء والاحتقار والاستنكار .. وكانت دهشتى ملؤها الاعجاب والاجلال والاكبار .. بقامته المهيبة .. ووجهه السمح . ولم يطل به التطلع الىّ حتى قال وهو يقلب شفتيه :

- وما حاجتك اليها ؟

- تنفع فى الحراسة .

- حراسة !! .. أهذه تنفع فى الحراسة ؟ .

وزدت احساسا بالضآلة وهو يرمق جسدى الهزيل ويردف باستخفاف :

- انها لاتستطيع أن تحرس شيئا .. انها صغيرة جدا .. لايكاد يحس بها أحد .

- غدا ستنمو .. وتصبح صالحة لكل شىء .. انها من أصل طيب .. لقد أحضرتها صغيرة لكى تألف المكان .. وتحرص على البقاء فيه .

ولم يبد عليه الاقتناع بضرورة بقائى ، اذ كانت القذارة التى أضفيها على المكان تطغى فى نظره على كل ما يمكن أن أسديه من خدمات وأقدمه من منافع .. فما بالكم اذا كنت أبدو فى نظره بلا نفع حاضر أو متوقع .

وعاد مرسى يؤكد منافعى :

- انها تنبح أحيانا على الغرباء .

ولقد صدّق الرجل ، فالنباح ليس بالأمر المستعصى على . وأحسست بشىء من الندم لأنى لم أنبح عليه عند قدومه .. لأريه قدرتى على النباح .. على أية حال .. فى المرة القادمة سأريه .. اذا أبقانى .

ورأيته يتحرك تجاه الباب دون أن يلقى نظرة أخرى علىّ ، وأخذت أرقب قدميه تطرقان الأرض بثقة وقوة واعتداد ، وقد علا غبار الطريق حذاءه اللامع وسمعته يقول وهو يركب العربة :

- لا أريد أن أرى هذا الركن قذرا فى المرة القادمة .

- أأطردها ؟

ولم يكن هناك شك أن «ها» هذه تعنى أنا .. وأن الجواب الذى يخرج من شفتيه سيقرر مصيرى .. وكنت أكره أن أشرد مرة أخرى .. وأعود بلا مأوى ولا طعام .

وبعد فترة صمت سمعت الحكم على فى قوله :

- دعها .. ولكن نظف حولها .

حمدا لله .. سيماهم على وجوههم .. انى لم أتوقع منه سوى الخير .. فمثل هذا الوجه السمح .. لايمكن أن يصدر عنه أذى .. انى أحبه .

وبدأ مرسى عمله فى تنفيذ أوامر السيد .. سيده .. وسيدى وسيد المقبرة .. فنقلنى من الركن المترب .. ونظفه ورص به الأصص .. ثم أقبل علىّ فأزال عنى الأتربة وغسل وعاء الطعام وهو يتمتم :

- انه يكره القذارة .. اياك أن تعودى الى التمرغ فى الثرى .. واحذرى اتلاف الأصص .. والا جنيت على نفسك .

ولقد حاولت جهدى أن أسمع نصائحه ، وأن أكون مخلوقة نظيفة مفيدة غير متلافة لما حولها .

وبعد بضعة أيام حضر السيد .. وكان الوقت هذه المرة صباحا .. والشمس المتثائبة وراء الأفق لاتكاد سياطها المتراخية تصل الى هام القباب .. وكنت طليقة فى الفناء لم أشد من عنقى الى الحجر بعد .. ونسيم الصباح الرطب يدفع فى جسدى احساسا لذيذا بالنشاط والحياة .. فأخذت أتواثب فى الممرات المرصوفة حول حوض الورد الذى يتوسط الفناء أمام قبة المقبرة .. وأنا أرقب مرسى يرويها ويزيل أوراقها الجافة وينزع من حولها الحشائش .

ونم عن وصوله صوت نفير العربة .. ثم غبارها المثار .. وطرقة باب العربة يدفعه خلفه وهو يهبط منها مقبلا على الفناء .

وأحسست من رؤيته فرحة شديدة لم أحاول كتمانها .. وغدوت اليه أهز ذيلى فى غبطة بالغة وأمسح رأسى فى قدميه فى شوق شديد .. لأريه أنى أعرفه وأحبه .

وكنت أتوقع أن يرد على تحيتى .. وأن يرى أنى بت مخلوقة أخرى غير المخلوقة القذرة المتكاسلة التى احتقرها فى المرة السابقة .. وأن ينعم علىّ بربت رأسى أو مس ظهرى .. ولكنى وجدته لايكاد يحس بى ورأيته يسير قدما عبر الفناء فيتحدث الى مرسى ويشير الى أحواض الزهور والى الأصص .. ثم يتجه الى القبة الجديدة القائمة فوق الأجداث ويقول :

- رخام الشواهد يحتاج الى مسح .. والبلاط يحتاج الى غسيل لازالة بقع الزيت التى خلفها النقاش .

- سأزيلها اليوم ان شاء الله .

- وماذا فعل الجمل بالمجاديل ؟

- لقد وجدها أكبر من فتحة السلم .. وسيحضر أحد الحجارين اليوم ليكسر جزءا من أطرافها حتى يمكن تركيبها على الفتحة .

- أرجوك استعجاله .. لا داعى لأن تبقى المقبرة مفتوحة هكذا .. نريد أن ننتهى .

- سنغلقها ان شاء الله خلال يومين بعد أن نساوى المجاديل وبعد أن نحضر نقلتين من الرمل الأبيض لفرشهما فى الأرضية .

- أضرورى هذا ؟

- بالطبع .. حتى تكون الأرض نظيفة لينة .

وكان الاثنان قد تحركا خلال حديثهما حتى وقفا أمام السلم المؤدى الى باطن الأرض .. ثم رأيت السيد يهبط السلم الى جوف المقبرة النظيفة الخالية وتبعه مرسى وأنا فى أعقابهما .

وخيم الصمت برهة .. وبدا عليه الشرود .. وما لبث حتى أطلق ضحكة قصيرة ساخرة والتفت الى مرسى وهو يبتسم :

- هنا المضجع الأخير .. سيضمنا واحدا بعد واحد .

- أطال الله عمرك ياسيدى .

- أطاله أم قصره .. لابد لنا من عودة .

ثم سار الى السلم يصعده بخطواته القوية المعتدة .. واتجه الى باب الفناء وأنا ما زلت أتسمح فى ساقيه علّى أحظى منه بالتفاتة عبثا .

وكرهت أن أنكر منه كل هذا الانكار ، واندفعت الى سائق العربة نابحة لأريه أنى أستطيع الحراسة وأنى أنبح على الغرباء وأنى لا أستقبل كل الناس بمثل ما استقبلته من فرحة وشوق وانى أستطيع التمييز بينه وبين الآخرين .. ولكن محاولتى لم تفلح فى لفت نظره .. ودخل الى العربة وأشار الى مرسى بالتحية .. ووقفت أرقب العجل يلف مثيرا الغبار وأنا أنبح فى ضيق وخيبة وخذلان .

وتكررت عودته بين يوم وآخر ليرقب نهاية العمل فى داخل القبة وفى الفناء .. حتى فرش الرمل ووضعت المجاديل ودقت اللافتة على الباب الحديدى .. وأزيلت آثار البياض والبناء .. وأوشك العمل كله على الانتهاء .

ولم يستطع تكرار اللقاء وفرط الشوق وشدة الحنين التى أبديها له بهز الذيل والتمسح فى أقدامه أن تزيل جموده وتذهب انكاره .. كانت أقدامه تتحركان فى صلابة وشدة غير عابئة بى .. لاترحيب ولاربت ولا حتى نهرا وزجرا .. لقد كنت فى نظره كانى غير كائنة .. وعندما كان الشوق يفيض بى وكنت أندفع اليه شابة بيدى على ساقه .. كان الناهر هو مرسى .. الذى يدفعنى بساقه بعيدا عنه .. أما هو فلم يكن يحرك ساكنا كأنه لايشعر بى .

ولم أك أدرى ما بى مما لايعجبه أو مما يسبب كل هذا الاهمال والانكار .. لقد أضحيت نظيفة مفيدة نابحة .. ولست أظننى أقبح كثيرا من غيرى من الكلاب .. بل أعتقد أنى بت على شىء من الجمال بعد هذا العقد الأزرق الذى وضعه مرسى حول عنقى .. والذى ظننت أنى سألفت به نظره .. عندما اندفعت أعرضه عليه .. ولكنه مر بى مر الكرام .. ولم أفز منه بغير الخيبة والخذلان .

لم كل هذا ؟ .. انه سيدى .. وانى أحبه .. ولا أدخر جهدا لاظهار حبى

بشتى الطرق والوسائل ، وانى أفعل من أجله كل ما أستطيع .. أسهر الليل للحراسة .. وأنبح على كل طارق غريب.

ما له اذا لايكاد يحس بى .. ما لقدميه تمران بى فلا تتوقفان ! ما له لايقف ليصفر لى أو ليبتسم فى وجهى كما يفعل سواه .. مما لا أريد منهم بسمة ولا تدليلا .

لم كل هذا الانكار والاحتقار ؟ ألأنى صغيرة ضئيلة هزيلة ؟

أجل .. أجل .. لابد أن يكون هذا هو السبب .. ألم أسمع بأذنى مرسى يقول لزوجته ذات ليلة :

– لست أدرى لم لاتنمو هذه الكلبة .. انها على حالها من يوم أتيت بها .. الظاهر أنها من نوع مقروض لاينمو ..

وأجابت زوجته :

– أجل .. أجل .. لقد خدعت فيها .. خسارة فيها التربية يجب أن نحضر كلبة أخرى تستطيع الحراسة .

وأحسست بضربات قلبى تتلاحق وبغصة فى حلقى .. ولكنها ما لبثت أن زالت عندما قال مرسى :

– لا .. لا .. انها كلبة أمينة طيبة ، وهى تستطيع النباح كأية كلبة أخرى كبيرة .. وماذا نريد منها أكثر من ذلك ؟

وصمتت المرأة وصمت الرجل .. وأحسست أن الخطر الداهم قد زال .. ولكن أثره كان ما زال يجثم على نفسى ويترك فى صدرى مرارة أليمة .

اذا فأنا صغيرة .. مقروضة .. لم أنم .. ولن أنام . هذا هو السبب اذاً فى ازدراء صاحبى لى .

انى لست كبقية الكلاب .. انى فى نظره ضئيلة .. حقيرة .

ونمت ليلتي حزينة بائسة .. فقد أدركت أني لن أكون في نظره شيئا .. وأني من العبث أن أنتظر منه رداً على حبي .. ووفائي .. واخلاصي .

وقلّت زيارته بعد أن استكمل البناء وأنتهى العمل .. كان يأتي كل شهر لينقد مرسى أجره .. وليجول خلال الحديقة التي غرسها .. فيرقب الشجر وقد أورق .. والورد وقد ازدهر .. والشجرة المتسلقة قد زحفت فوق الجدار وكسته خضرة يانعة .

كان يقف لينظر الى المقبرة الخالية النظيفة الأنيقة .. وقد بدا عليه شيء من الشرود .. ولكنه شرود بغير رهبة ولا وحشة .. ان وحشة المقابر كائنة في خرابها وقفرها .. وهو يحب الزهور اليانعة والنبات الأخضر .. ولذلك فقد غلبت بهجة الزهر في نفسه وحشة القبر .. وبات يحب المكان ويحس به ألفة المضجع .. وراحة المستقر .

ألا ليته يحبني كما يحبه .. ويألفني كما يألفه .

ألست حارسته ؟

ألست خادمته الأمينة .. الوفية .. ألست أحبه ؟ .. أليس من الواجب علينا أن نحب من يحبنا ؟ .. أليس هذا حق لهم علينا ؟

ماذا يضيره أن يحبني ؟ .. أن يبتسم في وجهي .. أن يهش لي .. لحظة واحدة .. أن يربت رأسي .. مرة واحدة ، عند حضوره كل شهر .. ان هذا يكفيني جدا .. اني لا أطمع في أكثر منه .

ولكني كنت آمل عبثا ، فقد استمر منه التجاهل واستمر الانكار .. واستمر مني الشوق واستمر الحنين .. ولم أستطع أن أرد انكاره بانكار مثله .. لقد كان حبي أشد .. وارادتي أضعف .. وكنت لا أكاد ألمحه حتى أعدو اليه وأتمسح في قدمه .. وأتوسد حذاءه .

ولقد حوّل الشوق نباحي الى ما يشبه النواح والأنين ..

ومر بي الزمن.. وقد وطنت النفس على حبي اليائس المجهول .. الذى

لا يسأل ردا ولا معرفة .. وبات زادى فى الحياة مسحة فى قدميه .. وشمة من حذائه .

لقد وطنت النفس على هذا .. حتى كان يوم أقبل علينا ، ولكنه لم يكن وحده .. كان فى ركب من العربات .. بينها عربة سوداء مغلقة .

وهبط ومعه حشد من الناس يتقدمهم صندوق مغلق أخرجوه من العربة السوداء وعدوت اليه أستقبله وسط الحشد وأتمسح فى قدمه وأشب على ساقه .. ولم يأبه لى كعادته ..

ومرت بى قدماه كما تمر فى كل مرة متجاهلة اياى .. ولكن فى هذه المرة تبينت فى خطواته شيئا غريبا .. كانت بطيئة متثاقلة .. لم يكن بها الاعتداد والثقة والقوة .. كأنه مريض .. أو حزين .. أو به شىء .. وسرت ألاحقه أخوض وسط الأقدام وبين السيقان .

وامتلأ الفناء .. وأخذ الناس يروحون ويجيئون ، وقبعت بين قدميه وقد استقر على مقعد فى ركن ناء ودفن وجهه فى كفه وأخذت أرقبهم يخرجون شيئا من الصندوق ثم يهبطون به السلم المؤدى الى باطن الأرض بعد أن أزالوا عن فتحته الحجارة الطويلة التى سماها مرسى «المجاديل» .. ثم رأيتهم يخرجون وحدهم ويعيدون المجاديل الى مكانها .. ثم رأيت بضعة رجال عجاف أشبه بمرسى يجلسون أمام المقبرة ويهتزون الى الأمام والى الخلف ويقولون كلاما متلاحقا سريعا لم أفهمه ثم يأخذون نقودا وينصرفون .

ورويدا رويدا .. بدأ الناس يغادرون الفناء والعربات تتابع فى الانصراف .

وأخيرا .. خلا المكان من كل من به .. فلم يبق الا هو وحده .. وأنا بالطبع .. اذا كنت أعتبر مخلوقا .. يمكن أن يحس له وجود .

وكان هو ما زال فى جلسته النائية .. مطرقا برأسه فى كفه .. فى صمت عميق .. وقد بدا ظهره منحنيا وكتفاه العريضان المنتصبان وقد تهدلا كأنه يحمل فوقهما حملا ثقيلا .

ونهض من مكانه ورأيت قدميه تنتقلان بنفس الخطوات المتثاقلة البطيئة التي لم أعهدها فيه وسار تجاه المقبرة حتى وصل الى النصب الرخامي فوجدته يخر على ركبتيه راكعا متكئا بذراعيه على النصب دافنا رأسه بين ذراعيه ثم رأيت جسده يهتز .. ولم أك أعرف البكاء قبل هذا ، ولكني لم أكد أبصر جسده يهتز حتى وجدتني أبكي .

لقد بكيت لحزنه وبكائه .. وبكيت لأني لا أستطيع أن أفعل من أجله شيئا .

كل ما فعلته هو أن تسللت بين ساقيه وتوسدت ركبته وشاركته حزنه وبكاءه .

وعندما انتهى من البكاء .. تلفت في المكان الخالي الساكن فلم يجد سواى بين ركبتيه .

ومد يده الي .. وتوقعت أن يطبق على عنقي ويقذف بي بعيدا .. وأقسم أني ما كنت لأغضب منه لو فعل .. فقد جرأني الحزن على فعل ما لايجب أن أفعل .

ولكن يده لم تقبض على عنقي .. بل امتدت لتفعل بي أقصى ما كنت أتوق اليه .. لتربت جسدي .. ولتتحسس ظهري .. بمنتهى الرفق والحنو .

أجل .. لأول مرة .. أحس بي .

وشعرت أني سعيدة .. سعادة لم يستطع حزنه ولا حزني عليه أن يبدد شيئا منها .. لقد بت أحس أني أعني لديه شيئا .. وأني قد استطعت أن أخفف بعض حزنه وأذهب بعض لوعته .

وعندما غادر المكان بخطواته المتثاقلة الحزينة .. كنت أقف لأودعه .. وبودي أن لا أودعه أبدا .

وبدأ تردده بعد ذلك على المقبرة .. ولم يكن تردده لزيارة المكان الخالي أو لرؤية الزهور والأشجار .. بل كان لزيارتنا نحن .. أعني أنا والعزيز الآخر الذي خلفه معي .. والذي بت أسهر على حراسته .

وعندما أقول .. أنا والعزيز الآخر .. لا أقولها من باب الغرور أو من باب أوهام العشاق .. لقد بت أحس أنه يحضر الى فعلا .. فقد كنت أول ما يرى .. وكان ينحنى ليحملنى بين يديه ويدخل بى .. وكنا نجلس سويا أمام النصب فى صمت نتشارك الأحزان ونتبادل العزاء .

ومرت الأيام وعطفه على يزداد .. ومظاهر حبه توضح : لقد كنت ضئيلة صغيرة .. ولكن يبدو لى أنى كنت أثبت له على ضآلتى من الكثيرين الذين كانوا يحيطون به ممن قد يكونون أكبر حجما ولكن أقل وفاء واخلاصا وحبا .

وودت فى كل زيارة له الا أفارقه وأن أقفز فى العربة فأتبعه أينما ذهب .. ولكنى خشيت أن أضيع فى الدنيا الصاخبة حيث يشاركنى حبه الكثيرون .. وفضلت أن أبقى فى دنياى الخالية .. حيث لايشاركنى حبه أحد .. وحيث ألقاه وحده وقد انفض الكل من حوله .. وانغمروا فى حياتهم الصاخبة .

ومر الزمن .. وعادت المجاديل تفتح وتغلق .. ليهبط الى باطن الأرض عزيز جديد .. وفى كل مرة يمتلىء الفناء بحشد الناس .. ثم ينفض الحشد .. ولا يبقى فى المكان الموحش غيره .. وغيرى .. أواسيه وأكفكف دمعه وأمسح رأسى الصغير بين قدميه ، وأتلقى ربته الحانى وتحسيسه العطوف .

وهكذا تعودت اقبال المواكب وانفضاضها .. وتعودت أن أستقبله وسطها وقد ازدادت خطاه تثاقلا .. وازداد ظهره انحناء وكتفاه تهدلا .

وفى ذات يوم أقبل أحدها .. أعنى تلك المواكب التى تتقدمها العربة السوداء .. ووقفت العربات أمام الباب .. وعدوت اليه أتلمسه بين الحشد المقبل على الفناء .

وكان يوما من أيام الشتاء .. لم تشرق شمسه .. بل أخذت تتسلل فى مدارها مستترة وراء السحب الداكنة المعتمة .. وكانت الريح تهب فى لطمات عنيفة متواترة . ورائحة الجو تنذر بالدموع الهاطلة .

وكان يوما يحس منه الحزن .. وشمس متشحة بالسواد .. وريح نائحة .. وسماء توشك على البكاء .

وتجاوزتنى سيقان الحشد وأنا أشق طريقى بينها .. متجهة اليه وأخذت تمر بى الساق تلو الساق دون أن أجد بغيتى .

واتجهت يمنة ويسرة .. أبحث .. وأبحث .. ولم يكن أسهل علىّ من الوصول اليه .. ولكن فى هذه المرة لم أجده بسهولة .

ونبحت .. عله يسمعنى .. فينادى علىّ .. ولكن أحدا لم يسأل عنى .

وعجبت لتأخره .. انى لم أفتقده أبدا .. انه لم يتخلف مرة واحدة عن هذه المواكب .. وفجأة حانت منى التفاتة الى الصندوق المرفوع على الأكتاف وأحسست بقشعريرة فى جسدى .

أيمكن أن يصح هذا ؟ أيمكن أن يكون حقا قد تخلف عن الموكب ؟

انه لم يتخلف عن الحضور .. ولكنه تخلف فقط عن السير .. لا .. لا .. لقد أتى محمولا .

أجل .. انه هو .. أنا لا أخطئه أبدا .. انى أعرفه وسط الآلاف .. وخلف مئات الستر والجدران .. أعرف رائحته .. وأميز عبيره .

ونبحت نباحا شديدا .. انى أكره أن يدخلوا به محمولا فهم سيعودون وحدهم .. وسيبقى هو .

لا .. لا .. سأدخل معه .

وشققت طريقى متسللة بين الأقدام الى أسفل .. وهناك وجدتهم يرقدونه فى باطن الأرض ويوسدونه الثرى .. وخيل الى أنى أسمع صوته يهتف ضاحكا ساخرا :

- لابد لنا من عودة .

وصعد الجمع .. وانزويت أنا عن الأنظار فى ركن من المكان المظلم .

اذاً تركوه هم .. فقد سبق أن تركوه فيما مضى .. أما أنا فسأبقى معه .. دائما .. دائما .

وفى تلك الليلة بحث مرسى عن كلبته عبثا .. ثم تعود أن يسمع صوتها بعد ذلك فى كل ليلة نائحة عاوية .. أو هكذا خيل اليه .

وعندما حضر الموكب فى مرة تالية وفتحت المجاديل وهبطوا بزائر جديد .. لمح القوم هيكلا عظيما صغيرا لم يدروا لمن .. ولا من أين أتى .

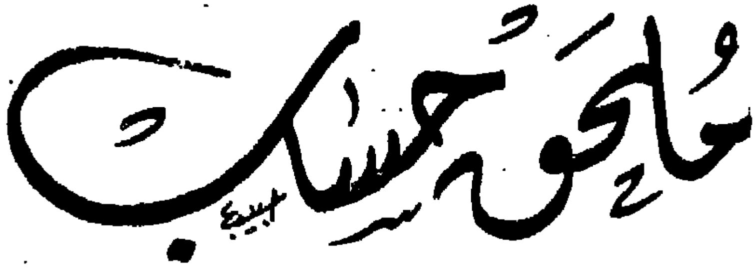
★ ★ ★

من حياتي

مقـــدمــة

ان حياة الكاتب ليست ملكا خاصا به .. بل هى ملك مشاع بين القراء ... ولا يمكن حجبها عنهم . وهم ان لم يلتقطوها متناثرة فـى كتاباته ... قدمها اليهم النقاد مكشوفة فى تراجمه ... وأنا هنا أقدم لكم قطعا من حياتى اقتطفها كما هى وألقى بها اليكم عارية مجردة ... لا أثر فيها لخيال قاص أو ابتكار مؤلف ... وبيدى لا بيد عمرو .

« يوسـف السبـاعى »



هل الله موجود بالطريقة الواقعية البسيطة الساذجة .. التى يتخيلها الأطفال ؟

هل هو جالس فوقنا يطل علينا من سمائه ويرقب حركاتنا من عليائه ؟

هل هو ينصت الينا .. ويستمع لدعواتنا .. ويحقق رجاءنا ؟

هل هو كائن حيث نتطلع اليه فى صلواتنا .. بعيون مسبلة وأصوات هامسة مبتهلة .. وقلوب خائفة واجفة .. وهو .. بقدرته وعظمته .. ورحمته .. جالس على عرشه .. بعين نافذة وأذن واعية .. ونفس مستعدة ملبية ..

لا عمل له الا عون المحتاج .. وغوث الملهوف ؟ ..

هل هو كما نتخيله ونوده .. فى أمراضنا .. وأزماتنا ؟ .. منتظر .. جاهز .. ملب .. كأنه مركز اسعاف ... أو بوليس نجدة ..

طافت بذهنى كل هذه الاسئلة .. عندما شاهدت صبيا صغيرا .. وضع الطربوش على رأسه .. وانهمك فى الركوع والسجود .. وأخذ يهتف بحرارة ويدعو بالحاح وإصرار .. كأنما يستحث الله .. أو يتعجله أو يؤكد عليه .. لكيلا ينسى ..

ربما كان يريد منه .. أن يهدى أبويه لكى يذهبا به الى السينما .. أو يمنحاه بضعة قروش لاستئجار عجلة .. أو ربما كانت المسألة أخطر من هذا .. ربما كان لديه ملحق ..

أنا شخصيا .. مررت بمثل أزمته .. وركعت ركعاته .. وسجدت سجداته .. وهتفت بأحر من دعواته .. ورجوت الله بأشد والح من رجائه ..

كنت فى أشد الحاجة الى الله .. ولم يكن أمامى غيره .. كان الوقت ضيقا .. ولم يكن سواه يستطيع أن يفعل شيئا ..

كان لدى ملحق حساب فى الابتدائية ..

وقد وقعت الواقعة .. فى عام ١٩٢٨ .. وأنا فى الحادية عشرة وكنت قد رسبت فى امتحان الابتدائية .. وأحدث رسوبى ضجة سخط وحزن فى العائلة .. عدا أبى طبعا الذى لم يأبه قط لنجاح لى أو سقوط لا لأنه يأبه لى .. بل لأنه لا يعتبر الشهادات ولا يهتم بالمدارس وما يتبعها من مذاكرة وسقوط ونجاح .. وقد كتب عنه المازنى يصف تقديره للشهادات بقوله:

« ومن مظاهر استخفافه بما يعتز به الناس وإن كان غير ذى قيمة فى ذاته أنه ترك دبلومه التى تخرج بها فى مدرسة المعلمين العليا عند صاحب - قهوة الحقوق - بحى عابدين وهو رجل رومى كنا نألف مقهاه ، ويكثر اختلافنا اليه ، ولا أعلم هل ضاعت أو لم تضع ، ولكن الذى أعلمه هو أن هذا المكان كان مبلغ احتفاله بهذه الدبلوم التى لعل غيره يعلق مثلها فى داره فى إطار من فضة أو ذهب » .

ذلك كان تقدير أبى للشهادات ولكن بقية أهل البيت لم يكونوا فلاسفة كأبى .. فأحدث سقوطى شبه مناحة .. ولم يخفف نجاح أخى محمود .. من وقع الصدمة .. فقد كانت الابتدائية شهادة .. وكان سقوطى وقتذاك .. يعتبر ضياع شهادة .. من البيت ..

وعندما اتضح أن لى ملحقا فى الحساب .. بدأ الملحق كطوق النجاة .. وبدأت جهود العائلة (أعنى أمى وخالى فقد كان أبى خارج الحلقة فى كل ما يختص بالشئون المدرسية التافهة فى نظره) أقول بدأت جهود العائلة تحشد فى سبيل انقاذ الشهادة الضائعة .

وكان على أن أدرس ليل نهار .. دراسة كان يمكن أن تتيح لى الحصول

على دكتوراه فى الاقتصاد .. وليس مجرد المرور فى ملحق حساب فى الابتدائية ..

التحقت فى الصباح بمدرسة وادى النيل الابتدائية الأهلية .. وكانت تفتح أبوابها للدراسة الصيفية لأهل الملاحق الخيب من أمثالى ..

أما بعد الظهر ، فكنت أقضيه فى درس خصوصى عند رياض افندى مدرس الرياضة والاخ الاكبر لصديقى حبشى زميلى فى مدرسة محمد على الابتدائية وجارى الدائم فى فصولها .

وكنا نقطن وقتذاك فى جنينة ناميش فى بيت يطل على محطة سكة حديد حلوان وعلى شارع الخليج وكوبرى المنيرة وكانت مدرسة وادى النيل كائنة فى ميدان السيدة .. أما بيت حبشى أو المقر الدائم للدرس الخصوصى ، فكان فى آخر شارع زين العابدين حيث يطل على قماين الجير ، وجيل الجيوشى ..

أما عن الدراسة فى مدرسة وادى النيل .. فقد كان وقتنا خلالها ضائعا فى كل شىء .. الا دروس الحساب ..

كانت العملية الكبرى التى تشغلنا فى المدرسة .. هى اسقاط أكبر قدر من البلح الأخضر من ثلاث نخلات فى حوش المدرسة .فإذا ما أتممناها بنجاح كان علينا أن نذهب الى كنتين المدرسة لأكل ما تيسر من الطعمية .. ثم التجول فى فصول المدرسة الخالية .. والصعود على السطوح لنشرف على حركة المرور فى ميدان السيدة .

وكان المدرسون من أندر العناصر فى المدرسة .. بينما كان الفراشون يظهرون بوفرة .. وكان الضابط .. والوكيل يتناوبان رياسة المدرسة .. أما الناظر فكنا نلمحه أحيانا .. وكان يسألنا :

- مبسوطين ياولاد ..
- وكنا نجيبه دائما :
- مبسوطين يابيه .

ولم يحاول بالطبع أن يسأل عن سر انبساطنا .. أهو خلو المدرسة من

المدرسين .. أم الثلاث نخلات .. أم طعمية الكنتين .

وعندما كنا نضيق بالمدرسة..ونملأ بطوننا بلحا وطعمية.. وننتهى من كل أنواع العبث بها..ونسكب الحبر من جميع الدويان ونكل من العدو فى السطوح ومن لعب الكرة كنا نلجأ الى جامع السيدة.. حيث نرقب المجاذيب فى الميضة ثم نتوضأ.. ونصلى وندعو الله أن.. يأخذ بيدنا.. ويكلل جهودنا بالنجاح..

وكنت أحس براحة كبرى وأنا أجلس فى رحبة الجامع الفسيح مستندا الى أحد أعمدته ممدداً ساقى فوق سجاجيده الحمراء السميكة .. متطلعا بعينى .. الى فراغه العريض وسقفه المرتفع .. متخيلا الله مطلا على من مكان ما فى هذا السقف .. وأنه سيتولى عنى مهمة الملحق .. وأنه لا شك قد أجرى اللازم مع رسله .. وأوليائه .. وعلى رأسهم السيدة زينب .. لإنجاحى فى الامتحان ..

تلك كانت دراستى الصباحية .. أما دراسة بعد الظهر فكنت أبدأها بانتظار اول عربة حنطور .. تحملنى – وراءها بالطبع – الى مقر دراستى .. بيت صديقى حبشى .. على سفح جبل الجيوشى ..

وعند أول كرباج .. على ظهر الراكب طبعا .. وليس على ظهر الحصان .. أو عندما تنحرف العربة عن الطريق الى البيت .. أقفز منها .. لأقطع بقية رحلتى الدراسية سيرا على الاقدام ..

وعندما أصل الى الدار .. كنت غالبا لا أجد المدرس .. فقد كان – مساه الله بالخير – فى ندرة مدرسى وادى النيل .. من المتعذر لقاؤهم .. وفى الاوقات النادرة التى أجده .. كان يوشك أن يغادر البيت فينبئنى أنه قد ترك لى الواجب .. ويسألنى السؤال التقليدى الذى كان يسأله إيانا ناظر المدرسة . هل أنا مبسوط .. وبالطبع أجيبه بأنى مبسوط .. فيهبط بقية الدرج دون أن يسألنى عن سر انبساطى . ودون أن يعرف أن جزءا كبيرا من هذا الانبساط مرجعه الى قلة لقائه .. والجزء الباقى من الانبساط مرجعه إلى أنه لا يحاسبنى على الواجبات التى لا افعل منها شيئا ..

وأدخل الى الدار لأجد فى استقبالى دائما .. نائبه .. حبشى .. صديقى العزيز ممسكا بعصا طويلة .. كنا نستعملها مدقا ندق به الأرض .. أو بتعبير أدق .. مجسا .. نجس به الكنوز المخبوءة فى بطن جبل الجيوشى .

وأقذف بكتاب الحساب وبكراريس الواجبات على طول ذراعى . ثم أتأبط ذراع صديقى .. ونائب مدرسى .. لنبدأ رحلتنا اليومية فى البحث عن كنوز جبل الجيوشى .. وقد أمسكنا بالمجس .. أو بعصا .. موسى ..

ونقضى الساعات نطوف بالجبل .. هابطين صاعدين وفى كل خطوة ندق بالعصا على الأرض بضع دقات علنا نسمع صدى .. ينبئنا عن تجويف فى باطن الأرض .. وضع فيه الكنز ..

ولست أدرى ما الذى دفعنا الى الاعتقاد بأن هناك كنزا مخبوءا فى باطن الجبل .. ولكن الذى أذكره أننا كنا نعرف أن هناك بقايا مدينة غابرة عفا الزمن على طللها وغطت الأتربة أنقاضها .. وبدأنا بهذه المعرفة سلسلة من الاستنتاجات المنطقية . المدينة لا بد أن يكون بها ناس .. والناس لا بد أن يكون لديهم مال والمال لا بد أن يكون مخبوءا فى الدور .. والدور مدفونة تحت الانقاض .. فلو عثرنا إذاً على بيت من هذه البيوت .. فلا بد أن نجد المال .. وإذا وجدنا المال .. اغتنينا .. وإذا أغتنينا .. لم يكن بنا حاجة الى التوظف .. فليس بنا حاجة الى المدرسة .. وبالتالى .. الى المذاكرة والى ملحق الحساب .. وهكذا اقنعت نفسى ببساطة .. أنى لا أعبث بهذه الرحلات .. بل أسير فى نفس الطريق والى نفس الغرض الذى يمكن أن يؤدى اليه نجاحى فى ملحق الحساب .. وأنى - إذا قدر الله لى الحصول على الكنز وليس ذلك عليه ببعيد بعد قضائى ربع يومى فى بيته متعبدا الى جوار أوليائه - فإنى سأصبح من أصحاب الملايين .. وأستطيع بمنتهى البساطة أن أفتح عشر مدارس .. كمدرسة وادى النيل .. وأملأ فناءها بلحاً .. وكنتينها طعمية ..

وأذكر أننا أوشكنا فى النهاية على أكتشاف الكنز ، فقد سمعنا ذات يوم لضربات عصانا صدى .. ينبىء عن تجويف فى باطن الأرض (اتضح فيما بعد أنه جامع بعد أن كشفت عنه مصلحة الآثار) ولم نشك فى أنه الكنز

المفقود .. ولم يوقف استمرارنا في الكشف عنه .. الا حلول موعد الامتحان .. وتوقف رحلاتي الدراسية .

ودخلت الامتحان .. وخرجت منه بعد أن لخبطت ما شاء الله على اللخبطة .. وكان الامتحان مليئا بمسائل الحنفيات والبالوعات التي لم أكن أكره وقتذاك سواها .. والتي جعلتني حتى الآن أضيق بمناظر الحنفيات والاحواض والبالوعات .

وكان خالي قد أوصاني بأن أكتب أجوبة المسائل على ورقة الاسئلة حتى يطمئن على نجاحي ..

وكتبت الاجابات .. ثم ذهبت الى مدرسي ..

فراجعها وكتب لي الاجابات الصحيحة .. ولم يكن هناك أية صلة أو شبه صلة بينها وبين اجاباتي .

وفي الطريق قطعت اجاباتي واجابات المدرسة من هامش الورقة وعندما عدت الى البيت أنبأتهم أن اجاباتي صحيحة كلها .. ولكي أسبك الكذب استثنيت مسألة واحدة هي التي أخطأت فيها وهي مسألة البالوعات .

وعندما سألوني عن سبب تمزيق ورقة الاسئلة أنبأتهم أني تسليت بقرضها أثناء عودتي .

ومرت بضعة أسابيع ثم قرب وقت إعلان النتيجة .. وفي يوم أغبر .. قيل ان النتيجة قد أوشكت على الظهور وأنها ستعلن في الصحف قبل العصر .

وكان لي زميل حميم يزاملني في الملحق ويشاركني الدراسة الصيفية في مدرسة وادي النيل .. وفي التعبد في جامع السيدة ولست أذكر الآن أسمه الاصلي وإن كنا قد تعودنا أن نسميه بأبي جبل .

وكنت قد أوصيته إذا استطاع معرفة النتيجة قبلي وكنت ناجحا أن يمر بي لينبئني بها .

وفي ظهر ذلك البيت سمعت ضجيجا في حوش البيت .. وأطللت من

بئر السلم فإذا بصاحبى ينادى على ، قائلا :

- النتيجة ظهرت .

- وعملت ايه .

- أنا نجحت .

- طب وأنا .

- أنت سقطت .

وهكذا بمنتهى البساطة القي القنبلة .. وانطلق .

وسمع أهل البيت بالنبأ فبدأت المناحة .. وبدأت جميع صفات الخيانة تتهاوى على رأسى .

وأحسست بحزن شديد .. وسرت الى حجرة صغيرة كنا نستذكر بها .. وجلست واجما يائسا .. ولكن لم يطل بى الجلوس الا لحظات .. ثم تذكرت الله .. فغدوت الى الحمام وتوضأت .. ثم أغلقت على باب الحجرة وبدأت الصلاة ..

لست أدرى .. ما الذى دفعنى اليها . وماذا كنت آمل فيها بعد أن عرفت النتيجة وأيقنت من سقوطى .

ومع ذلك اندفعت فى الصلاة بحرارة .. لم تكن صلاة .. بالطريقة التى تعودنا بها أن نؤدى الصلاة .. كانت توسلا .. كانت رجاء الى الله الذى كنت واثقا أنه يطل على ويسمع دعائى .. ويفهم شعورى .. ويقبل ندمى ويقدر توبتى ، ويستطيع أن يحقق رجائى ، والا يخذلنى أمام الأهل .

ومكثت أصلى فى إصرار وأدعو فى الحاح ..

لا ركعة ولا ركعتين .. بل صلاة مستمرة .. حتى سمعت بائع صحف ينادى .. بصوته المنذر (نمر التلامذة الابتدائية) .

ولم اتحرك من مكانى .. ولم أقفز ولم أعد الى البائع .. بل ظللت فى ركوعى وسجودى .. ودعائى .. وتوسلى الى الله .

وفجأة فتح الباب ووجدت أخى محمود يندفع الى كالصاروخ صائحا :

- يوسف .. أنت نجحت .

ولم أصدق .. وأمسكت بالصحيفة لاقرأ الأرقام من خلال دموعى فوجدت رقمى .. وعدت لأقرأه مرة ثانية وثالثة والتأكد من اسم المدرسة .. مدرسة محمد على الابتدائية .

وتركت جسدى يسترخى .. وأعصابى المشدودة تستسلم .. ونظرت الى أعلى .. وأنا أحس بشكر فائض .. وحمد عجيب .. لقد بدأ لى الله .. وكأنه يبتسم فى رضاء .. ويقول لى « مبسوط يا عم .. أديك نجحت .. بطل لعب بقى » .

تلك هى المرة التى أحسست فيها الله قد سمعنى وأجاب على إجابة مباشرة .

لقد دعوته بعد ذلك كثيرا .. فكان يجيبنى إجابة بطريقة غير مباشرة .. أو بطريقة « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » .

وكنت أحمده .. حمدا مباشرا أحيانا .. وحمدا بطريقة « الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه » أحيانا أخرى .

وبعد .. أنا أؤمن بأنه دائما موجود وأنه دائما يلبى دعواتنا ولكن بطريقته الخاصة .

في حمام السباحة

لا تزال كلمة « دفعة » فى قاموس الجيش تعنى عزيزا .. فالدفعة هم الذين يدخلون الجيش فى دفعة واحدة سواء كانوا جنودا أم ضباطا . ومعزة الدفعة ناتجة من فرط الصحبة وطول العشرة .. وقد تضرب أيدى الزمن بين الدفعة وقد تباعد الظروف بين أحدهما والآخر فيفترقان ولا يلتقيان الا وقد اشتعل الرأس شيبا . ومع ذلك لا يكاد أحدهما يلقى صاحبه حتى تتهلل منه الأسارير وتنفرج الشفاه وتنبسط الملامح ويهتف كل منهما « أهلا .. أزيك يا دفعة » .

عندما أجلس الآن لأذكر الدفعة وأعود بذهنى القهقرى لسنين خلت وأعود لأطوف بالكلية متسللاً وبنفسى كثير من خشية ورهبة لا أظنها الا ملازمة ذكريات كل من مر بالكلية الحربية .

عندما أجلس لأذكر الدفعة .. أرانا قد وقفنا فى « الجرة » (والجرة عند من لا يعرف هى الطرقة الممتدة أمام عنابر النوم) وقد بدأ منظرنا لا يسر الناظرين .. برؤوسنا الحليقة التى جارت عليها ماكينة الأسطى خير فأودت بالأخضر واليابس . وتركتها ملساء من غير سوء كأنها الزلطة أو قرعة البوظة . وقد ارتدينا لبس الالعاب المكون من قميص ابيض بدون ياقة . وحتى الآن – وبعد أن حصلت على شهادة الأركان حرب – لم أستطع أن أفهم السر فى إصرار المهمات على تفصيله بلا ياقة .. وأسفل القميص يستند على حجزنا بنطلون ترواكار وفى يدنا قايش الوسط المفروض أنه يرفع البنطلون ولكنه كان من فرط سعته فى حاجة الى من يرفعه فرفعناه بأيدينا ، وأسفل هذا شراب

من الصوف البنى الخشن ثم حذاء عريض البوز منبسط النعل من القماش الأبيض المرصع بالجلد .

وكان حريا بنا أن نشعر بخيبة أمل .. ومع ذلك فإننا لم نشعر بها .. لأن سلسلة الأحداث التى توالت علينا .. لم تدع لنا الفرص لأن نشعر بشىء .. لا أمل .. ولا خيبة أمل .

حلق الرأس ثم الاصطفاف أمام البلوكامين حافظ أو موسى لست أذكر ثم لفع كيس المرتبة المليء بالمهمات فوق أكتافنا وحمله الى العنبر ثم ارتداء الملابس الوجيهة التي أبدتنا كالطير المنتوف الريش ، ثم السير الى الحمامات ولبسنا زوجا من الأحذية ذات الرقبة الطويلة والنعل الحديدى التى تركتها المهمات بلا صباغة ولا لون حتى نتكفل نحن بصبغها . وبيسارنا حق من الورنيش به حوالى أربعة أرطال ورنيش لا يلمع الحذاء الا اذا بصقنا عليها وعليه .

كل هذه الضجة .. لم تترك لنا فرصة للتفكير .. فقد أُخذنا كما يقول المثل على مشمنا ومن ورائنا الصف ضباط يمارسون فينا صنوف الادارة وضروب التريقة والامارة ويردون الينا الأسى الذى حملوه من سابقيهم كأنه نذر لا بد أن يوفيه كل جيل من أمثالهم الصف الضباط للجيل الذى بعده من أمثالنا المستجدين .

وهكذا أخذت تمر بنا اللحظات والساعات والأيام .. ونحن من تعبنا أشبه بالدائرين فى دوامة لا نكاد نحس بشىء مما حولنا أو أشبه براكب القطار لأول مرة لا يكاد يستقر بصره على منظر حتى يكون قد اختفى .

وعندما أقول اننا كنا من فترتنا الأولى فى الكلية أشبه بالدائرين فى دوامة لا أقولها على سبيل المجاز أو المبالغة لانى فى الواقع لا أستطيع الآن أن أرسم صورة واضحة لتلك الفترة .. فقد كان كل شىء يمر بنا بسرعة وكنا فى عملنا من فرط الجهد والارهاق قد امتنع علينا فيه التفكير .

صحيان قبل النوبة خوفا من النوبة وعدو من العنبر الى الحمام ثم من

الحمام الى العنبر وحلاقة فى عجلة ، ثم فرش البطاطين وطيها وضبط مقاسها ، ثم لف القالشين وفكه ثم لفه مرة أخرى وفكه ثانية ، ولفه ثالثة حتى نضبط التوكة فى مكانها المضبوط بجانب الساق كأن انحرافها من مكانها سيسبب انحراف دورة الفلك ، وعدو الى الشاى وعدو من الشاى ولبس أول ولبس ثان و .. و .. كل ذلك كان هناك انسانا قد أمسك من يديك وظل يدور بك بلا توقف حتى يقذف بك آخر اليوم على فراشك وانت فى شبه اغماء ، ولم أقول فى شبه ؟ وقد كنا نأوى الى الفراش فى التاسعة .. وفى التاسعة ودقيقة واحدة نكون فى سبات عميق .

وفى وسط هذه الدوخة بدأت أميز أفراد الدفعة .. أو شركائى فى البأساء ، وكان أول من استطعت تمييزه هو الزميل قره .. اذ كان هناك بعض الشبه بيننا وبدأ هذا الشبه يوقعنى فى مشكلة لا قبل لى بها .. إذا اختلط الشبه على الباشجاويش عبد العليم التعلمجى الذى لم أكن ارى فيه إلا عينين تبرقان فى منتصف رأسه وصدغين عريضيين لا تفتأ ضروسه تتلاعب من ورائهما علامة الغضب .

كنت فى دوامة الرهبة الأولى .. أخشى كل انسان وكنت أبذل كل جهد حتى لا أخطىء فأجازى . ولذا كنت أقف أو اسير فى الطابور وأنا أبالغ فى كل ما يطلب منا من ابراز صدر الى رفع هامة الى شد قامة ، ومع ذلك كنت لا أفتأ أسمع صوت الطيب الذكر الباشجاويش عبد العليم ينهرنى بين آونة وأخرى بصوته الأجش صائحا « شد حيلك ياسباعى .. افرد صدورك ياسباعى » الخ .. وهكذا ظللت اشد حيلى وأفرد فى صدرى حتى كدت أوشك على الانفجار وصاحبنا مستمر فى نهره ، وأنا تزداد بى الخشية والرهبة عندما أجد أن رشاشا من اللوم والنهر قد يبلغ أذنى ضابطنا الحبروك .. فتسوء سمعتى لديه سماعا .

وكدت أيأس من الأمر عندما أدركت فجأة أن عبد العليم يخلط بينى وبين قره .. وانه عندما يخطىء قره أنهر أنا لانى رأيته مرة يلتفت وراءه فيصيح

به عبد العليم « بص قدامك ياسباعى » ثم ينظر الى وأنا واقف كالصنم ويقول « كويس قره » .

وهكذا ادركت أنى اتبع الطريق الخاطىء لانقاذ سمعتى وان كل مجهود بذلك يذهب لحساب قره . وأن قره لن يحاول أن يبذل أى مجهود لحسابى ما دام اسمه يتمتع بهذه السمعة الطيبة بلا أى جهد وما دام يخطىء فانهر أنا . ولم تخطر ببالى بالطبع فكرة أن أنبه الأخ عبد العليم الى خطئه وأن فهمه أنى لست قره وأن قره ليس أنا . فقد وجدت أن هذا ضرب من ضروب العبث فقد كان الكلام في الطابور جريمة كبرى وبعد الطابور لم يكن لدينا وقت للكلام فقد كنا ننطق كالفيران المنزعجه لنبدل ملابسنا ولنذهب الى الفصول أو لنفعل أى شيء أو حتى لنفعل لا شيء وانما نجرى لأن المشي أو الوقوف كان يعتبر أمرا منكرا .. وكان لا يجرؤ على الاقدام عليه الا كل مغامر .. ولم أكن فى يوم من الأيام من المغامرين .

ثم هبنى استطعت أن أقدم على محادثة « الغول » عبد العليم وأنى غامرت بإفهامه خطأ ظنه . فهل تره سيتنازل بالاعتراف بالخطأ .. وهل تراه سيعترف أنى أعرف أسمى أكثر منه وهو الذى يحفظ قانون البياده صم .. لا أظن .

وأخيرا منّ الله علّى بالحل السعيد وأؤكد لكم أن الله هو الذى من على به .. لأنى لم أكن أجرؤ قط على التفكير فيه أو الاقدام عليه إن لم يدفع به الله الى بطريق الصدفة .

فى ذات طابور . شرد بى الفكر . ونادى عبد العليم على الطابور لليمين در .. فاستدار الكل لليمين .. واستدرت وحدى لليسار .. وثار عبد العليم وهاج ولعبت ضروسه من وراء اصداغه وبرقت عيناه فى منتصف رأسه .. ثم شتم قره .

وبلعها قره ، وعدت أنا الى مكانى فى الطابور بسرعة .. وتلفت يمينى أسترق النظر الى القره لأرى وقع الأمر عليه .. فصاح بى عبد العليم « بص قدامك قره .. بلاش مسخرة » ولا شك أن قره قد أحس لأول مرة بوقع

النهر فشد قامته وأبرز صدره .. وصاح عبد العليم لا فض الله فاه « كويس سباعى » .

وكدت من فرط الفرح لانقلاب الحال .. أن ارفع يدى الى رأسى بالتحية شاكرا وأحييه « دا من أصلك » لولا أنى خفت أن تحل بقرة كارثة .

وأحسست لاول مرة بنشوة الانتصار فى هذا الطابور وكلما استمرأت الخطأ ازداد النهر على قره وكلما ازداد النهر على قره ازداد نشاطا وحرصا فى الطابور .. وازددت أنا مديحا حتى انتهى الطابور ..

واستمر كل منا بعد ذلك يتحمل مساوىء الآخر وحسناته فى الطابور حتى انتهى تعليم المستجدين وتخلصنا من عبد العليم .

وهكذا كان قره أول شريك لى فى بأساء الطابور .. أما الشريك الثانى الذى بدأت أميزه فى الدفعة .. فقد كان شريكا فى بأساء الحمام .. أعنى حمام السباحة .

كان طلبة المدرسة وقتذاك لا يتجاوزون الخمسين ، وكانت الالعاب إجبارية ولم يكن معنى هذا أن كل طالب يلعب اللعبة التى يجيدها وأن هناك فرقا رياضية يكونها طلبة المدرسة . بل كان على كل طالب أن يلعب كل لعبة .. سواء أجادها أم لم يجدها .. وسواء أكانت مواهبه وامكانياته تمكنه من ممارسة اللعبة أم لا تمكنه .

كان المفروض على كل طالب أن يلعب الملاكمة وأن يقفز الحواجز وأن يقذف الجلة وينط عال وطويل ويعدو المائه ياردة والميل واختراق الضاحية .. التى لا تقل عن أربعة الأميال .. وبعد هذا يعبر الحمام سباحة .. فان لم يعبره .. فهو لن يرى الطريق بعينه حتى يتعلم كيف يعبره .

ولم يكن لى سابق خبرة بأى نوع من الألعاب الا كرة القدم كنت أباشرها خلسة وأنا تلميذ فى مدرسة شبرا الثانوية . فقد كانت والدتى تحرم علينا أنا وأخى كل انواع الرياضة اذ كانت تجد فيها هى وركوب العجل والتجذيف خطورة على حياتنا . وكنت أحتفظ بلبس الكرة عند بواب المدرسة ولا أجرؤ

قط على حمله الى البيت ولا سيما بعد أن أصيب أخى الاكبر ذات يوم فى لعب الكرة بجرح فى حاجبه وحضر الى الدار محمولا على عربة اسعاف .

ولم يكن لى بالطبع أى دراية بالسباحة . بل لا أذكر أنى انغمرت قط تحت مياه غير مياه الدش .. لا حمام سباحة .. ولا نيل ولا حتى ترعة .. اللهم الا مغطس حمام الناصرية الذى أذكر انى نزلت به مع والدى ذات مرة وأنا فى السادسة من عمرى .

ولم يكن هناك بالطبع شبه كبير بين مغطس الناصرية وحمام الحربية ولم تكن خبرتى فى الاستحمام تحت دش تعطينى أى نوع من مبادىء السباحة . ولذا وجدت نفسى اقف وشركائى فى البأساء وقد أخذنا ننظر الى بعضنا البعض فى حيرة وجزع .

وكان ضابط السباحة هو اليوزباشى على عامر وكان الصف ضابط المسؤول هو الشاذلى ، وهو أصدق أصدقائى الآن وألد اعدائى وقتذاك .

كانت طريقة تعليمنا السباحة هى الطريقة العملية المثلى .. ولكنها كانت أيضا الطريقة التى تجعل حمام السباحة شبحا ينغص علينا حياتنا .

كنا نقف على حافة الحمام من الناحية العميقة .. ونحن .. الخمسة أو الستة زملاء التعساء .. نؤمن بالله ونؤمن بقوله تعالى ﴿ لا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ﴾ وكنا بلا جدال لا نجد فى الحمام الا تهلكة كبرى .. ومع ذلك لا يكاد الشاذلى ينادى « استعد انزل » حتى نكون قد اطعناه وعصينا الله .. وألقينا بأيدينا الى التهلكة الا واحدا منا .. هو الأخ بدر الدين .. فقد كان لا يلقى بيديه بل برجليه .

وتفصيل الأمر أن بدر الدين شريكى الأول فى بأساء السباحة .. كان أبعد الناس عن كل أنواع الرياضة .. لا كرة ولا جرى .. ولا أى شىء .. وكنا عندما نقفز بأنفسنا فى الماء نحاول أن نبذل جهدا مضنيا .. ونظل نضرب بأيدينا وأرجلنا .. لا فى سبيل العوم .. بل فى سبيل البقاء على قيد الحياة أطول مدة .. حتى نصل الى منتصف الحمام ونشرف على الغرق فيهبط بعض معلمى

الحمام لانقاذنا . كنا نحن نفقل هذا ، أما الأخ بدر الدين فلم يكن لديه أى أمل فى المقاومة .. بل كان ينظر الى المسألة بمنتهى اليأس .. وكان يعتبر نفسه فى كل مرة يلقى بنفسه فى الحمام منتحرا .

كان يقف معنا على حافة الحمام .. وعندما كان ينادى الشاذلى « استعد » لم يكن هو يحاول الاستعداد أبدا .. بالطريقة التى يستعد بها السباحون .. لأنه قطعا لم يكن يعتبر نفسه سباحا بل منتحرا ولذا فقد كان يستعد بطريقته الخاصة .. كان يرفع يده الى رأسه الذى بدأ به بشائر صلع . ثم يأخذ فى هرش البقية الباقية من شعره .. وقد بدا عليه أقصى ايات الشرود وأجده قد أخذ يتمتم بشفتيه واغلب ظنى الآن أنه كان يقرأ الفاتحة أو شيئا من هذا القبيل ..

وعندما ينادى المنادى انزل . لم يكن ينزل كالسباحين هابطا بيديه ورأسه . بل كان بمنتهى البساطة يقدم رجلا ويدبها فى الماء ووراءها الرجل الأخرى . ويهبط فى الماء هبوطا رأسيا كأنه قطعة الحجر اعنى هبوطا لا طلوع بعده .. ولا نعود نبصر من بدر الدين اى اثر اللهم الا بعض فقاقيع الهواء التى تدل على أن صاحبنا يموت غرقا .

ويهبط السباحون وراءه ليبحثوا عنه فى قاع الحمام ثم يخرجوه .. ليعود على عامر والشاذلى الى الالقاء به معنا فى قاع الحمام مرة أخرى .

وعندما كان يحل بنا الاعياء ، ولا تكاد اقدامنا تحملنا ، كان اليوزباشى يأمر الشاذلى بالانصراف بنا لاننا قد أنهكنا .. فلا نكاد نحس الخلاص حتى نجد الشاذلى صاح بنا « انصراف ازاى يا فندم ، دول ماتعبوش .. دول بيستهبلوا » .

ولم يكن لى فى ذلك الوقت عند الله تعالى سوى أمنيتين .. الأمنية الأولى أن تهب عاصفة رملية مريعة لم تعهدها مصر . لكى تردم حمام السباحة .. والأمنية الثانية أن يكون الشاذلى فى قاع الحمام قبل أن تردمه العاصفة .

والعجب فى صاحبنا أو عدونا الشاذلى .. أنه – رغم اعتقادى وقتذاك أنه من ابطال السباحة – كان لا يجيد السباحة . وأنه لم يتعلمها الا وهو فى

الكلية . وأنه وهو مستجد مر بنفس الدور الذى مر بنا ، وقد قص على فيما بعد أنه عندما التحق بالمدرسة ودخل حمام السباحة فى أول مرة .. ولندعه يقص القصة بلسانه :

« وقفت فى الحمام .. وكانت المرة الأولى التى أدخل فيها فى حياتى حمام سباحة .. اذ كانت كل صلتى بالمياه هى الترعة الموجودة فى بلدنا ووجدت بعض الطلبة يسبحون فى الناحية غير الغريقة وقدد وقفوا مطمئنين يلعبون . ولم تكن لدى أقل فكرة أن حمامات السباحة مائلة القاع وأنها فى ناحية عميقة وفى الأخرى غير عميقة بل كنت أفهم انها كالترع مسطحة القاع . ولم تكن لدى أى فكرة عن السباحة ، وكان ابراهيم جزارين هو الصف ضابط المسئول عن السباحة يومذاك . ووجدت الناحية العميقة خالية .. فقلت لنفسى أنزل بها بعيدا عن الزيطة . لأرى الحكمدار أنى لست غشيما وأنى متعود على حمامات السباحة .. وعنهاوفى غفلة منه ودونا عن بقية الطلبة .. طببت فى الماء .. بمنتهى البساطة .. ويقول الواقفون يومئذ ان ابراهيم جزارين تلفت حواليه فلم يجدنى فسأل من حوله فى حيرة « الواد الفلاح اللى كان واقف هنا راح فين » فاشاروا له انى طببت فى الماء . وصاح جزارين .. يا نهار اسود الله يخرب بيته دا ما يعرفش يعوم ... ثم قفز ورائى .. وانقذنى من الغرق » .

تلك هى قصة الشاذلى حكمدار السباحة .. الذى كان يشرف على تعلمنا السباحة .. والذى لم يذكر ايامه السود فى حمام السباحة .. وكان يصر عندما يوشك على عامر أن يطلق سراحنا .. على أننا لم نتعب بعد وأننا نستهبل .

وهكذا ظل شريكى فى البأساء الأخ بدر الدين يلقى بقدميه الى التهلكة ثم يهبطون وراءه لانقاذه من الموت غرقا . ولا يكاد يخرج .. حتى يعيده الشاذلى مرة أخرى ويظل يخرج ليعود ويعود ليخرج .. حتى فضل فى النهاية أن يخرج من المدرسة كلها وأن ينجو بحياته ويفوز من الغنيمة بالاياب ويقدم استقالته .

العوام والسوس

لم تكن متاعب الكلية فى فترة المستجدين بمقصورة على حالة اليقظة ما بين طوابير ونط حواجز وملاكمة وحمام سباحة وجزاءات من طوابير زيادة الى شدة سفرية ولوم وتأنيب وبستفة وتريقة ، مما يدعونها بلغة الكلية « داخلية » . لم تكن متاعبنا مقصورة على جهد اليقظة بل كانت تتعداها أيضا الى خوف الراحة .. أو على وجه أدق خوف النوم .

ولست أقصد بخوف النوم . نوم الليل .. فقد كان وقتذاك احب الأشياء الى نفوسنا . اذ كانت فترة السعادة الوحيدة التى تمر بنا .. أعنى السعادة السلبية .. التى يبطل خلالها احساسنا بالحياة وبكل ما يملؤها من متاعب ومنغصات حرة صافية لا تشوبها شائبة متعة أو انشراح .

لست أعنى بخوف .. نوم الليل .. ولكنى أعنى نوم الضحى .. وقد يبدو قولى نوم الضحى عجبا .. وأنا الذى اصف حياتنا حينذاك بأنها عاصفة من العمل والحركة لا تهدأ ولا تنى ، ونوم الضحى هذا يحتاج الى حالة من الراحة والكسل والفراش الوثير والستائر الثقيلة والسكون المخيم والصمت المطبق والظلمة المعتمة ومن أين لنا كل هذا نحن الدائرين فى دوامة تتركنا لا نكاد نلتقط انفاسنا . ومع ذلك فقد كان أكثر ما نخشاه نوم الضحى . لسبب بسيط .. هو اننا لم نكن نحتاج من نوم الضحى أو نوم الضحى الى أى من هذه المغريات التى تغرى الانسان بالنوم . بل كان يكفى جدا ان نستقر بأجسادنا على مقعد خشبى أو نتكىء على جدار حجرى . ثم نسبل أعيننا أو حتى نتركها مفتوحة لكى تسقط من تلقاء نفسها . وفى لمح البصر نكون قد رحنا فى سبات عميق .

وفى الضحى لم يكن القدر ليبخل علينا بسويعات استقرار على مقعد خشبى فى حجرات الفصول أو كما تسميها « الفرق » .. وكان المفروض وقتئذ أننا نجلس فى الفصول للدراسة .. دراسة أصول الحرب وتاريخ المعارك .. ومن الجائز جدا أن المدرسين كانوا يلقون علينا بعض المعلومات عما يعرفونه عن أمثال هذه الاشياء .. ومن الجائز أيضا أنهم كانوا يتحدثون فى أشياء لا صلة لها بالمعارك أو الحرب .. فأنا نفسى لا أدرى .. لأنى فى الواقع كنت مشغولا عن معاركهم وحروبهم .. بمعركة كبرى .. بينى وبين النوم .

ولكى لا اظلم نفسى .. ولكى لا يظلمنى القارىء ويتهمنى بالكسل والوخم .. أجد من الخير أن اعطيه صورة مفصلة وأن اشرح له جميع الظروف المحيطة .. وأن أصف له بدقة كيف كنت أدخل الفصل لأستقر على المقعد الخشبى ولأنصت الى مبادىء الحرب وتواريخ المعارك .. وبعد هذا .. أتحدى كل قارىء بمائة جنيه ، للاشىء .. أن يوجد فى مثل هذه الظروف .. ويستطيع أن يقهر .. النوم .

تبدأ المسألة بيقظة فى الخامسة .. يقظة لا ككل اليقظات .. لا تثاؤب ولا تمطى ولا هرش رأس ولا حك جلد .. ولا فتح عين ثم اغلاقها ثم فتحها ثانية .. لا شىء من هذا أبدا .. بل هبة كعاصفة مفاجئة بعد طول سكون .. عقب نفخة فى البورى للنوبة المخيفة : نوبة صحيان .. وطرقات شديدة من أومباشى « الصف » أى حكمدار العنبر وصيحة ناهرة تشتمل على « أصحى منك له » .

وبعد بضع دقائق نكون قد اصطففنا بالبيجامات والجلاليب والشباشب والطرابيش . لندلى اليه بالقول الخالد المأثور « تمام يا فندم مستجد » وهو يعنى أننا على خير حال من الصحة والعافية وأنه ما زال بنا رمق يعاوننا على تحمل متاعب يوم جديد .

ويبدأ بعد ذلك العدو بين الفراش والدولاب والحمام والسلاحليك وعلبة الجلا وحق الورنيش وفنجان الشاى الصباحى . حتى ينتهى بنا المطاف الى أرض الطابور .

وما من شك هناك أننا نكون – قبل البدء في الطابور – قد استفدنا من الجهد للاستعداد للطابور ما يعادل إن لم يزد على جهد الطابور نفسه .. ويبدأ الطابور .. وفترة المستجدين فى الكلية تستغرق شهر اكتوبر . وحدة القيظ لم تذهب بعد . ويدق الطبل والترمبيت .. ونروح فى ساحة الطابور .. وكأننا فى سيرك .

ونخرج من الطابور .. والواحد منا كما يقول المثل « عرقه مرقه » .. لندخل على الفطار

وحديث الفطار .. أو الطعام بوجه عام .. حديث يطول .. ولست أدرى السر فى اقبالنا عليه بتلك اللهفة والنهم ... أهو الجهد الشاق الذى كنا نبذله والذى كان يتركنا فى حالة من الجوع تجعلنا نلتهم أى طعام ، أم هى حالة من الديمقراطية أصابت معداتنا وجعلتها ترحب بكل ما يلقى اليها وتركتها كما يقولون تهضم الزلط أم أن الأكل كان فعلا من نوع جيد .

قد يكون .. ولكى لا نظلم معداتنا أو نظلم الآكل .. يستحسن أن نعرض قائمة الطعام وقتذاك .

كان الطعام ينقسم من ناحية الصنف الى صنفين رئيسيين لا ثالث لهما : الأول .. الأحمر .. والثانى .. الأخضر ..

كانت لكل أنواع الخضار التى تنبتها التربة المصرية .. تدخل مطبخ الكلية بكيانها المحدود المعروف واسمها المصطلح عليه .. قلقاس . بطاطس . خبيزة . سبانخ . رجلة . ملوخية .. فلا تكاد تحل بالمطبخ وتهبط فى القزانات .. حتى تتفرع الى فرعين .. وحتى تحولها كيمياء مطبخ الكلية الى الصنفين الرئيسيين اللذين يأبى مطبخ الكلية أن يقدم غيرهما .. الأحمر والأخضر .

كان من المتعذر أو من المستحيل .. ونحن نجلس على المنضدة يتوسطها السرفيس ملىء بالخضار أن تعرف ماهيته .. أو أن تعرف أصله أو نوعه .. شىء واحد هو الذى يمكن تمييزه وهو أنه أخضر .. أو أحمر .. فإذا

كان أخضر تستطيع أن تعتبره أى نوع من أنواع الخضروات ذات الأوراق الخضر أو ذات التقلية الخضراء المصنوعة من السلق .. جائز جدا .. أن يكون خبيزة .. وجائز جدا أن يكون سبانخ .. وجائز جدا أن يكون رجلة .. فإذا كنت من غواة الملوخية .. فتستطيع أن تعتبره ملوخية .. دون أن يعترضك معترض ودون أن تخشى فى الحق لومة لائم .. وإذا كنت تكره كل هذه الاصناف ولا تحب الا القلقاس أبو خضرة .. فلتقل عنه قلقاس .. ولتقبل عليه بشهية وبالهناء والشفاء .

ويدخل تحت باب الأحمر .. كل ما يطهي بالقوطة .. ويبدأ بالقوطة نفسها . والبطاطس والكوسة والمسقعة والقلقاس أبو قوطة لا فارق قط بين أحدهما والآخر .. كلها فى قزان المطبخ سواسية كأسنان المشط تدخل بأشكالها وأسمائها ، وتخرج عصيدة حمراء تحت اسم الأحمر .. وليحيى العدل .. ولتحيى المساواة ..

أما الحلو .. يا حلو .. فكان ينقسم أيضا الى قسمين .. والظاهر أن المسئولين عن الطعام كانوا لا يحبون اللخبطة .. ولم تكن لديهم أية فكرة عن شيء اسمه الفاكهة . لأن الحلو كان محصورا وقتذاك فى صنفى الاراسيا والمشمش . يوم اراسيا .. ويوم مشمش .. وهكذا يظل الصنفان يتبادلان على مائدتنا يوما بعد يوم .

وهناك بعد هذا اصناف من الأكل تدخل كلها تحت مسمى واحد وهو القنابل اليدوية .. وهى الكفتة والكرنب المحشى .. فقد كانت دائما تصنع فى حجم قبضة اليد .. أو فى حجم القنبلة اليدوية .. وفى هذه المسألة أعذر الطباخ جدا .. فقد كان الرجل ضخما جدا يبلغ ضعف حجم الآدمى العادى .. ولا شك أنه كان عندما ينظر الى قطعة الكفتة أو قطعة المحشى أو يمسكها بيده الضخمة كان لا يشعر الا انها لا تزيد عن الكفتة أو المحشى الطبيعى الذى يأكله كل الناس .

هذه هى الاصناف الرئيسية فى الغداء والعشاء .. والتى كنا - رغم ما قلت عنها - نقبل عليها بنهم ولهفة .. والتى لم نشعر مرة واحدة من أكلها بحمو

ولا بتعب ولا بحرقان .. ولا بأى شىء من هذه السخافات التى نشكو منها هذه الايام ..

رحم الله المعدات الديمقراطية .. التى تهضم الزلط .

أما عن الفطار فقد كان ايضا ذا قسمين رئيسيين : عدس .. وفول .. يقدمان بالتبادل يوما بعد يوم . يوم عدس ويوم فول .. والفول فى حد ذاته ينقسم الى قسمين فول وسوس .. ولكنهما لم يقدما قط بالتبادل بل كان كل منهما ملازما للآخر .

أذكر أننا جلسنا مرة على المائدة ومر الأومباشى النوبتجى المسئول عن الأكل وسأل حكمدار كل مائدة عن الطعام ليبدى ملحوظاته وكان السؤال سؤال شكليا والاجابة الطبيعية الدائمة لم تكن تزيد عن « تمام يا أفندم » . ولكن هذه المرة . والظاهر أن السوس كان متوفر الكمية وأن صحته كانت جيدة الى الحد الذى بدأ متكافئا مع الفول . بدا لى أن أبدى رأيى فى مسألة خلط الفول بالسوس فهمست راجيا :

- عايزين الفول لوحده والسوس لوحده .

ونظر الى الأومباشى نظرة صارمة أدركت منها مدى الخطيئة التى تورطت فيها .. وتأكدت أن الصحبة بين الفول والسوس فى أطباق الكلية لا يمكن فصم عراها .. وخشيت أن يكون للسوس معزة عند الكلية وأن تؤخذ ملاحظتى تلك على أنها إهانة للسوس وبالتالي لادارة الكلية .. وأن تكون لادارة الكلية حكمة فى تطعيم الفول بالسوس وأن يكون به نوع من الفيتامينات العسكرية الضرورية لنا . ولم يكن هناك يد بعد ذلك من اصلاح خطئى ولا سيما أن الأومباشى كان لم يزل مسلطا على نظرته القارصة . وأسرعت أقول متمتما فى اعتذار :

- أصل فيه ناس ما يحبوش الفول ويحبوا ياكلوا السوس لوحده .

ورغم ذلك .. ورغم ما بالفول من السوس .. أو على الاصح رغم ما بالسوس من فول .. كانت المعدة الطيبة ترحب بكل شىء وتقبل على كل

شيء .. وكنا نعود بها من الطابور خاوية خالية .. فنقذف اليها بكل ما تيسر من عدس فت فيه العيش أو بطبق الفول المدمس ثم نقذف وراءها بقبضة من الجبن ثم نغطي كل هذا بشقفة حلاوة طحينية ونخرج من الميس (المطعم) ونحن أشبه بالمحقونين بالبنج .. ولم أشبه ؟ !.. وكان تأثير العدس والحلاوة .. تأثير مخدر لا يقل عن أقوى حقن البنج .

وبعد هذا .. بعد اليقظة المبكرة .. والجهد الشاق في الطابور وقبل الطابور . وبعد أكلة البنج إياه .. ندخل الفصول لنستقر - بأجسادنا المرهقة ومعداتنا الممتلئة على مقاعد التخت .. وننصت الى ماذا ؟ .. الى مبادىء الحرب .. أو معركة واترلو .. ؟.

ولا نكاد نستقر على مقاعدنا .. ولا يكاد المدرس يفتح فاه .. حتى تبدأ المعركة .. معركة واترلو من فم المدرس .. ومعركة النوم فى اعيننا .

وأجلس على المقعد رافعا رأسي مبرزا صدري .. وبي ما يسمونه « حلاوة الروح » الباقية من أثر الطابور .. ثم أحس نعمة الاستقرار وراحة الجسد المنهك يهدأ أخيرا فوق المقعد . وأترك عضلاتي المشدودة تسترخي رويدا رويدا .. ثم أرقب المدرس - من ناحية الشكل طبعا - لأني اعتقد أن مراقبته من ناحية الموضوع أمر لا يستدعي استعجالا .. ويزداد بي أحساس الراحة وازداد استرخاء .. والمدرس منطلق فى الحديث .. ثم احس بتثاقل جفني .. ولا أكاد أترك نفسي تستسلم لموجة الراحة التى غمرتها حتى أتنبه الى مدى خطورة ما أوشك أن أقع فيه .. وأدرك أني على وشك أن أرتكب جريمة النوم فى الحصة .. وهي لا شك، جريمة كبرى من رجل عسكري .. يجب أن يظل طوال الحصة مصلوب الجسد بارز الصدر مرفوع الرأس .

وانفض النوم من عيني وأهز رأسي وأحاول أن أركز نظري في شفتي المدرس وذهني في الكلمات المتطايرة من شفتيه .. وأصيب منها رشاشا عن دوق ولنجتون وكاتريرا وأشياء من هذا القبيل لا أجد لها معنى ولا أفهم بينها ارتباطا ثم أحس نوبة الراحة تعاودني وبالمدرس يطول .. وبشفتيه تنفرجان ثم إذا بي أجده قد أضحى شبيها بخادم كان لدينا يسمى أحمد المهدى وأتوهمه

يقبل على فى بشاشة وترحاب ثم فجأة أحس بكوع فى جانبى فأرفع رأسى المنثنى فوق صدرى وأحملق بعينى بشدة حتى أرى كل من حولى اننى فى اشد حالات اليقظة .

وأسمع جارى يهمس بى « الراجل بيبص لك » .

ومرة أخرى تبدأ المعركة .. وأضع نفسى من باب الاحتراس خلف ساتر من ظهر أحد الجالسين أمامى وأظل أتحرك يمنة ويسرة أضعه فى الخط الموصل بينى وبين المدرس .. ويهجم النوم .. ويتحرك الساتر .. فاذا بى صريع النوم .. وفى العراء .. بلا ساتر .. واذا بالطابور الزيادة يرف على رأسى من فم المدرس .. كما يقول أبناء البلد « زى الحلاوة » .

وهكذا كنا نقضى نصف الحصة بين صرعى واترلو ، والنصف الآخر .. بين صرعى العدس والحلاوة الطحينية .

كانت المعركة عامة بيننا وبين النوم .. وكان النوم يخرج منها فى كل حصة منتصرا .. تاركا خلفه ما لا يقل عن عشرة ضحايا .. من ضحايا الطابور الزيادة .. الذى أوقعه بهم المدرس لنومهم فى الدرس .

اثنان من كل الدفعة هما اللذان أفلتا من الجزاء : أولهما .. جمال صبرى .. الذى لم يستطع النوم أن يصرعه .. لانه كان مصابا بالأرق .. لوقوعه فى الحب .

والثانى .. وهو .. أحمد فؤاد .. كان ينجو من الجزاء .. لا لأن النوم لم يستطع صرعه - فقد كان دائم النوم .. رغم أنه أول الدفعة .. ورغم أنه كان دائم النوم الحصصى .. أو على الأصح .. كان فنانا .

كان أحمد يبدأ النوم فى أول الحصة .. فلا يستيقظ الا فى آخرها .. كان ينام بعد « ثابت » الأولى التى يقولها حكمدار الفرقة عند دخول المدرس .. وكان لا يستيقظ الا بعد « ثابت » الثانية التى يشيع بها حكمدار الفرقة المدرس عند خروجه .. لا أنكر - بلا تشنيع - ان أحمد سهر حصة واحدة .. وكان يجلس فى الصف الأول .. بلا ساتر يستره ومع ذلك لم يأخذ جزاء واحدا .

عجيبة .! !

أجل .. هى عجيبة فعلا .. على اى انسان .. ولكن ليس على أحمد .. كان أحمد يجلس على التختة وأمامه ورق ومذكرات مطبوعة أو ورق أبيض وكان يتكىء بمرفقه على الدرج ويسند جبينه على كفه اليسرى مفتوحة ومائلة على وجهه وحاجبيه وعينيه ثم يمسك القلم بيمينه ويضع سنه على الورق كأنه يكتب .

ويجلس أحمد طول الحصة على هذا الوضع والناظر اليه يجزم بأنه منهمك فى أخذ مذكرات أو كتابة ملخصات لما يقوله المدرس .. بينما يكون أحمد مستغرقا فى نوم العوافى .

ويعلم الله أنى حاولت أن أقلده وأنى أمسكت القلم وأسندت رأسى بالطريقة التى يفعلها .. ولكنى لم أستغرق فى النوم حتى أفلت القلم من يدى وانزلق على الورق .. ثم سقطت رأسى من كفى .. وكانت فضيحة .. علمت بعدها أن « ولا كل من ركب الحصان خيال » .

وهكذا ظللنا فى مصارعة النوم .. ونحن نسترقه فى الحصص خلسة .. حتى منّ الله علينا بفرصة كبرى .. أصبحنا نتعاطى النوم فيها .. علنا .. بلا خوف ولا خشية .. فى وضح النهار .. وفى الحصة .. وأمام المدرس .

كيف ؟ !

مسألة بسيطة .. لقد بدأ مدرس التاريخ يشرح المعارك بالأفلام السينمائية وبالفانوس السحرى . ومعنى الشرح بالسينما والفانوس السحرى .. أن الحصة تمر ونحن نرقع فى بحبوحة من الظلام .. والظلام كما يقولون سترة .. وتحت جنحه يرتكب الانسان كل ما لا يجرؤ على ارتكابه فى النور ووجدنا الفرصة العجيبة قد سنحت .. وجلسنا نتحفز .. ولم يكد النور يطفأ والفيلم يبدأ .. « بالتقهقر من مونز » حتى سقطنا جميعا .. صرعى النوم .

وهكذا استمرت الأفلام تعرض فى الحصص .. ونحن متمتعون بالنوم الهادىء الذى لا يقطعه خوف ولا يقلقه خشية .. نغمض أعيننا مع انطفاء

النور .. ونفتحها مع اضاءته .. والمتقهقرون من مونز مستمرون فى تقهقرهم .

وحسب قانون القدر .. الذى لا يهب الانسان نعمة الا استردها نقمة .. فوجئنا ذات حصة بما هتك سترنا وكشف أمرنا :

فى احدى الحصص .. والعرض على أشده .. والمتقهقرون من مونز ممعنون فى تقهقرهم .. والمتفرجون على المتقهقرين من مونز ممعنون فى شخيرهم .. اذا بالفيلم يقطع .. واذا بالنور يضاء .. واذا بالمدرس المنهمك فى الشرح يكتشف أنه يشرح لثلاثين نياما . وهكذا ضبطنا .. جميعا بلا استثناء .. حتى المصابين بالأرق ونحن متلبسون بجريمة النوم العلنى مع سبق الاصرار .. ووجد المدرس أن من العبث أن يوقع أى جزاء فقد كانت المسألة فى نظره أفجع وأروع من أن يحسمها هو .. فانطلق من الحصة يدعو كبير المعلمين حتى يتولى هو بنفسه أمر العصاة الجناة .

وأقبل كبير المعلمين .. وكنا قد استيقظنا . وجلسنا نرتجف من الذعر . ونظر الينا الرجل ثم هز رأسه هزات مختنقة وجلس فى تؤدة وأمر المدرس باستمرار العرض حتى يكشف هو بنفسه أمر النيام .

وأطفىء النور .. وكنت فى حالة من الذعر تجعلنى قطعا لا استطيع النوم حتى لو أردته . لقد كنت أخاف الباشجاويش التعلمجى فما بالكم بكبير المعلمين نفسه .

وجلست فى الظلمة وأنا أحملق لأول مرة فى المتقهقرين من مونز وأخذت أنقل البصر فيمن حولى داعيا الله أن يبعث فيهم اليقظة وأن يبعد عنهم النوم .

ورويدا رويدا تبددت من نفسى حالة الذعر وأيقنت أننا بلا شك نستطيع أن نجتاز التجربة بنجاح . وأننا سنثبت للرجل أن فى السويداء يقظى .

مخلوق واحد هو الذى كنت اخشى عليه .. وذلك هو أحمد فؤاد أخصائى النوم فى الحصص .. انه قطعا لن يتحمل اليقظة .. ويداهمه النوم فيستسلم له

كما هى عادته .. ولن يفيده فنه فى التنكر والتستر إذ ليس هناك ما يستدعى قط أن يمسك قلما ولا أن يدعى الكتابة وهو فى الظلام .

مسكين أحمد .. يارب أبعد عنه النوم .. يارب صحيه .. ينتابنى قبيل النوم .. فانتفضت فى مكانى .. وظللت أفكر فى كل الأمور المزعجة التى تبعثنى على الاستيقاظ .. وبين آونة وأخرى أدعو .. يارب أيقظ أحمد .. يارب أبعد عنا النوم .

وأخيرا فتح النور .. وكان أول من صوبت اليه نظرى هو أحمد فؤاد .. الحمد لله .. لقد كان فى تمام اليقظة .. برافو احمد .. وظللت اتنقل ببصرى بين الاخوان فإذا كلهم يقظون .

فرد واحد هو الذى لم يحتمل التجربة وصرعه النوم فاستغرق فى سبات عميق وهو .. كبير المعلمين .

كاريكا

عندما أذكر بداية عهدنا بركوب الخيل فى الكلية الحربية أجدنى شديد الشبه بصاحب السلطان رغم أنى كنت بلا حول ولا طول ولا قوة ولا سلطان ..

يبدأ الأمر بنا بعد أن استلمنا بنطلونات الركوب ذات السيقان المنتفخة والمظهر الانيق ، وقد ارتديناها حتى يضبطها علينا الترزى أو بتعبير العسكرية « يقيفها » علينا . ووقفنا نتطلع الى المرآة المستطيلة الملصقة بحائط عنبر النوم . وقد داخلنا احساس لأول مرة فى الكلية – بعد طول تواضع وبهدلة – بأننا أصبحنا من ذوى الشأن وأن هذه هى أول تباشير الأرستقراطية .

والواقع أن منظر البنطلون كان وجيها فعلا لضيقه عند الخصر واتساعه فوق الركبتين والقالشين الملتف بأناقة وانتظام حول الساق « لفة مقلوبة غير لفة المشاة » وقد أعطاها امتلاء عند السمانة وضيقا عند الركبة . كل هذا خلع علينا بعض الوجاهة التى افتقدناها فى البنطلون الترواكار الهابط الى ما بعد الركبة ، وجزمة الألعاب والشراب الصوف البنى والسيقان العجفاء العارية .. وغيره من مسببات البهدلة وقلة القيمة ، واحسست وأنا أنظر الى المرآة باسترداد بعض الثقة الضائعة فى مظهرى .. وقلت لنفسى .. وما بقى .. أعظم .

وما أظننا كنا مبالغين فى تلك الفخامة التى خلعناها على أنفسنا ونحن نتصور أنفسنا ركوبا على جياد .. أو باختصار .. فرسانا .. فالفروسية قرينة

الفخامة والارستقراطية والوجاهة والأبهة .. وما أظن هناك أشد مهابة من راكب ظهر الحصان اللهم الا صاحب ابن المقفع راكب ظهر الاسد .. وهو ما لم نكن نتطلع اليه أبدا .. لأن ركوب الأسود لم يكن وقتذاك ضمن برنامج الكلية .. ولله الحمد .

وما أظن صورة الفارس تقترن الا بكل ما هو جميل جليل .. فاذا وقف الطالب منا وقتذاك وقد نظر الى نفسه فى المرآة وهو يرتدى بنطلون الركوب لأول مرة في حياته .. ووثق أن الشيء المحتم بعد ارتدائه بنطلون الركوب .. هو أن يركب فعلا .. ويصبح بذلك فارسا .. فهو معذور جدا اذا اندفع به الذهن .. فصور له نفسه عنترة فى حومة الوغى جائل صائل مكر مفر .. هتاف بقول الشاعر :

حصانى كان طلاع المنايا فخاض غمارها وشرى وباعا

أو صور له نفسه من رعاة البقر الأمريكان يندفع بالحبل ذى الخية ودستة المسدسات في منطقته .. أو من فرسان الهنود ينطلق صارخا مولولا مثيرا الفزع والهول .. أو بالقليل جدا - مع التواضع الشديد - فارس مصرى يتهادى بحصانه بجوار منزل حبيبته .. المطلة من الشباك .. ليختطفها وينطلق بها .. الى جنينة النزهة .. أو الاسماك .

ولقد كنت أنا من النوع المتواضع الأخير .. فلم تكد صورتى تلوح لى في المرآة ببنطلون الركوب .. ولم أكد اتصور نفسى قفزت على الحصان وأصبحت فارسا .. حتى وجدتنى أطير .. الى شارع روض الفرج .. فاستقر أسفل شباك ماريكا .. ابنة صاحب الفرن الأفرنجى .. ولست أريد من المستمعين سخرية .. حقيقة ان اسمها ماريكا .. وحقيقة ان أباها صاحب فرن أفرنجى .. وحقيقة أننا لم نرها الا تلعب الحجلة أو تقضم السميط .. ولكن كل هذا لا يمنع من أن تكون قطعة فنية رائعة فى الثالثة عشرة .. ذهبية الشعر ، خوخية اللون والملمس .. والمذاق .. وكان التنافس عليها بين صبية روض الفرج وشبرا الثانوية على أشده .. ورغم أنها منحتنى بضع ابتسامات ورغم صداقتى لأبيها نتيجة مواظبتى على شراء البقسماط والقراقيش من مخبزه فلم

أكن أحس أني في حومة غرامها بالفارس المجلي ..

وكانت دوامة الكلية وشقاؤها وجهدها .. قد انستني حتى نفسي .. ومن اكون وماذا أفعل .. وبالتالي انستني ماضي .. بما فيه ماريكا .. وغير ماريكا .. ولم يكن ما أنا فيه من بهدلة وقلة قيمة ليسمح لي بالتفكير في أي نوع من المغامرات والغراميات .. ولكن ذلك لا يمنع من أن المشاعر القديمة كانت كائنة كامنة .. ولذلك لم أكن أنظر الى منظري ببنطلون الركوب .. وأتخيل نفسي فارسا حتى وجدت أن خير ما أفعل .. بدل المعامع .. والمواقع .. ومغامرات رعاة البقر وولولة الهنود .. أن أكفي خيري شري .. وأن أتجه رأسا الى الآنسة ماريكا .. المطلة من الشباك .

ومضت بضعة أيام قبل أن يحل موعد طابور الركوب .. ولم يكن لنا قبل ذلك حديث سواه .. أو تفكير – ان كانت هناك فرصة للتفكير – في غيره .. ولم يخل الأمر من أن يكون بيننا بعض أصحاب السوابق في الركوب .. سواء في عزبة آبائهم .. وفي الهرم .. أو في رحلات متشابهة .. فصالوا بيننا في الحديث عن الركوب وجالوا .. وحدثونا عن متعة الركوب وانطلقوا يصفون لنا بعض مغامراتهم فزادونا شوقا وملأونا رغبة .

وأخيرا .. حل موعد الطابور ، وهبطنا من العنابر وسرنا لأول مرة من دخولنا الدوامة .. في طرب ونشوة .. وبنطلونات الركوب ذات القماش السميك المضلع ملتصقة بأجسادنا ، مكوية نظيفة جديدة .. وأحزمة الوسط « القوايش » العريضة البيضاء تشد البنطلونات الى خصورها .. ونحن نشف ونرف .. أو كما يقول المثل – الذى لا أفهم معناه حتى لا يسألني عنه أحد – : « على سنجة عشرة » .

لم يكن ينقصنا سوى شيئين حتى تتم بهما القيافة .. ويكمل بهما منظر الفارس .. أولهما المهماز .. وثانيهما العصا .. وهما ما كنا نبصر بهما الطلبة القدامى .. وبما أننا لم نزل بعد حديثي عهد الفروسية فقد حرم علينا المهماز والعصا اللذان لا يصرفان الا للأكفاء القديرين .. حتى لا يساء استعمالهما .

ما علينا .. بناقص المهماز والعصا .. .. عن نفسي أنا .. وفي قرارة

ذهنى .. ما كنت اظن ماريكا - وهى محور المسألة كلها - تهتم كثيرا بمسألة المهماز والعصا ، بل لا أظن أنها سمعت عنهما من قبل ولا عرفت أنهما من لوازم الفارس الكفء .

واصطففنا فى ارض الطابور . وكانت الساعة السادسة والنصف وأجرى الضابط النوبتجى التفتيش علينا ثم أمر حكمدارنا بأن يحرك الطابور الى السوارى وأن يحافظ على النظام والضبط والربط .

وكان حكمدار فرقتنا الأصلى هو على حلمى .. وقد كان يبدو رجلا وقورا ، متزنا متئدا وهو باق فى السنة الأولى من العام السابق . وكان الذى يليه فى الأقدمية هو عبد العزيز الجمل وهو الآخر باق من العام السابق ولكنه وصاحبه على طرفى نقيض .. كان عبد العزيز عصبيا متسرعا سريع الغضب ، وكنت أعرف أن لديه فى دولاب ملابسه - دونا عن بقية الطلبة - بدلة ملكى لا يكاد أحد من الصف ضباط يثيره أو يغضبه حتى يعدو الى الدولاب فيرتديها ويطلب الاستقالة . فلا نزال به نهدئه حتى يعدل عنها .

وكنا كثيرا ما نتسلى فى الفترات بين الحصص أو فى حصص المذاكرة بتهييج الجمل واثارة حنقه ولكى يثار منا كان يستحلف على حلمى بالخروج من الفصل حتى ترسى عليه الحكمدارية ثم يبدأ فى الامارة علينا والتنكيل بنا .

وفى هذا اليوم كان على حلمى متغيبا ، وكان عبد العزيز متوليا حكمدارية الطابور .. وبدا لنا من حركاته واضطرابه أنها المرة الأولى التى يتولى حكمدارية طابور متحرك ..وبدأ ينادى علينا بصوته الرفيع « أربعات تشكيل .. يمين »

وزادت بنا النشوة .. والجمل يقودنا .. وهو يحاول السيطرة على أعصابه واخفاء اضطرابه .. ونحن نحاول أخفاء ضحكنا عليه .. فقد كنا ما زلنا نسير فى رحاب الكلية وكنا نخشى ان يبصرنا ضابط أو صف ضابط فيوقع علينا الجزاء .

وجاوزنا باب الكلية الخلفى المؤدى الى السوارى .. ونحن نحاول

التمالك .. حتى بدأنا نعبر باب السجن الحربى الكائن خلف الكلية .. واذا بنا نفاجأ بالقرقول يخرج لنا تحت السلاح باعتبارنا طابورا متجمعا . وضرب الجمل لخمة .. وهو يرى حارس السجن يصرخ بأعلى صوته : « قرقول سلاح » .. ويبصر القرقول يصطف لتحيتنا ويؤدى لنا سلام سلاح .

ولم يكن قطعا ما يدعو لهذه اللخمة .. فقد كان على الجمل أن ينادى علينا ببساطة : لليمين أنظر .. ردا لتحية القرقول .. ولكن اضطرابه الأصلى من مجرد توليه حكمدارية طابور متحرك لأول مرة .. ومفاجأته بصيحة الحارس وخروج القرقول تركته مذهولا لا يعرف ماذا يفعل .. وأخذنا نهمس به أن يرد التحية .. فلما فتح الله عليه .. نادى « للشمال أنظر » أى ننظر فى الاتجاه المضاد للقرقول .. أى نشيح بوجهنا عنه .. وصحنا به أن يعدل ندائه .. ولكن كانت قد أصابته نوبة « للشمال انظر » فلم يعدل عنها الا ونحن قد جاوزنا القرقول .

وقد تكون المسألة زلة لسان لا تدعو لأى ضحك . ولكن لست أدرى أى عاصفة من الضحك تملكتنا وقتذاك ، ولا سيما بعد أن ابتعدنا عن السجن وخرجنا الى العراء ولم يعد هناك لأحد أية رقابة علينا ..

وهكذا أخذنا حريتنا ، حتى اقتربنا أخيرا من خانات السوارى .. فانتظمنا وأخذنا نستعد لأعمال الفروسية الباهرة التى نوشك أن نأتى بها .

ونظرنا حولنا .. فاذا بالخيل الموجودة كلها .. لا تعدو واحدا .. يانهار أسود .. حصان واحد !! وأحسسنا بفجيعة كبرى .. ماذا ترانا سنفعل بهذا الحصان الفرد الأحد .. نركبه جميعا مرة واحدة .. أم نتبادل عليه الواحد بعد الآخر .. آخذين لكل واحد لفة .. كما نفعل بالبسكليت .

واصطففنا أمام الحصان الوحيد وبأنفسنا لهفة على ما نوشك أن يفعل بنا ونفعل به ، وبعد أن حيا حكمدارنا ضابط السوارى وأنبأناه أن الفرقة تمام أمره بأن نقف « صفا » - وهى وقفة أكثر راحة - ثم بدأ يفسر لنا ما خفى من أمره .. وأمر الحصان الوحيد .

وأحسسنا بخيبة أمل كبرى عندما اتضح لنا أن جلائل أعمال الفروسية التى كنا نمنى النفس بها قد تضاءلت وانكمشت و « صفصفت » على محاضرة فى اجزاء الحصان .

أى والله .. لقد أخذ التعلمجى الصف ضابط .. ينبئنا لا فض فوه .. بأن هذا هو ذيل الحصان .. وأن هذه ساق الحصان .. وأن تلك عنق الحصان .. وأذن الحصان .. ورأس الحصان .. وأخيرا وبعد كل هذا أنبأنا بما لم نحط به علما ، ولوح بيديه حول الحصان .. قائلا : « وده كله اسمه الحصان » .

وانتهى الطابور أخيرا .. وعدنا الى الكلية - كما يقولون - بخيبة رجانا .. بعد أن فسر المعلم الماء بعد الجهد بالماء .. وبعد أن علمنا أن الحصان الذى رأيناه .. هو حصان .. وليس كما قد يخطر ببالنا أسدا .. أو تمساحا .. أو وطواطا .

وصبرنا وأخلق بذى الصبر أن يرى فرجا .. وأتانا الفرج بعد بضعة أيام فى الطابور الثانى .. وتحرك موكبنا للمرة الثانية فى الصباح المبكر الى خانات السوارى .. وكان الوقت قبل الشتاء .. والشمس فى مشرقها لم تتجاوز الأفق .. وموجات الضباب تتوافد علينا متثاقلة تارة ، متطايرة أخرى .

ونادى الحكمدار بنا « قف » فتقارعت الكعوب فى ضربة واحدة كأنها وقفة رجل واحد ، ولاحت الخيل في الأفق تتهادى كالقافلة يركب عساكر الفرسان بعضها ويسحبون البعض الآخر ، حتى وقفت على مقربة منا .

وتفرقنا من الطابور وأمرنا بأن يتسلم كل منا حصانا .. وقسمنا الى جماعات ، كل جماعة فى خانة .. ولكل خانة معلم صف ضابط .. ويشرف على الخانات كلها .. اليوزباشى الركبدار .. أو معلم فن الركوب .

ووقفنا بجانب الحصان .. ومر الوقت بنا ثقيلا .. والتعلمجى يعلمنا كيف نقف بجانب الحصان .. وكيف نقف أمام الحصان .. ثم .. كيف نركب الحصان وكيف ننزل عن الحصان .. وأخيرا كيف يكون « قيام العسكرى السوارى الراكب » .

فقط .. شيء واحد .. أريد أن أفعله .. وهو أن أعدو بالحصان .. أن أنطلق .. أن أطير ..

ويح التعلمجي المكسال .. ما له يصر على أن نتهادى تهادى النعاج والحمير .. نحن نركب خيلا .. جيادا .. والجياد لا بد أن تنطلق ..

ونظر أحدنا الى الضابط فإذا به قد تباعد عنا قليلا الى إحدى الخانات الأخرى .. وانتهزنا فرصة .. وهتف بالتعلمجي راجيا .. « عيزين نجرى شوية يا أومباشى » .

ولم يكذب المعلم له رجاء .. ووجدته ينادى بصوته الجهورى : « الغار » ولم أكن أعرف ما معنى الغار .. ولا ماذا قصد بكلمته .. ولكن الخيل كانت أعلم بها منا .. إذ لم تكد الكلمة تنطلق من شفتيه .. حتى وجدنا الخيل تنطلق بنا خببا .. وإذا بنا نؤخذ على غرة .. فنتأرجح ونهتز ونتمايل يمنة ويسرة .. ولا نكاد نحفظ توازننا .. فنطبق بأيدينا على مقدمة السرج .. وإذا بالتعلمجي يصيح بنا ناهرا .. كأننا قد اتينا أمرا ادا .. وفعلا نكرا .. « سيب يا فندى القربوص منك له » .

وتركنا القربوص .. وأخذ .. وهو يكرر .. قيام العسكرى السوارى الراكب .. ونحن فى واد .. والعسكرى السوارى فى واد .

وهكذا فى غمضة عين .. وجدت نفسى كصاحب السلطان .. وراكب ظهر الاسد .. بل شر منهما كثيرا .. فقد كنت .. هيابا لمركبى .. دون أن يكون لى – ما أظن – أى هيبة فى عين ناظرى .

ومن أين لى الهيبة والطربوش فقد زاويته التى استقر عليها وانزلق على مؤخر الرأس واستقر على الأذنين ، والجسد ، قد زلزلت الأرض تحته زلزالها ولم يعد له قرار فهو أشبه بالمستقر على ياى لا يكاد يهبط عليه حتى يرفعه .

وأخيرا لمحنا اليوزباشى الركبدار ، ورأى الزلزال الذى اثاره التعلمجي أسفلنا هو وأصحابه الخيل .. بمسألة الغار .. والظاهر أنه قد رأى – والحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه – أن تلك منة لا نستحقها بعد .. فصاح

بالتعلمجى ناهرا « معتادا » .. وكرر المعلم كلمته .. آمرا – الخيل طبعا (لأننا فى الواقع كنا تماما كصاحب السلطان لا نملك من أمرنا شيئا » بأن تسير بالخطوة المعتادة .. ورضخت الخيل للنداء وسارت الهوينا .. وانتهى الزلزال وانتهى الطابور .

وكانت التجربة قصيرة .. تماما كالزلزال القصير الذى لا يخلف وراءه دمارا ولا خرابا .. ونزلنا من فوق ظهور الخيل .. ولسان حالنا يقول :

أنل قدمى ظهر الأرض انى رأيت الأرض أثبت منك ظهرا

وعندما استقر بنا الحال على الأرض وعاودنا الاطمئنان .. واحسسنا بالاستقرار .. وتحسس كل منا جسده فوجده سليما .. بدأ الغرور يتسلل الى رؤوسنا .. وعادت أحلام الفروسية تداعب نفوسنا .. وأخذنا خلال العودة الى الكلية نتندر بما فعلناه فى الطابور ..

وحل موعد الطابور الثالث .. وذهبنا ونفوسنا تتأرجح بين الرغبة فى الفروسية والقلق من مسألة الغار ، ولكنه كان قلقا خفيفا ، فقد كانت التجربة كما قلت قصيرة .

ولم يضيع التعلمجى وقتا فى « أمام الحصان ، و « جنب الحصان » .

وسرعان ما أمرنا بالركوب .. واستقر كل منا على ظهر حصان .. وسرنا الهوينا وهو يذكرنا بقيام العسكرى السوارى الراكب .. وطبقنا كلامه وأبرزنا الصدور ورفعنا الرؤوس .

واندفعت الخيل تتوثب وتهتز .. ونسينا من جانبنا كل ما وعيناه من قيام العسكرى السوارى الراكب .. ولم نعد نذكر الا محاولة الاستقرار على ظهر هذا الزلزال المتحرك ..

ولم تكن الخيل كلها سواسية .. ولم يكن مسيرها « الغار » متشابها بل كان هناك على حد تعبيرنا خيل ذات « غار ناشف » و « غار طرى » أى خيل شديدة الرجرجة ترفع راكبها الى السماء وتهبط به الى اسفل سافلين ، وخيل ناعمة السير هادئة الرجرجة خفيفة النط .

وكان الجواد غير الكريم الذى تشرفت بامتطائه من النوع الأول وكنت فوقه أشبه « باليويو »

ولم تكن التجربة هذه المرة بالسهولة السابقة ، بل كانت أطول عمرا وأكبر أثرا .. وهبطنا من فوق ظهور الخيل .. وقد فقدنا كل أثر من آثار الهيبة .. وقد اختلط عرقنا بالتراب الذى أثارته سنابك الخيل . وكبست فى رؤسنا الطرابيش الذى أحال التراب حمرتها الى بياض .. ووقفنا على أقدام كليلة متعبة .. ولم تجسر أحلام الفروسية أن تقترب من أذهاننا .. بل عدنا الى المدرسة .. وبنا الكثير من التعب والأعباء .

واستمرت الطوابير على هذا المنوال .. وزادت علينا مسألة جديدة .. وهى رفع الركاب .. وهو الحديد الذى نضع فيه أقدامنا فيهبنا بعض القدرة على الثبات ويمنحنا بعض التوازن والاستقرار .

كان لا يكاد الطابور يبدأ حتى ينادى المعلم نداءه المروع .. « خانه صفا .. شيل الركاب .. الغار .. » .

وننفذ نحن الجزء الأول من النداء وتنفذ الخيل الجزء الثانى .. وتبدأ المعركة بيننا وبين الاستقرار ، ونظل ندور ونلف كأننا فى ساقية .. حتى نضحى فى حالة .. يصبح بعدها السقوط .. غاية المنى .. فهى على الأقل سقطة .. بعدها الراحة .. ولقد حاولها أحدنا فعلا . فغافل التعلمجى وقذف بنفسه من فوق الحصان وانتظر أن يعدو الحصان هاربا .. ويمر الطابور وهو واقف على قدميه .. ولكن الحصان الوقح لم يهرب ولم يفر ، بل ظل واقفا وقفة الوفاء والاخلاص لراكبه .. وراكبه يدفعه عنه راجيا « اجرى الله لا يسيئك .. فارقنى ياسيدنا » حتى لمحه التعلمجى فصاح به « اركب » .

وأوقعنى الحظ مرة بعد أخرى فى نفس الجواد غير الكريم ذى الغار الناشف ، وظللت أهتز فوقه وأنا رافع ركابى المرة بعد المرة حتى جرحت ركبتى .

وازداد الجرح مرة بعد بعد مرة .. وأنا لا أجرؤ على الذهاب الى المستشفى فقد كان تقديم العيادة فى نظرنا جرما لا يقدم عليه الا الكسالى

والبلطجية . حتى أضحى الجرح لا يمكن السكوت عليه ..

وذهبت الى المستشفى ووقفت فى طابور الطلبة المنتظرين العرض على الطبيب ، وحل دورى ووقفت أمام الطبيب المنهمك فى الكتابة فى ارانيك العيادة .. ودون أن يرفع ببصره سأل :

- ها .. وأنت ؟ .. عندك ايه .

- ركبتى .

- مالها ؟ .

- متعورة .

- من ايه ؟ .

- من الركوب .

ودون أن ينظر الى ايضا التفت الى التومرجى الواقف بجواره وقال ببساطة :

- جبيرة .. اللى بعده .

ولم أغادر مكانى ولم أترك « اللى بعدى » يتقدم اليه .. ويرفع الطبيب بصره الى وجهى لأول مرة متسائلا :

- ايه .. فيه حاجة .

وتلعثمت وقلت أحاول أن أشرح له المسألة .. فقد اعتبرت أن وضع الجبيرة على الجرح سيؤلمنى أشد الألم .. والمسألة بعد كل هذا لا تحتاج الى جبيرة .

قلت متلعثما :

- بس ركبتى ما تستحملش الجبيرة .

وقبل أن أتم حديثى نظر الدكتور الى التومرجى وقال بنفس البساطة :

- طيب حطها له فى ركبته الثانية .

وقبل أن أنبس ببنت شفة جذبنى التومرجى من أمامه مجيبا « حاضر

يا أفندم » .. وهكذا استلقيت فى فراش المستشفى وبركبتى السليمة جبيرة .. وركبتى المجروحة كما هى ..

ورفعت بصرى الى سقف المستشفى .. وعاودتنى احلام الفروسية وتذكرت ماريكا .. وهى تحجل وتقضم السميط .. فأغمضت عينى فى يأس واستبلام .

غراب على شجرة

من النكت التى تروى عن الحرب الماضية أن أحد العساكر الانجليز كان يترنح مخمورا ذات ليلة فى إحدى حوارى القاهرة فالتقى برجل ضرير يتلمس طريقه متوكئا على عصاه فصاح به فى صوته المخمور بتلك الجملة الشهيرة التى كانت لا تفتأ تتناقلها السنة الجنود وقتذاك « شفتى بنت » . وانزعج الضرير من صيحة العسكرى ، وما لبث أن دفعه جانبا وهو يجيبه متبرما « يا أخى أبعد عنى .. أنا شايف السكة .. لما حا شفلك بنت » .

ويذكرنى قول الضرير للعسكرى بقولى ذات يوم لمحمد محمود عبد العزيز وقد خرجنا فى طابور الطبوغرافيا وامتطينا الدراجات الخضراء وسرنا أزواجا نخترق شوارع كوبرى القبة وقد سار هو بجوارى وهمس الى وهو يسترق النظر الى أعلى « شايف البت دى .. هايلة » .

ولم أكن زاهدا ولا قصير النظر ولا ضريرا .. وكان الأمر الطبيعى الواجب حدوثه ... هو أن أرفع بصرى بسرعة وبحركة لا ارادية لأُمتع البصر بنظرة خاطفة من البنت الهائلة التى لفتت نظر صاحبى . ولا سيما أن قائد الطابور ومدرس الطبوغرافيا اليوزباشى حافظ موافى كان « نافشا » كالأسد أمام الطابور كأنه يقود اقتحاما بالفرسان غير ملق الينا كثير من التفات ونحن نتهادى فى المؤخرة .

كانت كل الظروف توجب على أن اختطف من البنت الهائلة نظرة ولكنى مع ذلك . لم أزد على أن اقول لصاحبى ما قال الضرير للعسكرى الانجليزى

« يا أخى ابعد عنى .. أنا شايف السكة .. لما حا شوف البنت » .

ويبدو أن الأمر يحتاج الى شىء من الشرح والتفصيل .

سبق أن قلت أن والدتى كانت تجد فى ثلاثة ارباع الاعمال التى يباشرها الصبية .. ونباشرها نحن - أنا وأخوتى - بالتبعية .. خطورة على حياتنا .. وكانت لا تكاد تطمئن على حياتنا الا ونحن جلوس امام المكتب أو نيام فى الفراش .

كان لعب الكرة والتجديف والسباحة وعبور الطريق وركوب الترام .. و .. من المهالك والأخطار التى يجب علينا تجنبها . بل أنى لأذكر ونحن نقطن فى جنينة ناميش فى أحد المنازل المطلة على شارع الخليج وسكة حديد حلوان أن فوجئنا بها - أى والدتى - تدخل علينا مندفعة من الشرفة المطلة على الشارع وهى تصرخ وتولول كأن كارثة قد حلت ، وصحنا بها نستفسرها فى ذعر عن الخبر فأنبأتنا وهى تكاد تخر مغشيا عليها أنها أبصرت أخى أحمد واقفا على كوبرى المنيرة (الذى يعبر سلمه السكة الحديد بين المنيرة وجنينة ناميش) وحاولنا تهدئتها فصرخت بنا أن نحضره حالا قبل أن يسقط من سور الكوبرى فى حملة انقاذ .. وأنا أتخيل أحمد قد شاور عقله وتسلل من بين قضبان الكوبرى ثم هوى على الأشرطة وفلقت دماغه . ثم اقبل القطار فأكمل على بقيته .. وأعدو .. منطلقا .. وأنا أسابق الريح .

وأخيرا .. وصلنا الى الكوبرى .. ولكن .. فيما يبدو لنا .. متأخرين .. إذ لم يكن أحمد فوق الكوبرى ..

وببطء وسكون .. وذهول .. نظرنا .. الى أسفل .. ثم نظرنا الى بعضنا البعض فى دهشة ..

.. اننا لم نجد له أثرا !!

ولم نعرف كيف نعود لوالدتنا .. بغير احمد .. او حتى .. جثته ..

وظللنا مشدوهين على الكوبرى .. لا نستطيع حراكا .. حتى حانت منا

التفافة الى شرفة البيت من بعيد .. فوجدنا بها الوالدة حزينة .. ومعها .. أحمد !!

وعدنا الى البيت لنعلم أنه كان يلعب فى المنور .. وأن الذى ابصرته والدتى طفل يشبهه .

وبعد هذه الوسوسة والخوف .. نشأنا ونحن نمارس لهو الصبية خلسة كأننا نرتكب المعصيات .. أو نفعل المنكر .. وكانت المعصية الكبرى .. والمنكر الأشد .. هو ركوب البسكليت .

وقد أقدم عليه أخى الأكبر .. فى غفلة من والدتى .. وأصبح بين عشية وضحاها من راكبى العجل . وحاولت أن اتبعه فى ارتكاب المعصية وتعلم العجل .. ولكن أمرى كشف .. أن اصبت بسقطة تركت فى وجهى وذراعى خدوشا من الصعب اخفاؤها .. وحاولت أن اتبعه فى ارتكاب المعصية وتعلم العجل .. ولكنى أمرى كشف .. إذ اصبت بسقطة تركت فى وجهى وذراعى خدوشا من الصعب اخفاؤها .. وحاولت أن أغير أسباب الخدوش ولكن أحد الاقرباء كان قد تصادف ورآنى متلبسا بالجريمة . فأبلغ والدتى بالأمر .. وأصبح الانكار بعد الدليلين القاطعين .. أمرا متعذرا .

وركوب العجل عند والدتى .. يعنى إشرافا على الهلاك .. وأحدث النبأ فى البيت ضجة كبرى .. فقد كان الحدث .. منى أنا .. الصبى الطيب الهادىء المطيع .. شديد الوقع .

وكرهت العجل وركوب العجل .. بعد السقطة فى الطريق .. والفضيحة فى الدار .. وأنا بطبعى أكره العنف وما يستدعى العنف وما ينتج عن العنف . وأكره أن أتعب نفسى فيما يمكن أن أكون فى غنى عنه .. وأن أشغلها بما لا فائدة لها منه .. وهكذا انتهت المسألة بأن أقنعت نفسى بالكف عن تعلم العجل .. وأن فى العجل الندامة وفى القدم السلامة .. وقنعت من ركوب البسكليت بسلامة الجسد ورضاء الوالدين وقلت لنفسى .. ان الجنة تحت اقدام الأمهات .. والجنة خير من العجل وأبقى .

ومرت بى الأيام دون أن أعاود ركوب العجل .. حتى دخلت الكلية

الحربية .. وأبصرت مخزنا مليئا بالعجل .. فدهشت وتساءلت عن سره فأنبئت أن يستعمل فى طوابير الطبوغرافيا وعلمت أن يوم خروجنا فى هذه الطوابير آت لا ريب فيه .

ولم يكن هنالك بد والأمر من التنازل عن الجنة التى تحت اقدام الامهات .. وأن أقدم على تعلم ركوب العجل بعد أن أضحى ركوبى للعمل لا للهو .

وأذكر أنى شعرت بالكثير من الخجل وأنا أجد نفسى - دون بقية خلق الله الذين فى الكلية - الوحيد الذى لا يركب العجل . وبدأت أضيف شبحا جديدا .. وهو شبح الطبوغرافيا .. الى الأشباح التى تخيفنى فى الكلية .

وبدأت تعلم العجل .. وبعد بضع مرات من التمرين بعد الغداء . كنت اعرف كيف أحفظ توازنى وكيف انطلق بالعجلة فى الفناء . وأحسست بعد ذلك بالطمأنينة تعاودنى .. وبأنى على أتم استعداد لخوض معركة الطبوغرافيا بعجل .. وبغير عجل ..

وبدأت معركة الطبوغرافيا .. هينة لينة .. بين اربعة جدران الفصل .. وموافى على منصة المدرس مشدود القامة بارز الصدر عابس القسمات كفرسان العصور الوسطى . وقد أخذ فى الشرح لنا بلهجة شديدة عنيفة ونبرات قاطعة حاسمة كأنه ينادى على طابور خيالة .

والطبوغرافيا - لمن لا يعرف - هو علم مسح الأرض أو رسم الخرائط .. والطبوغرافيا العسكرية هى كل ما يتعلق بسطح الأرض من الزاوية العسكرية .. من رسم خرائط الأماكن غير المرسومة بالمسطحات والبانوراما (الرسم المائل) وقراءة الخرائط المرسومة وتكبيرها للمقاييس المختلفة وإيجاد محل الانسان عليها والسير بالبوصلة والنجوم .. أو هو باختصار .. علم هداية العسكريين فى المعارك .. والعصا التى يتلمسون بها طريقهم فى الأراضى المجهولة .

هذا هو علم الطبوغرافيا العسكرية .. كما يفهمه عباد الله .. أما كما كنا

نفهمه وقتذاك .. فهو شيء أبعد ما يكون عن هذا .. كان كل ما يعيه ذهننا عنه ينحصر في أشياء ثلاثة : « غراب على شجرة » و « سكة حديد من تحت ترعة » و تشوفها ولا ماتشوفهاش » .

وربما تبدو تلك الاشياء عجيبة في نظر القارىء .. وربما يهز رأسه في دهشة ويتساءل عن صلة هذه التخاويف بعلم الطبوغرافيا .. وربما يظنها هلوسة من صنع أحلام الضحى التي كانت تتراءى لنا خلال حصص الطبوغرافيا ..

ولست انكر أن أحلام الضحى كانت لا تنفك تراودنا .. وأن المعركة بينها وبين شرح موافي كانت على أشدها .. وأننا كنا نترجح بين الطرفين .. تارة نغفو من اغرائها الناعم المعسول .. وتارة نفزع من صرخاته الحادة القاطعة .

ولكني أعترف أن موافي كان أقدر المدرسين على الاحتفاظ بيقظتنا . وأن أحلام الضحى كانت لا تكاد تقترب من أعيننا حتى تفر هاربة من صيحاته .. وعلى ذلك أستطيع أن أؤكد .. أن ما وعيناه عن الطبوغرافيا وقتذاك .. من « غراب على شجرة » الى « سكة حديد تحت ترعة » الى « تشوفها ولا ما تشوفهاش » لم يكن من وحي أحلام الضحى .. بل كان من صميم الواقع .. أو من صميم .. الطبوغرافيا ..

أما عن الغراب - النائم أو الواقف لست أدري - على شجرة .. فهو يمثل الجزء من الطبوغرافيا الخاص بإيجاد المحل على الخريطة ..(وهذه مسألة عرفتها بالطبع فيما بعد) .

كنت أجلس على المقعد وقتذاك محملقا في وجه موافي ذي الشارب الدقيق الأنيق .. والوجه الجاف البارز عظام الوجنتين والفك العريض .. والالفاظ الحادة والجمل السريعة الحاسمة تتطاير من شفتيه .. فيتطاير معها النوم الذي يغالبنا .. ويترك الذهن شاردا تائها سرحان يتنقل بين الخروج يوم الخميس بالبدلة الكحلي ذات الشريط الاحمر .. التي صرفت الينا وبدأ تقييفها . وبين سنجة المترو التي يبدو طرفها من خلال النافذة فيحمل الينا ذكرى الاحياء

الطليقين المتنعمين بالسير فى الشوارع وركوب الأوتوبيس والمترو وأكل الطعمية علنا بلا تهرب ولا خوف ثم ينتقل الذهن فجأة الى دولاب الملابس حيث استقرت بعض القراقيش وقطعة من الشوكولاته أخفيتها خلسة لكى آكلها قبل أن يضبطنى بها أحد . ثم أتصور الجزاء الذى يمكن أن يوقع على .. وهكذا يظل الذهن ينتقل شاردا .. ومواقى منطلقا فى شرحه .. يحدثنا عن كيفية رصد غرض شهير بالبوصلة وحساب الزاوية الفلكية .. ثم ينتقل الى وصف الغرض الشهير . وتحديده بأنه شيء ثابت معروف . كبرج كنيسة أو مئذنة جامع أو تبة عالية أو شجرة كبيرة .. ثم يختم قوله محذرا « يعنى مثلا مترصدش غراب على شجرة ».

وهنا يفيق الذهن .. فلا يلتقط من طول الشرح والتفسير.. والاخذ والرد.. الا قوله الاخير « غراب على شجرة » فإذا حاول إعادة الشرح.. عاود الذهن سرحانه فلا يفيق من شروده الا على الخاتمة.. ذات الغراب والشجرة.. ولا أخرج فى النهاية من درس الطبوغرافيا الطويل العريض .. الا بغراب على شجرة .

وهكذا كنت أعتبر مبادىء الطبوغرافيا تنحصر فى الغراب على الشجرة.. وكنت فى بعض الاحيان أسائل نفسى ما صلة الغراب بالشجرة بالطبوغرافيا.. وهل من الضرورى أن يكون الغراب واقفا على الشجرة .. وإذا طار عن الشجرة .. هل ينهار علم الطبوغرافيا.

ولقد تجرأت ذات مرة وسألت جارى مستفسرا فى همس « ايه حكاية الغراب اللى على الشجرة » ورفع جارى كتفيه وقلب شفته السفلى علامة أنه لا يدرى.. واتضح لى بهذا أن معلوماتى فوق معلوماته وأنه فى سرحانه كان أبعد مدى لأنه لم يسمع حتى عن « غراب على شجرة ».

هذا هو ما كان من أمر الغراب والشجرة .. فى درس الطبوغرافيا أما ما كان من أمر السكة الحديد والترعة فقد كانت بدورها تعبر عن درس آخر .. وهو الاشارات الاصطلاحية.

كانت الاشارات الاصطلاحية .. هى إشارات اصطلح على أن ترسم فى

الخرائط المدلاة على هيئات معينة كالسكك الحديد والكبارى والجسور والمزلقانات و .. وأغلب الظن أن موافى بدأ انهماكه فى شرح هذه الاشارات.. واستمر منهمكا فيها .. والذهن منهمكا فى سرحانه حتى وصل الى الكبارى .. وإذا بى أفيق لأسمعه يقول مشيراً على التختة :

« يعنى مثلا إذا كان عندنا سكة حديد من تحت ترعة .. » .

وعلق ذهنى بهذه الجملة .. وهو لا يعلق .. أو لا يعلق به الا الاشياء التى لا يجب أن تعلق به ..

وبدأت أتصور السكة الحديد التى تسير من تحت الترعة .. ولست أدرى كيف قالها موافى .. أكان يقصدها حقا .. أم كانت زلة لسان .. أم كانت نكتة.

على أية حال.. لقد كان موافى يلقى النكت فى بعض الاحيان.. ولكنه كان يلقيها بطريقة جادة حاسمة قاطعة كما يلقى كل أحاديثه.. الى الحد الذى تمرينا ونحن لا نكاد نميز أنها نكتة ونأخذها على أنها من أصول الطبوغرافيا.. ولا شك أنه لو كان يقصد بالسكة الحديد التى تمر من تحت الترعة - نكتة .. فنحن لم نأخذها أبدا على أنها نكتة الى درجة أن أحدنا جرؤ واعترض هامسا «مايمكنش» وبلغ الهمس سمع موافى فصاح « طيب بلاش سكة حديد.. خليها مترو » .

وقد يكون موافى مستمرا فى نكته .. وقد يكون البعض حملها فعلا محل النكتة .. ولكن .. عنى أنا .. الفازع من وجه موافى ومن شخطه .. لم أتصور أبدا أنه يمكن أن يخرج النكتة .. وعلى ذلك اعتبرت المسألة من صميم علم الطبوغرافيا .. وكانت الفائدة الثانية التى استفدتها من الطبوغرافيا غير أن الغراب على شجرة ، هى أننا نستطيع بالطبوغرافيا أن نمرر السكة الحديد والمترو من أسفل الترع .. أما كيف .. ولم .. فهذا ما لم أحاول السؤال عنه .

بقيت المسألة الثالثة .. وهى تشوفها والا ما تشوفهاش ؟ » .. ولم أكن أعرف بالطبع من هى التى تشوفها .. ومن هى « اللى ما تشوفهاش » وتشوفها ليه .. وما تشوفهاش ليه .. وإذا كانت تشوفهاً يجرى ايه ؟ وإذا كانت ما تشوفهاش يجرى ايه ؟ .

كل هذا لم أكن أدرى عنه فى بادىء الأمر شيئا .. بل كان كل ما أدريه هو أن هناك سؤالا يتطاير فى حصة الطبوغرافيا .. تشوفها ؟ .. والا ماتشوفهاش ؟ .. وكان على أن أجيب عليه أحيانا .. وكنت أجيب عنه فعلا .. وأرمى الاجابة كما يقولون ضربة لازب .. يا طابت يا اتنين عور .. مرة تشوفها .. ومرة ما تشوفهاش .. وأحيانا كانت الاجابة تصح .. وأحيانا أخرى كانت لا تصح .. وفى كلتا الحالتين لم أكن أدرى لم صحت ولم لم تصح .

ورويدا .. رويدا .. بدأت اعلم أن هناك شيئا اسمه الظهور المتبادل .. وأن من أصول الحرب أن يعرف الانسان مواقعه التى سيختارها على الخريطة .. ويعرف مدى الرؤية أمامها وهل ترى مواضع معينة أم تحجبها عنها تلال أو عوائق قائمة بينهما .

كل هذا بالطبع لم أكن أعرف عنه شيئا .. ولكن بدأت أعرف فقط أن تشوفها وماتشوفهاش .. هى مسألة بين نقطتين .. بعد أن مر بى زمن وأنا أتخيل أنها بين امرأتين وأن أحداهما لا تريد أن ترى الأخرى .. وأن السؤال يطلب توضيح ما إذا كانت « تشوفها والا ما تشوفهاش » وكنت أسائل ما صلة هاتين المرأتين بالطبوغرافيا ولماذا نعيى أذهاننا بمعرفة ما إذا كانت أحداهما تشوف الأخرى والا ما تشوفهاش .. ولكنى لم أكن أملك الا أن أهز كتفى قائلا لنفسى : « يعنى هو الغراب اللى على الشجرة دخله ايه فى الطبوغرافيا .. أهى جملة » .

وأذكر أن موافى أجرى لنا امتحانا قصيرا لاختبارنا وقتذاك وبعد أن كتب الاسئلة على التختة أخذت فى قراءتها .. السؤال بعد السؤال وأنا لا أكاد أفهم شيئا مما أقرأ ، حتى وصلت للسؤال الاخير فإذا به مسألة عن الظهور المتبادل ، وفى نهايتها « تشوفها والا ما تشوفهاش » وكانت تلك هى الجملة الوحيدة التى فهمتها من التختة ومضت برهة وأنا لا أعرف بماذا أجيب ، وأخيرا همست لجارى :

تشوفها والا ماتشوفهاش » ؟

والتفت الى جارى فى دهشة وتساءل بدوره « ايه ؟ » .

ورحت أكرر سؤالى :

« تشوفها ولا ماتشوفهاش » ؟

« ايه اللى تشوفها ولا ماتشوفهاش » ؟

« السؤال الأخير ؟ ؟ ! » .

ووجدته يرفع كتفيه ويبرز شفتيه علامة الدهشة والاستنكار وهمس فى تبرم :

ايه هو ده ؟ .. الجدع ده بقاله جمعتين داويشنا بتشوفها والا مبتشوفهاش .. احنا مالنا .. عنها ما شافتها » .

واتضح لى من تبرمه .. أن معلوماته عن المسألة لم تتجاوز بعد معلوماتى عندما كنت أظن المسألة محصورة بين أمرأتين .

تلك هى الاركان الرئيسية الثلاثة التى كان يقوم عليها علم الطبوغرافيا .. أما الركن الرابع .. فقد كان .. « البلانشيطة » .

والبلانشيطة .. هى لوحة تستند الى حامل من ثلاثة قوائم أشبه بحامل آلة التصوير .. تستعمل فى مسح الاراضى ..

وفى أول خروج لنا بالبلانشيطة .. وقفنا نشد الحامل واللوحة الى العجلة .. وقد ارتدينا البدلة الكاكى ذات الأسبليط الأحمر والبنطلون القصير والقالشين .. ووضعنا فوق الطربوش مظلة كاكى أشبه بمظلات الكناسين قد حجب رفرفها الأمامى أعيننا وتهدل رفرفها الخلفى العريض على أقفيتنا وظهورنا .

واصطففنا فى ميدان الطابور استعدادا للطابور .. وكنت أكاد أسمع دقات قلبى . فقد كانت المسألة بالنسبة لى مغامرة كبرى ..

حقيقة أنى تعلمت ركوب العجل .. ولكنه ركوب خفيف .. ألف خلاله فى الفناء بالعجلة مجردة وأنا وحدى .. أما أن أخرج هكذا فى طابور والعجلة محملة بالبلانشيطة وأنا محمل بالمظلة وشنطة الجراية فكان أمرا يستدعى

الجزع .

وركبنا .. ووجدت من الخير أن أتسلل الى ذيل الطابور حتى لا أعرقل نظامه .. وبدأت أحرك البدال .. وسارت بى العجلة .. وأنا أحافظ على توازنى ومن أسفلى الحامل والبلانشيطة .

وفى هذه الزحمة الكبرى التى أنا فيها .. وأنا أعبر مع الطابور شارع بن سندر .. سمعت عبد العزيز يهتف بى « شايف البنت دى » .

وكنت أكاد أسير .. وكان آخر ما يخطر لى ببال .. هو البصبصة .. لأنى كنت اعتقد أن أى تحول ببصرى عما أمامى .. سيلقى بى الى التهلكة . ولم أملك اجابة على قول صاحبى الا قول أخينا الضرير للعسكرى الانجليزى .

واستمررنا فى السير .. حتى وصلنا الى المنطقة المجاورة لسراى القبة . فحططنا رحالنا .. وبدأ موافى يلقى تعليماته الينا محددا المنطقة المطلوب رسمها . وبعد أن تلقينا التعليمات . تفرقنا فى المنطقة .

وكان ضمن المطلوب رسمه السور الخلفى للسراى المطل على المزارع والحقول .. وكانت المنطقة متسعة سرعان ما ذابت فيها جموعنا . حتى لم أعد أبصر من حولى الا نفرا أو نفرين .. وكان أبدع ما فى الامر أن موافى نفسه لم يبد له أثر .

وتلفت عن يمينى فوجدت السور المطلوب رسمه وتلفت عن يسارى فوجدت غيط خيار وقناة عريضة تلمع فيها المياه . وقد جلس على حافتها أحد الفلاحين يصطاد السمك .

وأنا احب الخيار .. أحبه بلا جدال .. أكثر من موافى ومن الطبوغرافيا ومن سور السراى وتلفت حولى مرة أخرى فوجدت المسألة صفصفت على أنا وحسن فريد ..

- وهتفت به صائحا :

- أيه يا بو على .. مانفسكش تاكل خيار ؟

- أى والله ..

- طيب ياللا بينا ننزل على الغيط ..

- طب وصاحبك ؟ .. (يقصد موافى) .

- ما تخافش .. مش باين له أثر ..

- وصاحب الغيط ؟

- يا أخى نديله قرش ..

وفى لمح البصر كانت البلانشيطات متكئة بجوار السور وكنا نحن نخوض الغيط باحثين عن الخيار .. ولقينا صاحب الغيط فرحب بنا . وحييناه فرد التحية بأحسن منها . قلنا له :

- عايزين ناكل خيار يا حاج .

- كلم زى مانتو عايزين .. بس ما تخدوش معاكم .

- وانطلقنا فى الغيط .. وليس الذ من الخيار فى غيطه لا سيما إذا كان مجانا .. وأؤكد أننا أكلنا من الخيار ما لم يخطر على بال الرجل أن آدميين يمكن أن يأكلا مثله .. وأؤكد كذلك أنه ندم أشد الندم على تصريحه لنا .

وكان يجب وقد أمتلأنا وشبعنا أن نعود السور والى البلانشيطة .. وقد هممنا فعلا بالعودة عندما لمح حسن فريد الرجل صاحب السنارة الذى جلس يصطاد على حافة الترعة وسمعته يهتف بى :

- اسمع .. الظاهر أن الترعة مليانة سمك .. ما تيجى نصطاد شوية ..

- نصطاد بايه .. ؟

- نصطاد بأدينا .. دى الترعة مش غويطة ..

- يالله ياجدع بلاش عبط .. فيه حد يصطاد سمك بأيديه .. يالله لحسن عمك موافى يطب علينا .

ولكن حسن اتجه الى الترعة .. وهممت أنا بالعودة عندما طاف الشيطان

بذهنى فهيأ لى أن الترعة فعلا مليئة بالسمك .. وأن صاحبى سيفوز وحده بالغنيمة .. فوجدت من الخير أن اتبعه حتى لا أترك الفرصة تضيع . وقلت لنفسى بضع دقائق لن تؤخرنا كثيرا .

ووقف صاحبى على حافة الترعة وكانت تبدو على سطحها فقاقيع ودوامات صغيرة .. وكان كلما أبصر أحدها صاح فى نشوة :

– أهى دى سمكة .

وأخيرا لم يستطع الصبر ووجدته انثنى بجسده لأسفل مادا يده بشنطة الجراية بعد ان افرغها مما بها محاولا أن يرفع بها بعض السمك كأنه شبكة . وازداد تحمسه وهو يجد الفقاقيع تتكاثر ويلمح فعلا احدى السمكات تبدو من خلال الماء . وازداد ميلا .. حتى .. سقط فى الترعة ..

ولم تكن المأساة .. كامنة فى خطورة السقطة .. لأن قاع الترعة كان قريبا .. ولكن كانت فى كيفية خروجه منها . وفى كيفية تنشيف ملابسه وتنظيفها . ومددت له يدى اليمنى محاولا جذبه ولكننى وجدت نفسى انزلق معه .. ووجدنا انفسنا نحن الاثنين وقد غرقنا فى الوحل والطين حتى ما فوق الركبة .

وأخيرا استطعنا الخروج من الترعة وكان علينا أن نقضى بقية الوقت المخصص للرسم . فى تنظيف القلشين وتجفيفه .

وانتهى الطابور وتجمعنا . دون أن نخط فى لوحة الرسم خطا واحدا .

وعدنا الى الكلية . وكان علينا أن نسلم اللوحات عقب تنظيفها وكتابة البيانات ورسم المقياس عليها .

وجلست فى الفصل فى حصة المذاكرة وأنا ابصر الجميع قد انهمكوا فى لوحاتهم وأنا وصاحبى نتبادل النظر فى يأس شديد .. ماذا يمكن أن نقول عندما نسلم اللوحات بيضاء من غير سوء ! .. أن المسألة قد تنتهى على الاقل بشنقتنا .

وفجأة خطر لى خاطر عجيب .. هتفت على أثره لصاحبى :

- اسمع .. تعرف تجيب لنا دفتر التليفون ..

ودهش صاحبى .. ولكنه تسلل من الفصل وعاد بعد لحظة ومعه دفتر التليفون .. وقلبت صفحاته .. وكانت توضع فى نهاية الدفتر وقتذاك خرائط لكل أحياء القاهرة .. وفى سرعة البرق نزعت الصفحة التى بها منطقة سراى القبة ولم تنته الحصة حتى كنت وصاحبى قد نقلناها على لوحاتنا بالمقياس المطلوب .

وأعاد صاحبى الدفتر وكانت المرة الأولى .. والأخيرة .. التى أحس فيها بامتنان وتقدير لمصلحة التليفونات .

خافلت القدر .. وسافرت

كنت أستعد للسفر الى فيينا .

كنت أستعد وأنا واثق أني لن أسافر .. لأن كل محاولاتى فى السفر الى الخارج باءت بالفشل ، ولم يكن هناك ما يدعونى قط للاعتقاد بأن سوء الحظ الذى لازمنى فى كل محاولة سيتخلى عنى فى هذه المحاولة ..

سنحت لى الفرصة الأولى للسفر وأنا طالب أوشك على التخرج من الكلية الحربية ، وكنت الرابع فى الأقدمية بين طلبة القسم النهائى .. وكانت الدفعة وقتذاك لا تتجاوز العشرين وغالبا ما يحتفظ كل منهم بأقدميته التى حصل عليها فى أول امتحان فى القسم الاعدادى لأن الاقدمية تحسب عند التخرج بضم المجاميع الثلاثة التى يحصل عليها الطالب فى السنوات الثلاث .

وكان الأربعة الأوائل يرسلون الى بعثة فى وولتش بانجلترا لدراسة المدفعية .. وكان المفروض إذا حافظت على أقدميتى أن أكون ضمن المبعوثين الأربعة .. وكنت أعلق على السفر آمالا كبارا .. وأعتبر أن مستقبلى .. ومستقبل المدفعية فى مصر .. سيضيعان .. إذا ضاعت منى هذه البعثة .

وبدأ سوء الحظ يطل بأنفه عندما أعلن فى المدرسة انضمام القسم المتوسط الى القسم النهائى ودخولهم جميعا امتحانا واحدا تحسب على أساسه أقدمية التخرج بصرف النظر عن الامتحانات السابقة .

وأحسست أنى أوشك أن أخوض معركة مذاكرة .. وأنا لم أحصل على

أقدميتي السابقة الا بامتحان مفاجيء .. لم يكن أمام أحد منا فرصة المذاكرة .. فأنا مستذكر فاشل .. شديد السرحان أمام صفحات الكتب المدرسية .. حتى لأذكر أنى توقفت أمام إحدى صفحات كتب التاريخ الطبيعى وأنا فى الثانية الثانوية .. ثلاثة أشهر .. وأنا لا أتجاوزها حتى بليت الصفحة ..

وأذكر أيضا وأنا فى كلية أركان حرب .. عمارة كانت تبنى أمامنا .. وكانت تلوح لى من بعد خلال النافذة المواجهة لمقعدى .. وكنت لا أملك نفسى من السرحان فى مراقبة بناء العمارة .. وأخذت العمارة ترتفع دورا بعد دور .. حتى تم بناؤها .. ووجدت جارى وهو اليوزباشى المهندس حمدى المغربى يضرب كفا بكف ويقول لى فى أسف :

يا خسارة العمارة خلصت .. حتسرح فى ايه بقية السنة ؟

ويمثل هذا السرحان أمام صفحات الدراسة .. كان على أن أخوض معركة مذاكرة .. خرجت منها .. وقد طارت الأقدمية .. وطارت معها البعثة .

ولم يضع مستقبلى بالطبع .. ولا ضاع مستقبل المدفعية فى مصر ..

وسنحت الفرصة الثانية بعد سنتين فى أول عام ١٩٣٩ قبل بدء الحرب الأخيرة . عندما تقرر إرسال أول مجموعة من ضباط المدرعات لانجلترا لدراسة المدفعية والصيانة واللاسلكى ورشحت مع البارودى لبعثة الصيانة .. ومرة أخرى بدأت أعلق الآمال الكبار .. وبدا لى مستقبلى .. ومستقبل صيانة المدرعات فى مصر معلقا على ذهابى فى هذه البعثة .

وقبل أن يتقرر موعد السفر قلب البارودى إحدى العربات فى طابور السواقة وجوزى بإحالته الى الاستيداع لمدة ستة أشهر .

ورشح أحمد رياض قائد الآلاى وقتذاك حسين الشافعى للسفر بدل البارودى ، وأخذت وحسين نعد العدة للسفر ونتأهب له ونرسم فى أذهاننا الخطوط الذهبية لمستقبل باهر سعيد .. لنفسينا ولمدرعات مصر ..

وتأجلت البعثة بضعة أشهر .. ولم يكن علينا من ضير فى الانتظار

ما دام حلمنا الأكبر . سيتحقق فى نهايتها .. ولكن أشهر الانتظار طالت .. حتى تجاوزت الأشهر التى أحيل خلالها البارودى الى الاستيداع فعاد الى الخدمة .. واتخذ مكانه ثانيا فى البعثة .. وتبددت أحلام حسين هذه المرة .. وطارت منه البعثة .. أو باتت كما يقولون فرحة ما تمت .. أخذها البارودى وطار .

وتحدد يوم السفر وبات أمره أكيدا لا ريب فيه . وأضحت أحلامى فيه حقيقة ملموسة واقعة .. وبدأنا نعد أوراقنا .. ولم يعد علينا الا نتقدم لوزير الحربية ليرانا مع بقية المبعوثين الى انجلترا .

وفى صباح يوم مفترج .. ارتديت ملابس مقابلة الحكام .. الحذاء الطويل وبنطلون الركوب وتمنطقت بالسيف مشدودوا بمقبضه الكروى اللامع الى وسطى ..مدلى بحده الطويل الى جانبى .. وسرت والبارودى الى وزارة الحربية .. وكأننا سنفتح عكا .

وفى مبنى وزارة الحربية وقفنا مشدودين بسيوفنا مع بقية الزملاء المبعوثين حتى أقبل علينا رئيس هيئة اركان الحرب الفريق محمود شكرى بقامته الرفيعة وجسده الطويل وصوته الهادىء وملامحه الطيبة وتمم علينا ليدخلنا الى الوزير :

وفى تلك اللحظة .. وقبل أن ندخل مكتب الوزير .. أقبل علينا حسين لاهثا وقد ارتدى بدلة الركوب وتمنطق بالسيف وسألناه فى دهشة :

- ايه اللى جابك ؟

- أنا عارف !! .. قالولى الحق حالا قدم نفسك للوزير مع المسافرين .

وشددت على يده فى نشوة وسرنى أن نسافر ثلاثتنا والا يخذل الله أحدا منا أو يضيع أمانيه .

وتقدم بنا الرجل الطويل الرفيع الى مكتب الوزير ..

وكانت المرة الأولى التى أدخل فيها مكتب وزير .. بل لعلها المرة الأولى التى أرى فيها وزيرا .. بمهابته وفخامته .

ولاح لنا حسين سرى .. فى أقصى الحجرة .. وراء مكتبه الفاخر وقد اتكأ بكرسيه الى الوراء وأخذ يتفرس فينا بنظرات عدائية متعالية .. حتى أدخل فى روعي .. أنى مذنب فى قفص الاتهام ولست مبعوثا فى مكتب وزير .

وبدأ الوزير حديثه .. بلا ترحيب ولا سلام .. بل بأسئلة عدائية مهاجمة .. كأن بيننا وبينه عداء قديما ..

وصاح بأولنا وكان البارودى :

- انت رحت الاستيداع ليه ؟

- لأنى قلبت عربية .

وفى صرخة ناهرة صاح فيه :

- قول بالانجليزى .

وقالها البارودى بالانجليزى .. بطريقة جعلت الوزير يقلب شفتيه .. بقرف وامتعاض .

وانتقل الى ..

وأحسست بالرهبة تزداد بى .. واللخمة تطبق على أنفاسى .. وتملكنى احساس الجالس أمام لجنة امتحان شفوى انجليزى .. يرأسها .. وزير .. أو بتعبير أصح .. يقود هجومها .. وزير ..

وسألنى الوزير في لهجته العدائية الخاطفة :

- متى تخرجت ؟

والاجابة بسيطة .. فانى قد تخرجت سنة ١٩٣٧ .. والمسألة لا تحتاج الى ذاكرة أو مشقة .. بل كان يمكننى أن أقول أى كلام بلا تدقيق فلا أظن الرجل كان يعرف تاريخ تخرجى ولا أظنه كان سيجرى تحقيقا فى صحة الكلام .

ومع ذلك وجدت الذاكرة تبحث عن الرقم .. والرقم يفلت منها .. بلا أى مبرر وعندما أمسكت به .. وبدأت أترجمه الى الانجليزية .. كان الرجل

قد مل من طول صمتي .. وانتقل بهجومه الخاطف الي حسين .

وخرجنا من مكتبه .. ليسافر البارودي وحسين .. وأبقى أنا .. وطارت البعثة للمرة الثانية .

أما الثالثة فسنحت لي في أبريل سنة ١٩٥٤ في نفس الوقت الذي كنت أعد فيه مجلة الرسالة الجديدة للظهور .. وكان السفر مستحيلا .. وأعتذرت .

أما الرابعة .. فكانت بعثة ضباط الأركان حرب الى ايطاليا وكنت أعتقد أن الدور قد حل على للسفر .. ولكن قيل لي .. لقد أضعته باعتذارك ..

ولم أتضايق كثيرا .. وقلت لنفسي » بجملة .. وأنا بطبعي لا أحزن كثيرا على الفرص الضائعة .. ولا سيما التي لم يكن لي فضل في إضاعتها .. وأحاول أن أفهم نفسي أن الله يحبني .. وأنه يدبر لي الأفضل .. وأن أقنعها بأن ما في يدي خير مما ضاع مني .

وسنحت الفرصة الخامسة .. دعوة لمؤتمر نادي القلم في فيينا .. ولم أرفضها .. ولم أتحمس لها .. بل قبلتها على أنها شيء ضائع .. وفضلت أن أمنح الأقدار متعة اضاعتها كما أضاعت بقية الفرص .

وبدأت أستعد للسفر .. وأتصرف باستعباط .. كأنني مسافر حقا .. وأنا في قرارة نفسي وأثق أني لن أسافر .

وقبيل السفر .. التهبت إحدى عيني .. واعتبرت المسألة إنذارا بمعاكسات القدر .. وتذكرت هذه الهبة من وجع العين التي يرسلها القدر الي كل عيد في طفولتي على سبيل الهدية لكي يحرمني من التمتع بالعيد على الوجه الأكمل ..

وتجاهلت الانذار .. واستمررت في إجراءات السفر .. استخرجت جواز السفر وأخذت التأشيرات وحجزت على الباخرة .. وفعلت كل ما يفعله أي مسافر .. ليس بينه وبين القدر خصومة .

ولم يعد على السفر سوى يومين .. ووجدت أن المسألة قد أضحت جداً .. ومع ذلك لم أكن أصدق أني سأسافر فعلا .. وكنت أتوقع بين الحين

والآخر عملا مفاجئا من القدر لمنعه .

وفعلا تحقق ظنى .. وأقدم القدر فى اللحظة الأخيرة على العمل البهلوانى المفاجىء .

كان القائد العام للقوات المسلحة يمر على المدرعات الجديدة فى الفرسان .. ومررت معه .. وطال بنا المرور فى الهجير قرابة ساعتين وبعد انتهاء المرور دعوته لشراب شعير مثلج كنت قد أعددته فى مكتبى فاعتذر بأنه على موعد ..

وكرهت أن يضيع الشعير المثلج سدى فأصررت على دعوة بقية الضباط لاحتسائه .. وعدت الى مكتبى ومعى عبد العزيز مصطفى مدير القرسان وحافظ إسماعيل مدير مكتب القائد العام .

وبدأنا نعب الشعير .. وقد جفت حلوقنا .. وتصبب عرقنا .. ثم جلسنا نتحدث فى راحة واسترخاء .. وبعد بضع دقائق أحسست بالتواء فى معدتى .. وبدأ الألم يزداد شيئا فشيئا .. وحاولت أن أخفيه حتى ينصرف ضيوفى .. ولكنهم لاحظوا شحوبا مخيفا فى وجهى .. لم أستطع بعده إخفاء ألمى .

ورقدت فى مكتبى .. وبعد بضع لحظات .. أتى طبيب ودفع فى ذراعى بحقنة مسكنة لم تجد نفعا .

كان بجوفى ألم قاتل .. انتهى بى الى شبه إغماء .. حملونى بعده الى مستشفى مظهر عاشور .. لاجراء عملية .. أى عملية .. تنقذنى مما أنا فيه .

وفى وسط هذه الآلام المخيفة نظرت الى سقف الحجرة وبدا لى أن القدر يبتسم فى خبث .. وهززت رأسى وهمست به فى استعطاف « خلاص مش مسافر .. بس سيبنى » ولم يعد لى أى أمل فى السفر كنت واثقا أن عملية أعور ستجرى لى .. وأن على أن أرضخ لمشيئة القدر .

وبعد برهة أقبل الدكتور مظهر .. وأخذ يفحصنى .. وعندما انتهى من فحصى .. أمر باستبقائى فى المستشفى .

وغادرنى الدكتور على أن يعاود فحصى مرة أخرى بعد بضع ساعات

عندما يزول أثر الحقنة التى أعطاها لى الطبيب الأول وبدأ الألم يخف رويدا رويدا .. وبدأ الأمل في السفر يعاودني .. وخيل الى أنى أستطيع أن أغافل القدر المطمئن الى رقدتى .

وكان الزوار يحيطون بى وهم ينظرون الى فى جزع وإشفاق ..

وفجأة نهضت من فراشي وارتديت ملابسي .. ونظرت الى الزوار معتذرا وانطلقت هاربا من المستشفى .. والممرضات يعدون فى أثرى .

وفى اليوم التالى كنت أجلس فى الباخرة .. أتنفس الصعداء وهى تتباعد عن الميناء .. ونسيم البحر يلفح وجهى وخيل الى أن هناك وجها يعدو فى الميناء للحاق بالباخرة .. وأنه يصيح بمن حوله :

« انه مريض أعيدوه الى فراشه .. لقد غافلني وهرب » ..

ولم أدر أكان الوجه .. وجه الطبيب .. أم وجه القدر .. أم وجه زوجتى التى لم تعرف الا بعد أن سافرت .

يا بلاش بنصف الثمن

في حياتى العامة أعمال كثيرة لا أتقنها .. ولا أحب أن أعرض نفسى لأدائها .

من بين هذه الاعمال .. إن لم يكن أولها .. عمليات الشراء . !

فأنا أمثل دائما – أو هكذا يزعم أهلي – دور المغلوب في عملية .. أو معركة بالشراء .. ففى كل صفقة أخوض غمارها .. لا بد أن أكون خاسرا .. ولا بد أن يكون البائع في نظرهم قد ضحك علي ..

وفى قرارة نفسى .. لم أحس قط بندم على صفقة خاسرة عقدتها .. فأنا اقنع نفسى بأن خسارتى فى الصفقة تمثل بلا شك ربحا للطرف الآخر .

وهو غالبا ما يكون من صغار الباعة الذى لا أرى ربحه منى ربحا فى غير موضعه .. بل هو حسنة مستحقة بطريق لا اذلال فيه ولا حرج منه .. وأنا لا أرى فى البائع خصما لى يجب أن أحرمه ربحه .. أو أقلله الى الحد الذى لا يجزى جهده .. ولا أرى فى صفقة البيع والشراء معركة .. الرابح فيها هو الذى ينزل بخصمه خسارة أفدح وضررا أكبر . بل هى عملية تعاون على الحياة .. الرابح فيها هو الذى يقدم للغير معونة أكبر وربحا ..

تلك هى نظريتى فى الشراء .. ويعلم الله إن كانت عن مبادىء طيبة .. أم هى مجرد عذر أريح به نفسى .. وابرر به خيبتى الشرائية الدائمة .. على أية حال .. لقد اقنعت نفسى بها .. وانتهى الامر .. ولم يعد يقلقنى أبدا .. أن

أخوض عمليات الشراء .. وأخرج منها خاسرا مغلوبا .. ما دامت العملية عملية تعاون انسانى .. وما دمت أقوم بدورى فى ربح الغير .. حتى شروة الفاكهة البايتة التى اشتريتها .. لم تزعجنى قط عندما اكتشفت أنها بايتة .. وأنها توشك على التلف .. وأنى اشتريتها وهى فى الرمق الأخير .. بل عزيت نفسى بأننى لو لم يبعثنى الله لشرائها .. لقضى عليها فى خانوت صاحبها .. وحرمت أنا من أكلها .. وحرم صاحبها من ثمنها ..

وبهذا المنطق السليم والتفكير المقنع اقنعت نفسى بأن صفقة الفاكهة البايتة من أعقل الصفقات التى عقدت فى مصر - بعد صفقة الاسلحة طبعا - فقد كان على الفكهانى أن يبيع الفاكهة قبل أن يصيبها التلف .. فلماذا لا أشتريها أنا .. ؟ ما دمت أريد أن أشترى فاكهة .. وما زالت الفاكهة حتى لحظة شراءها صالحة للأكل ؟

وذهبت الى البيت بالفاكهة .. وأنا سعيد .. ولكنى لم أقابل بنفس السعادة .. فقد وجدت أن المنطق السليم الذى أقنعنى .. لم يقنعهم قط .. وتلك هى مصيبتى فى عمليات الشراء .. فهم لا يقتنعون قط بواجبى نحو البائع .. بل يؤكدون أن واجبى هو أن أشترى ما يصلح لا أن أعين البائع على بيع ما لا يصلح .. ويؤكدون أن الباعة يعتبروننى « لقطة » وأنهم لا يجدون من « يستكردونه » فى مصر خيرا منى !

وكان على أن اجد حلا لمشكلة الشراء .. توفق بين نظرياتى ونظريات أهل البيت .. وتنجينى من لومهم .. مع الاحتفاظ بصداقتى مع الباعة .. أو كما يسمونها .. بخيبتى فى الشراء .

ولم يكن الحل عسيرا .. فقد كان لا يحتاج الى أكثر من عملية خصم دائمة .. أقوم بها فى أسعار مشترياتى بحيث تظهرنى بمظهر الناصح المدقق .. الذى لا يقدر عليه تاجر .. ولا يغلبه بائع .. أو كما قال الحجاج « لا يقعقع له بالشنان ولا يغمز جانبه كتغماز التين » .

ووجدت فى عملية الخصم منقذا لى .. أشترى من البائع بما يريد .. وأعطى البيت بما يريدون .. أمارس الخيبة فى السوق .. وأظهر الشطارة فى

البيت .. لقد أرحت الجميع .. عدا جيبي .. الذى كان عليه أن يتحمل فارق السعر .. أو على الأصح الفارق بين خيبتى الواقعة وشطارتى الموهومة .

وبدأت أجرب أولى عمليات الشطارة .. في بعض مشتريات من محل صديق لي وهو « يحيى دانش » حتى أعرف منه السعر الحقيقى بالضبط .. وحتى أجرى الخصم المعقول الذى يبدينى أمامهم شاطرا .. وليس مضحكا .. وأفهمت صديقى ما أنوى أن أفعله .. وطلبت منه - بعد أن قبلت السعر الذى عرضه - أن ينبئنى بأدنى سعر يمكن أن أنكره لهم .. بعد أن أحطته علما بشطارة حماتى وبالخصم الذى يجرونه لها في صيدناوى ..

وحملت البضاعة .. بعد أن حفظت الأسعار المخفضة .. وفى البيت وقفت أعلن الاسعار وانتظر دهشتهم من مهارتى واعجابهم بشطارتى .. ولكنى وجدت حماتى تقول ببساطة :

- ضحكوا عليك .. أنا باجيبها من صيدناوى بنص الثمن ..

وذهبت الى دانش حانقا .. فقد كرهت أن يخدعنى حتى فى التخفيض الاسمى الذى طلبته منه ولكنى وجدته يجيبنى فى دهشة :

- مش ممكن .. نص الثمن ازاى .

- أهى قالت كده ..

- اسمع لما أقولك .. أحسن حاجة المرة الجاية .. قول لها .. أنى اديتك الحاجة هدية .. أما نشوف بقى حاتقول ايه ؟

وأجبته ضاحكا :

- حاتقول فى صيدناوى بيفرقوا فوقها فلوس :

وكانت التجربة الثانية .. فى حذاء ..

كنت أشترى أحذيتى .. من محل في الموسكى لصاحب قديم هو يوسف سروة » تعود خالى أن يشترى لنا أحذيتنا منه منذ الطفولة .

والرجل طيب وصديق .. وأغلى حذاء عنده لا يتجاوز المائة وخمسين

قرشا .. محترم الشكل .. متين النعل يتحملنى عاما كاملا .. يزيد الى عامين .. إذا ركبت له طولونة حديد .. ونصف نعل .

ولم أجد قط ما يدعونى الى تغيير محلى المختار للأحذية .. حتى وجدت صديقى الشاذلى يجلس وقد وضع ساقا فوق ساق بطريقة وقحة تكاد تضع الحذاء فى وجوه الناظرين ..

وقلت له ناهرا :

- ما تلم رجليك .. مالك مادد جزمتك فى وش الناس ..

وبمنتهى الهدوء أجاب :

- أصلها بخمسة جنيه ..

وأعدت النظر فى الحذاء .. وقلت فى دهشة :

خمسة جنيه .. اشمعنى ..

- جزمة انجليزى .. تعيش معاك خمس سنين ..

- وتعيش خمس سنين ليه ؟ ما تشترى بالخمسة جنيه خمس جزم وتلبس كل سنة جزمة جديدة .

وفعلا لم أجد هناك ما يدعو الانسان قط الى أن يشترى حذاء بخمسة جنيهات .. ومع ذلك استمرت المناقشة بيننا أسبوعا .. انتهت بنا الى أن يقنعنى بضرورة تجربة الحذاء ذى الخمسة الجنيهات .. ولو مرة واحدة فى حياتى ..

وذهبت الى محل فردناند .. واشتريت الحذاء .. وفى طريقى الى البيت كان على أن أقوم بعملية الخصم التي تعودت إجراءها لتظهرنى بمظهر الشطارة ..

ولم تكن عملية الخصم هذه المرة .. بعملية عادية .. فقد تعودت الا يتجاوز ثمن حذائى بأية حال .. المائة وخمسين قرشا .. ولم يكن مفروضا ابدا أن أشترى حذاء بخمسة جنيهات .. مهما كان الأمر .. لأن الجنيهات الخمسة يمكن أن تشترى ثلاثة أحذية على الأقل ..

وكان على اذن .. أن أقوم بعملية خصم ضخمة .. انتهت بى .. بعد رؤية وتفكير الى أن تصل الى ثلاثة جنيهات ونصف .. أى أن أتقدم بالحذاء المحترم .. وكأنه حذاء عادى .. لا يزيد ثمنه على المائة وخمسين قرشا .. ولا أعتقد أن هناك مشقة فى ذلك .. فالحذاء في مظهره لايختلف كثيرا عن بقية زملائه من الاحذية العادية التى تعودت أن أشتريها .. فهو ذو نعل ووجه .. وليس على رأسه - كما يقولون - ريشة .. وزوجتى ليست خبيرة فى شئون الأحذية .. ولا أظنها ستكتشف بسهولة جنسية الحذاء .. فتعرف أنه انجليزى أو فرنساوى .. فكله عندها حذاء ..

وهكذا دخلت بالحذاء الممتاز .. وكأنه حذاء عادى .. وعندما سئلت عن ثمنه قلت ببساطة مائة وخمسين قرشا . وأجابت زوجتى بنفس البساطة « مش بطال » وأجابت حماتى اجابتها التقليدية « انه فى صيدناوى بنصف الثمن » .. أى بخمسة وسبعين قرشا .

وحمدت الله على الستر .. ومضت مدة وأنا أتمتع بطيب المداس فى الخارج وحسن السمعة فى الداخل .. أو بالعياقة والقنزحة فى الشارع .. والنصاحة والشطارة فى البيت .. حتى فوجئت ذات يوم بما فضح أمرى وكشف خدعتى ..

كنت أجلس فى البيت وسط شلة من الضيوف بينهم أحد الأصدقاء وزوجته .. وبحسن نية وبدون خوانة وضعت ساقا على ساق .. وفجأة وجدت زوجة صاحبى تحملق فى الحذاء .. ثم تقول معجبة :

- الجزمة دى كويسة ..

وتوجست من اعجابها خيفة .. ولعب الفار - كما يقولون - فى عبى .. ونظرت اليها فى حذر .. وبدأت استعرض لنفسى شجرة جدودها خشية أن يكون بينهم جزمجى أورثها من خبرته ما تستطيع به كشف أمر الحذاء الفاخر .

وكان أول ما فعلت أن أنزلت ساقى من فوق الساق الأخرى .. وخفضت حذائى وجلست متواضعا حتى أبعد عن عينيها الحذاء .. ولكن الماكرة عادت

تفحصه فى اعجاب ثم تساءلت ببساطة :

- جبته منين ؟

ادعيت أنى لم أسمع .. وتشاغلت عنها بحديث الى زوجها لا يمت الى حديث الأحذية بصلة ..

والتقطت أذنى رد زوجتى عليها وهى تقول فى ثقة :

م الموسكى .. !

واسترقت البصر الى صاحبتها فلم أجد على وجهها سيماء الاقتناع وحاولت أن أسوقها الى حديثنا لأبعد بها عن مسألة الحذاء ولكنى وجدتها مستمرة فى فحصه .. كأن الحجرة قد خلت الا منه .. ثم سمعتها تتمتم قائلة :

- عجيبة .. هو فيه فى الموسكى جزم كويسة كده ؟

ووجدت نفسى أرد عليها فى غيظ محاولا انهاء الموضوع الذى احسست أنه متجه اتجاها خطرا :

- وليه لأ ..؟

- أصلها باين عليها غالية .. أنت جبتها بكام ؟

يا نهار أسود ! !

ووجدت نفسى قد سقتها الى السؤال الذى حاولت جهدى أن اتجنبه .. ولم أجد بدا من الهروب السريع بالانهماك فى حديثى مع زوجها .. وكأنى لم أسمع سؤالها بالمرة ..

ولكنى .. كما هى العادة .. التقطت اجابة زوجتى نيابة عنى وسمعتها ترد عليها فى ثقة :

- مائة وخمسين قرشا !!

وأحسست بصاحبتها الخبيثة تحملق فى .. وكانت تعرف محاولاتى السابقة .. فى تخفيض أسعارى للظهور بمظهر الشطارة .. وفجأة سمعتها

تنفجر ضاحكة وتسائل زوجتى :

- هو قالك كده ؟

- آه .. تعجبك .. ؟

- من جهة تعجبنى .. تعجبنى .. بس حكاية الماية وخمسين قرش دى مش معقولة !

ونظرت اليها فى غيظ محاولا اسكاتها :

- معقولة .. مش معقولة .. أهى بمية وخمسين قرش وخلاص ..

وعادت صاحبتنا تضحك وهى تقول :

- مية وخمسين قرش ايه يا سعادة البيه ؟ حاتضحك عليه أنا . دى جزمة انجليزى ماتقلش عن خمسة جنيه .. !

يا بنت الصرم !! هكذا مرة واحدة .. والله لو كان أبوك جزمجيا .. ما استطعت أن تقدرى السعر بمثل هذه الدقة .

وكان على الا استسلم فقلت فى إصرار :

- قلنا بمية وخمسين قرش .

- وحياة راس بابا ما تقل عن خمسة جنيه .

- الله .. وايه اللى دخل راس بابا فى جزمتنا ؟ !

وبدأت زوجتى تتدخل فى الأمر فتساءلت :

بخمسة جنيه .. والا مش بخمسة جنيه ؟ قول الحق ..

ولم املك الا الاعتراف .. فقلت مستسلما :

- بخمسة جنيه .. بس دى آخر مرة يزورونا .. وأنا جايب جزمة جديدة ..

ومرت التجربة بسلام .. ولم أحاول أن أخادع فى أسعار الاحذية بعد ذلك .. لأننى لم أكرر شراء الاحذية الانجليزى .. لسبب بسيط هى أنها لم تعش

خمس سنوات ، ولا اربع سنوات ، ولا ثلاث سنوات .. بل انتهت فى نهاية العام .. كما ينتهى كل حذاء من الموسكى بمائة وخمسين قرشا .

واستمررت فى عمليات الخصم .. أظهر شطارتى دون أن ينكشف أمرى .. حتى حدثت الحادثة التى جعلتنى أكف عنها نهائيا ..

ذهبت لشراء بعض الصينى من محل فى شارع الأزهر ووجدت هناك أصنافا ممتازة مستوردة من تشيكوسلوفاكيا .. ولم أكن أحتاج الا لبضعة أشياء محدودة لا يزيد ثمنها عن جنيهين ولكن جودة البضاعة ورخص السعر .. (أو هكذا خيل الى) دفعنى الى أن أشترى صنفا وراء صنف حتى بلغ ما انتقيته فى النهاية بما يزيد على الخمسة عشر جنيها .

ولففت الحمل .. وذهبت الى البيت .. وكنت أعلم السخط الذى سأقابل به .. لأنه لم يكن مطلوبا منى أن أحضر كل ما أحضرت .. أولا لأنى خائب فى الشراء (رغم كل الخداع الذى أقوم به) وثانيا لأنهم ليسوا فى حاجة الى شىء ما أحضرت .

ولم أجد هناك ما يبرر شرائى لكل ما اشتريت وما يهيىء له قبولا حسنا سوى أن أوهمهم أنها صفقة هائلة وأن أخفض لهم السعر الى النصف .

ووضعت البضاعة امامهم .. وقلت لهم انى اشتريتها من أوكازيون .. وأن ثمنها لا يزيد عن عشرة جنيهات .. ورغم ذلك لم أقابل بالحماس الذى كنت اتوقعه .. وقيل لى ان هذا اسراف لأنهم ليسوا فى حاجة الى شىء مما احضرت .

وتصادف وجود ضيفة فى البيت .. كانت تجهز لابنتها .. فلم تكد تبصر الصينى وتعرف الثمن .. وترى استياء أهل البيت من الصفقة حتى تطوعت بأخذها ..

وأسقط فى يدى .. فأنا أقوم بعمليات الخصم الوهمية لنفسى .. لأنه منه واليه .. اما أن أجرى الخصم للغير .. واما أن أشترى البضاعة بخمسة عشر جنيها ثم ابيعها للغير بعشرة جنيهات .. لكى تقول عنى أنى شاطر .. فهذا هو

الجنون المطبق .

ولم أجد بدا من أن أسحب زوجتى واعترف لها بالموضوع .. ولكن الموقف كان حرجا .. ولم يكن الخروج من المأزق بالمسألة السهلة ولا سيما أن الضيفة لم تكن من النوع الذى يسهل رفع الكلفة معه .. بل كانت من النوع الغبى القماص وكان يحتمل أن تفهم اعترافى على أنه محاولة للربح منها .. أو تفهم تراجعنا عن اعطائه لها بأنه استخسار فيها ..

وهكذا لم نجد بدا من اعطائها الصفقة بالعشرة جنيهات ..

وغرمت ببساطة خمسة جنيهات .

ومن يومها .. لم أحاول أن أعيد عملية الخصم أبدا ..

في الميكروفون

أمفروض على الأديب أن يجيد مواجهة الجماهير ويتقن التحدث اليهم أم أن مهمته لا تتعدى جهده المبذول في برجه المغلق المحتجب وراء ستار من الكتب والصحائف تحجب شخصه عن الجماهير وتسمح لأفكاره بالانطلاق بينهم كأنه مدفع في حصن أو مصباح في فنار .

ان لدينا في مصر نموذجا لكلا الأديبين .. الأديب الذي يواجه الجمهور كأفضل ما تكون المواجهة ، والتحدث كأشد ما يكون الحديث سحرا .. ثم نقيضه .. الأديب القابع في برجه .. المحتجب وراء أوراقه .. الذي لا يفتن الا بقلمه .. ولا يسحر الا بكتابته ..

والأول .. هو الدكتور طه حسين .. والثاني .. هو توفيق الحكيم.. ولقد رأيت في مؤتمر الادباء كيف يواجه طه حسين الجماهير .. مرفوع الهامة .. طلق اللسان .. واضح النبرات .. عذب الصوت .. سليم المنطق .. قوى الحجة .. ملموم اطراف الحديث .. يبدأ بالمقدمات .. ثم يسوق الحجج .. وينتهي الى النتائج .. بلا شرود ولا خروج .

والذى لا جدال فيه أن طه حسين أشد تأثيرا بحديثه منه بكتابته .. وأنه يمسك بتلابيب المستمع اليه فلا يدعه يغفل عنه أو يشرد منه لحظة واحدة . وأني لأذكر خلال غداء جمعنا مع فخامة رئيس الجمهورية السورية عقب محاضرة الدكتور طه حسين التي القاها في بلودان وقد جلس بجواري الأمين العام للديوان الجمهوري وأخذ يثني على الدكتور طه وعلى سحر حديثه ثم

سألنى عن رأيى فى المحاضرة فقلت له باختصار :

لقد سببت لى ارقا .. فلم أظفر بلحظة نوم .. أو سرحان .. خلال الاستماع اليها ؟ !

وضحك الرجل .. وقال لى هذا خير ثناء على المحاضر والمحاضرة .. وروى لى محاضرة استطاع صاحبها أن يغرق مستمعيه فى سبات عميق من أول المحاضرة الى آخرها ، وعندما سأله فى نهايتها عن رأيه فيها .. أنبأه بأنها .. مريحة جدا !

أما توفيق الحكيم .. فيمثل النوع الثانى من الأدباء الذى يكره مواجهة الجماهير .. والتحدث اليها .

ولست اشك أن عدم قدرة توفيق الحكيم على مواجهة الجماهير ناتجة عن رهبة وخشية وعدم تعود وقلة مران .. أكثر منها عجز وعدم قدرة .. لأن توفيق من أسلم الناس منطقا وأقواهم حجة .. وأشدهم تركيزا .. وأسرعهم وصولا الى الهدف الذى يقصده .. بشرط ألا يشعر أنه مراقب .. وأن الابصار تتطلع اليه .. وأنه محاسب على كل لفظ ينطق به ، مؤاخذ على كل حركة يأتيها .

فهو إذا جلس اليك على غير معرفة .. وجدت منه ميلا الى الصمت فإذا تحدث ففي تردد ولجلجة .. لا يمكن أن تتوقعها من توفيق الحكيم الذى رسمت له من أفكاره ومنطقه وفلسفته وذكائه وفكاهته وسخريته صورة رائعة لا تتفق البته مع صورته كمحدث .

فهو لا يكاد يحس أنك تنصت اليه انصات مراقب محاسب مكتشف .. حتى يصبح منك على حذر .. ويحيط نفسه بسياج من الصمت والتحفظ ويخفى عنك معالمه ويطمس سماته .

فإذا ما جلس الى أحد خلصائه - وهم قلة تعد على أصابع اليد زال عن نفسه الاحساس بالقلق .. وانطلق فى حديثه انطلاقا قد يبلغ به - لولا متعة الحديث وقيمته - حد الثرثرة .

وأذكر أنه جلس يتحدث الينا ذات ليلة فى نادى القصة .. ولم يكن بيننا غريب يخشى توفيق الحكيم مراقبته .. فانطلق فى الحديث ما يقرب من ساعتين .. بمنطقه السليم وفكاهته اللطيفة وآرائه القيمة .. وعندما انتهى من الحديث اقبل أحد الزملاء الصحفيين يسأله مقالا لجريدته .. ورغم أن الزميل عرض ثمنا طيبا للمقال فقد اعتذر توفيق الحكيم بأن ليس لديه ما يقوله فى المقال ودهشت وقلت له أن الحديث الذى القاه علينا يمكن أن يفصل منه عشر مقالات .. وحسبت ثمن الحديث باعتبار أن المقال سعره ٢٥ جنيها فاتضح له أنه تحدث بمائتين وخمسين جنيها .. وقلت له أنى سأحضر فى سهرتنا القادمة كاتبا أو جهاز تسجيل لتسجيل حديثه ثم تفصيصه وبيعه بالمقالة بشرط أن أستولى على عمولة محترمة . ولكنه أكد لى أنه لو أحس أن هناك من يسجل كلامه فسيفقد قدرته على الحديث وسيجىء مفتعلا متكلفا ..

ويبدو لى أن معظم الكتاب .. اقرب بطبيعتهم الى توفيق الحكيم .. فهم أشد إحساسا بالطمأنينة .. فى خلوتهم مع « أوراقهم » وقلمهم .. وهم فى حالتهم تلك يكونون أقدر على .. الانطلاق .. والانفعال .. والتأثير فى نفوس الغير .. منهم فى مواجهة الجماهير .

وقد رأيت احسان عبد القدوس في مؤتمر الادباء صامتا .. لا يفعل اكثر من أن ينفخ أو يزفر .. أو يدخن .. وأنا أعرف أن صمته لم يكن عن زهد فى الكلام .. أو عدم انفعال بما يقال .. لأنى واثق أن هناك أشياء كثيرة .. كان احسان يجب أن يقولها .. ورغم ذلك فقد صمت .. ولم يحاول أن يخرج ليواجه جمهور المؤتمر .. ويحدثهم بما يدور فى رأسه .. لأنه وجد فى المواجهة أمر لم يعتده لأنه تعود مواجهة الجماهير وراء حجاب من صفحات « روزا اليوسف » أما المواجهة المباشرة ففيها مشقة على نفسه .. لا حاجة به الى أن يتكلفها .. لا سيما وهو يعلم .. أن المواجهة غير المباشرة .. هى عمله الاصلى .. وأنها معدة أمامه يستطيع فى كل وقت أن ينفس بها عما فى صدره .

ولم يكن أنيس منصور .. بأكثر من احسان كلاما .. ولم يحاول أن يواجه فى المؤتمر أكثر من الشيخ نعمان أديب اليمن .. وأن يتبادل وأياه « والله

لقد ضللت » « والله لقد فضحتنا » وأذكر أنى رأيت أنيس يقفز من فراشه فجأة ويقول لى فى حماس :

- اسمع .. أنا حارد على محمود العالم .. أنا حاقول كذا .. وكذا ..

واندفع يردد لى ما ينوى أن يقوله فى الرد على العالم وأخيرا سألنى :

- ها .. ايه رأيك .. أرد ؟

وأجبته بهدوء :

- رد .. بس ما تتهورش ..

- أنا مش حاتهور .. أنا حاقول .. كذا .. وكذا ..

واندفع مرة أخرى يردد لى ما سينوى قوله :

ثم عاد يسألنى مرة ثانية :

ها .. أرد ؟

- يا أخى قلت لك رد ؟

وبعد لحظة وجدته يقبل على ويسألنى :

- ما تقوللى بقى .. أرد ولا مردش ؟

- ما قولتلك رد .. أقولك ايه اكتر من كده ..

وفى طريقنا الى اجتماع المؤتمر وجدته يهز رأسه ويقول ببساطة :

واللا أقولك .. أنا مش حارد .. أنا حاكتب اللى عايز أقوله .

وأنا أعرف أنه لم يكن سيرد .. رغم أنه كان يريد أن يرد .. ورغم أنه كان يعرف جيدا ما يريد أن يرد به .

وكنت أعرف كذلك أنه يسألنى لأقول له لا ترد فأمنحه سببا لعدم الرد يريح به ضميره .. ويعتذر به لنفسه .. ولكننى لم أمنحه اياه .. وتركته .. ليعلن ببساطة أنه يفضل أن يكتب ما يريد .. بدل أن يقوله .

وانيس منصور .. كان مدرسا بالجامعة .. واجه آلاف الطلبة بضع سنين فى محاضراته .. وهو من أطول الناس لسانا - بعدى - فى كتابته .. ومع ذلك فضل أن يواجه الجماهير من وراء صحائفه .. بدل من أن يواجهها مواجهة مباشرة .

ومحمود العالم ألقى فى محاضرته بطريقة ممتازة .. ومع ذلك فقد قال لى فى نهاية المحاضرة « لقد نسيت بعض أسماء .. لأنى كنت مرتبكا جدا » .

وكان أجرأ الكتاب فى الحديث يوسف ادريس .. قال كل ما فى نفسه .. وباللغة العربية .. ومرتين .. مرة بالياء .. ومرة بالواو .. قال .. الواقعيين .. ثم الواقعيون .. من باب الاحتياط .. وكان علينا أن نختار الصح .. منهما .. أنا شخصيا .. لم أعرف ابدا ايهما الصح ..

وتحدث عبد الحليم .. بطريقة متزنة هادئة .. لست أعلم .. هل أخفت وراءها ارتباكا .. أم ثباتا .. ولكنه كان سليم الرأى والمنطق واللغة .

والقى رامى بعض قصائده .. وهو من أجمل الناس روحا وقلبا .. وهو نموذج للنوع الآخر من الادباء .. القدير على مواجهة الجماهير .. لقد منح القاؤه شعره جمالا وروعة ..

ولم تتكلم أمينة السعيد فى المؤتمر .. لم أرها وهى تواجه الجماهير .. وإن كنت اعتقد من براعة حديثها وسط شلل الأصدقاء .. أنها لن تعجز عن مواجهتهم .

والقت الشاعرة العراقية نازك الملائكة بعض قصائدها .. فخذل القاؤها شعرها .. وخذل المستمعون فيها وفيه .. لقد منحها المستمعون من الترحيب وحسن الاستقبال قبل الالقاء ما كان خليقا بأن يمنحها الثقة التى تزيل اضطرابها .. وبدأت حديثها بالاعتذار بالزكام .. واعتقد أن الجمهور قد قبل زكامها ببساطة .. ولكن الشىء الذى لم يقبله هو ارتباكها المفرط .. الذى تركها تلقى قصائدها .. وكأنها تلميذ فى الروضة .. يكاد يتهجى .. وعندما انتهت من القائها أغلقت الديوان وهبطت تتعثر كأنها ارتكبت ذنبا ..

ولقد كان شوقى .. الشاعر .. أسوأ من يلقى شعره .. وكان أحد شعراء العرب وأظنه البحترى .. يطوف على الناس بعد أن ينظم قصائده .. ليحفظوها .. ثم يلقوها عليه .. فيستمتع بسماعها ..

بقى هناك مخلوق .. لم أتحدث عنه .. وأنا أدرى الناس به .. وهو أنا .. أنا .. باختصار .. اسوأ من واجه الجماهير .. فأنا أحب أن أجلس وارقب .. لا أن يتفرج الناس على .. ويرقبونى ..

ولقد حاولو قبل المؤتمر أن يورطونى فى محاضرة فرفضت رفضا باتا .. لأنى لا أحب مواجهة الجماهير . ومع ذلك لم نكد نصل الى دمشق حتى وجدت نفسى قد تورطت فجأة فيما هو شر من المحاضرة .

لقد طلبوا منى أن أقول كلمة الوفد المصرى أمام رئيس جمهورية سوريا .. وقلت لنفسى جالك الموت يا تارك الصلاة .. وقلت لرامى أنت أكبرنا سنا .. فقل أنت الكلمة ..وهز رامى رأسه بعنف وقال .. أنا لا أقول الا شعرا !!

ولم يكن بالطبع مطلوب من الوفد أن تكون كلمته « هلت ليالى « القمر » أو « غلبت أصالح فى روحى » ووجدت نفسى أمام الأمر الواقع .. فكتبت الكلمة .. وكانت كتابتها أيسر ما فى الأمر .. وخشيت أن أخطىء فى التشكيل فطلبت من عبد الحليم عبد الله أن يشكلها بالأحمر حتى يكون الشكل واضحا .. وجلست أهون المسألة على نفسى قائلا أنى سأقرؤها من الورق .. ولن تزيد المسألة على بضع دقائق ..

وبدأ الحفل .. جماهير .. وميكروفونات وأضواء كاميرات .. ورئيس جمهورية .. ورئيس وزراء .. ووزراء .. وأدباء وهيصة ..

وبدأ رؤساء الوفود يتوالون على المنبر ويصيحون ويخطبون وأنا سارح .. أردد لنفسى « يعنى كان مالى أنا ومال الحاجات دى .. ذنبى إيه أنا اتورط الورطة دى .. » .

وأقسمت فى نفسى أن يكون هذا هو آخر مؤتمر أدباء أحضره .. يكفى

جدا .. أن أجلس على مكتبى وأكتب لا يرانى أحد .: ولا أرى أحدا .

وطاف بذهنى .. أن أهرب .. أجرى فى المؤتمر .. ولكن قبل أن تتبلور الفكرة فى ذهنى دعيت الى الميكروفون .

ووضعت بوزى فى الميكروفون .. ولم أنظر الى أحد .. وهات يا قراءة ..

وسمعت الناس يصفقون .. لم أدر لـم .. واندفعت فى القراءة .. لم أبادلهم اعجابا باعجاب .. فقد كنت غير معجب بهم البته .. كان كل ما يهمنى أن أنتهى من قراءة الخطبة .. وأفر من نظراتهم المسلطة على ..

وأخيرا .. وصلت الى « والسلام عليكم ورحمة الله .. وسمعت التصفيق ثانية ..

وعدوت من المنصة .. واندسست ثانية بين الصفوف .. وتنفست الصعداء ..

ان مواجهة الاديب للناس مشكلة كبرى .. أنه خلق ليراقب .. لا لكى يوضع تحت المراقبة ؟ !

معذور توفيق الحكيم .

ليلة فوق حمار

أيقنت هذا الاسبوع أن الحمار حيوان ممتاز فى مركزه لدى ابن آدم .. وفى علاقته الذهنية والقلبية به .. وقد أثبتت لى الأدلة والقرائن .. أن هناك استلطافا لا شك فيه بين الانسان والحمار .. وأن الانسان عندما يترك على سجيته ويرفع عن نفسه حجاب الكلفة .. فإنه لا يتورع عن اعلان عاطفة الاستلطاف التى يكنها للحمار .

وجحا وحماره .. دليل قديم .. على مابين الاثنين من علاقة ود .. وحوادثهما معا ، تشهد بمدى تقدير الفيلسوف الضاحك لحماره ، واعجابه به .

وحمار الحكيم .. دليل عصرى على استمرار علاقة الود والتقدير .. وقد خيل الى فى بادىء الأمر أن علاقة التقدير هذه بين الحكيم وحماره علاقة على الورق .. وأن الحمار شخصية وهمية ابتكرها الحكيم .. ومنحها من المزايا .. ما هيأ له الكلف بها والتقدير لها ..

كنت اعتقد ذلك ، حتى ثبت لى أن ولع الحكيم بالحمار .. ولع حقيقى ، لا تصنع فيه ولا ادعاء .. عندما صعد الى سكرتيره الزميل محمود يوسف ينبئنى أن توفيق الحكيم ، حمله رسالة الى ، وأنه حائر كيف يبلغها لى .

وبعد تردد . أنبأتى بمضمون الرسالة .. وهو أن توفيق الحكيم عثر على حمارين صغيرين ، أو على وجه ادق حمار صغير وسيسى فى حجم الديك الرومى وهو فى طريقه الى المنزل ، وأنه أوقف العربة وعاد اليهما ووقف

يتأملهما مليا في اعجاب وأنه فاوض صاحبهما في شرائهما وأن المفاوضة لم تسفر عن اتفاق ، فقرر توفيق الحكيم أن خير طريقة للحصول على أحدهما أو على كليهما ، هو أن اشتريهما .. أنا !!

وسألت محمود يوسف في دهشة :

- اشتريهما أنا ؟ !! أنا أشترى حمارين !!

وبدت لى المسألة مذهلة .. فأنا لم يسبق لى هواية الحمير أو الاتجار بها ..

وتخيلت منظرى وأنا مقبل على البيت بحمارين .. وتصورت الاستقبال الذى يمكن أن أستقبل به فى البيت .. فلم أملك الا أن أنفى الخاطر عن نفسى بشدة .. وأبدى استنكارى لقرار الحكيم الخاص بتوكيلى فى عملية شراء الحمارين .

وبدا للاخ محمود يوسف أن يخفف لى وقع المسألة .. وييسر لى تنفيذها .. فعرض على أن يبقى الحماران فى حديقة المجلس !

وعدت اتصور الحمارين يرتعان فى الحديقة ، ثم تزداد بهما ألفة المجلس ، فيطوفان بأروقته ، ويجلسان فى حجراته .. والمصورون الصحفيون يلاحقونهما .. والأضواء تشرق وراءهما .. وصورهما تحتل الصحف .. وشهرتهما تطبق الآفاق . وتخيلت التشنيعات التى يمكن أن تصاحبهما .. والتى يمكن أن يضيع المجلس بعدها هدرا .. واندفعت اهبط الدرج الى حجرة الحكيم ، حتى أوضح له خطورة رغبته .. وأزيل من ذهنه كل أمل فى شراء الحمارين .. وأقطع عليه كل علاقة ود .. وصلة استلطاف ، يمكن أن تقوم بينه وبين الحمير .. على الاقل طيلة مدة وجوده بالمجلس .

ولقينى الحكيم ضاحكا .. وأخذ يحدثنى عن الحمارين ولطف شكلهما ، وخفة دمهما .. وأصر على أن يرينى اياهما .

وبعد انتهاء العمل .. اقلتنا العربة .. الى مربط الحمارين .. حيث وقفا وصاحبهما وراء نادى الجزيرة .

ووقف توفيق الحكيم يتأملهما فى اعجاب .. ويشرح لى مزاياهما .. وبدأ يركز اهتمامه فى اصغرهما سنا وأضألهما حجما .. جحش اسود لا يتجاوز حجمه حجم الكلب .. مع رأس كبير لا تكاد تقوى على حمله سيقانه !

وبدأت المساومة من جديد .. وأخذ الحكيم يقلل من مزايا الجحش .. ويحقر من شأنه .. ويعدد مساوئه ثم سأل صاحبه عن آخر سعر يريده ، فطلب ثلاثة جنيهات . فنقل الحكيم نظره بين الرجل والجحش ، وقال فى استخفاف :

- ثلاثة جنيه ايه .. هو قادر يمشى ؟

ورد عليه الرجل مستنكرا :

- قادر يمشى ؟ يا بيه دا جاى من شبرا البلد لغاية هنا ماشى .

وبدا لى كان الحكيم قد اقتنع باجابة الرجل .. وأن الحمار اثبت جدارته وكفاءته بالمشوار الذى قطعه من شبرا الى الجزيرة .. سيرا على الاقدام .. وبدا الحكيم يدخل فى التفاصيل ..

فسأل الرجل قائلا :

- ودا بياكل ايه ..

وبمنتهى البساطة اجابه :

- الصبح .. تديله رطلين لبن .. والظهر .. تد ..

- طيب بس .. بس كفاية .

وقبل أن يسمع بقية برنامج طعام الحمار .. كان قد غادر الرجل وجرى الى العربة وهو يردد :

- دا يعنى عايز له ميزانية أكل لوحده .. خليه لما يكبر شوية .. وسارت بنا العربة .. والحكيم يتلفت وراءه مودعا الحمار .. وقد بدا عليه اسف غير متكلف .. وضيق غير مدعى .. وهو ينظر الى وكأنه يستنجد بى .. وكان حقوق الزمالة والصداقة تحتم على أن أيسر له الأمر .. فأتكفل بتوريد رطلى اللبن يوميا - على سبيل المعونة الاقتصادية - لارضاع الحمار .

ومرت الحادثة بسلام .. وأيقنت .. بعد الفرقة التى أوقعتها بين الحكيم والحمار الرضيع .. وشعور الحرمان الذى تسببت له فيه .. بأن علاقة الود والاستلطاف بين الانسان والحمار .. علاقة وثيقة أكيده ..

ولم تكد تمضى بضعة ايام .. حتى سمعت ما أكد هذا اليقين .. وما جعلنى أومن بأن علاقة الود هذه .. غير مقصورة على الفلاسفة والمفكرين .. وإنما هى تمتد الى بقية عباد الله .. عندما ترفع عن نفوسهم حجب التكليف .. وينطلقون على سجيتهم يفعلون ما يشتهون .. ويفصحون عما يسرون .. ويعلنون عما يضمرون .

كان دليل الصداقة فى هذه المرة .. صديقا قديما .. جرت سيرته بيننا .. وقد ضمتنا صحبة من الاصدقاء .. أخذنا نتحدث عن ذكريات الصبا .

ونكرناه فيمن نكرنا .. وكنت أعرفه منذ الدراسة .. كان أخف الناس دما .. وكنت اعرف مقعده المختار بعد التخرج فى بار سيسيل .

وتحدث عنه صديق طالت زمالته له .. وأخذ يقص علينا كيف عمل واياه فى معسكر الدخيلة بالاسكندرية .. وكيف كانت سهراتهماتطول .. ويتركان العربات تعود الواحدة بعد الاخرى الى المعسكر .. حتى يظلا وحدهما بلا عربة ويضطرا الى العودة من الاسكندرية الى الدخيلة سيرا على الاقدام .. فيصلاها قُرب الفجر .. ويجدا أن خير طريقة ليقويا على مواصلة عملهما فى الصباح المبكر .. هو أن يلقيا بنفسيهما فى البحر .. لكى يفيقا ويتجدد نشاطهما .

وحدثنا الصديق عن سهراتهما فى بيت أم مارى ، وكيف كانت تأبى أن تفتح الباب قبل أن تتأكد من عدم وجود صاحبنا .. وكيف كان يختفى وراء الباب ليدلف كالفار بمجرد أن تفتحه .

وصمت صديقنا .. وسرح برهة ثم أطلق ضحكة قصيرة .. وبدأ قصته ..

ولأتركه يتحدث ، ليرويها كما رواها لنا ..

« كان الوقت قد تأخر .. ولم يبق لنا سوى العربة الأخيرة ، لكى تعود بنا الى المعسكر .. وكانت الشلة كلها قد عادت .. ولم يبق على البار سوانا .

وعندما حان موعد عودة العربة .. هز رأسه ببساطة وأجاب :

- سنأخذ العربة التى بعدها .

- هذه آخر عربة ..

- اتركها تعود .. سنتمشى !

ولكنى لم أكن فى حالة تشجع على السير ولا أظنه كان خيرا منى ، فجررته من ذراعه .. وكان أعجز من أن يقاوم .. ووضعته فى العربة .. وأمرت السائق بالسير .. ووصلت العربة الى المعسكر الذى اعمل فيه .. فهبطت منها . وأمرت السائق أن يوصله الى معسكره ثم يعود الى الجاراج .

وفى الصباح رأيت السائق مقبلا على .. أحمر العين .. وهو يكاد يتهاوى الى الارض من فرط الاعياء ..

وظننته محموما .. سألته فى دهشة عما به . فأجاب بأنه لم ينم ، وخشيت أن يكون قد وقع لصاحبى مكروه .. فسألته فى لهفة ألم يوصله ؟ فأجاب بأنه قضى طيلة الليلة فى ايصاله ، وأنه قد عاد الآن فقط ..

وبدأ السائق يوضح الأمر قائلا: أنه لم يكد يتركنى سائرا فى طريقه الى حجرة صاحبى ، حتى مر بحمار يقف على جانب الطريق .. ولم يكد صاحبى يراه حتى أمره بالوقوف ! وأصر على أن يركب الحمار .. وعبثا حاول السائق أن يفهم أن العربة أسرع وأكثر راحة .. وأن الوقت متأخر .. وأنه ليس هناك أبدا ما يبرر عودته على ظهر الحمار .

ولكنه كان قد صمم .. ولم يكن هناك جدوى من اقناعه .. وترك العربة .. واتجه الى الحمار فامتطاه.. ولم يستطع السائق أن يتركهما وحيدين .. وأحدهما حمار .. والثانى مبسوط .. ولم يستطع كذلك أن يترك العربة فى هذا الفراغ ، وفى هذا الوقت .. فاضطر الى أن يهبط من العربة ، ليقود الحمار .. ثم يترك الحمار ليعود فيلحق بالعربة .. وهكذا قضى الليل ..

(ليلة حمر)

وهو يتنقل بين الحمار والعربة .. وصاحبنا مستقر على ظهر الحمار .. مستريح أربعة وعشرين قيراطا .

وأخيرا وصل الى الميس ، وتنفس السائق الصعداء .. وقال له راجيا :

- اتفضل ياسعادة البيه .. احنا وصلنا .

ولكن سعادة البيه لم ينزل من فوق ظهر الحمار .. وأصر بمنتهى البساطة ، على أن يدخل الميس بالحمار .

والميس مرتفع عن الارض ببسطة لا تقل عن نصف متر .. والحمار لا يمكنه أبدا أن يصعدها .. وصاحبنا يأبى النزول ، ويصر على أن يوصله الحمار حتى باب حجرته !

ورجاه السائق عبثا .. وهو مصر على رغبته ، وأيقظت المناقشة بعض الزملاء .. وخرجوا من الميس ليروا المسألة فوجدوا صاحبنا على ظهر الحمار ، والسائق يحاول أن يغريه بالنزول .

ويئس الزملاء من اقناعه بالنزول .. فلم يجدوا وسيلة لانهاء الليلة على خير .. سوى أن يحملوه بالحمار ليضعوهما فوق البسطة ويجروا الحمار حتى باب حجرته ..

وتكاتف الزملاء مع السائق .. واستطاعوا بعد جهد شديد ، أن يحملوه بحماره ، ويقودوه حتى الباب .

وانتظر الزملاء أن يهبط من فوق الحمار .. ويدخل حجرته وفعلا هبط من فوق الحمار .. ودخل الحجرة .. ولكن .. ليس وحده .. بل ومعه الحمار !

أجل .. لقد أصر .. على أن لا يترك الحمار وحيدا فى البرد والظلمة .. وصمم على أن ينام الحمار معه فى الحجرة ..

« يا سيدنا عيب .. كفاية كده .. ميصحش خش نام بقى » .

ولكنه رفض رفضا باتا .. وأصر على أن ينام الحمار معه !

وكان لا بد لهم أن يوافقوه حتى تنتهى الليلة على خير .

ودخل الحمار الحجرة .. وظل واقفا .. فظل صاحبنا واقفا .. بجواره .. يأبى أن ينام حتى ينام الحمار .

ولم يجد الزملاء بدا من السير فى المسألة حتى النهاية .. فهجموا على الحمار وطرحوه أرضا ، وأوثقوا أقدامه وأكرهوه على الرقاد ! وهنا رقد صاحبنا بجواره مرتاحا قرير العين ، ونام ليلته ملء جفونه .

أبعد هذا ود واستلطاف ، بين الانسان والحمار .

حالة غباء

كنا فى طريقنا الى الأوبرا لنشاهد فرقة الفنون الشعبية المصرية وسادت بيننا لحظة صمت ، شرد خلالها الأستاذ توفيق الحكيم .. ثم فاجأنى بقوله :

- تعرف أن الانسان بيصاب بعض ساحات بحالة غباوة عجيبة !

وكنت أعرف هذا .. أعرفه على الأقل فى نفسى .. ولكنى لم أكن أعرفه فى توفيق الحكيم .

ومرت بخاطرى فى لمح البرق .. حادثة غباوة وقعت فى إحدى ساعات التجلى التى تحدث عنها توفيق الحكيم .

وقعت الحادثة فى صباى .. أو على الأصح فى طفولتى .. وأنا لم أزل بعد فى العاشرة .. وما زالت العائلة تذكرها حتى الآن .. وتذكرنى بها كلما بدت على مخائل نجابة .. أو بدرت منى بوادر ذكاء .

وأقربها منذ بضعة أسابيع عندما حضر الى أخى محمود ليذكرنى بها ، بعد أن قرأ فى الجمهورية خبرا صغيرا فى باب « كل يوم » أن أحد كبار الكتاب قال عنى أننى أذكى انسان فى الشرق الأوسط . ولم أكن بالطبع مسئولا عن خطأ الكاتب الكبير وخديعته فى وحسن ظنه بى .. ولا كنت أعرف حتى من يكون ، ولا سبب وهمه فى ذكائى بل أخذتها على أنها تشنيعة من محرر باب كل يوم .. واكتفيت بالصهينة .. وبترديد قول القائل « لا يغلبن جهل الناس بك علمك بنفسك » .

ومع ذلك لم يسلم الأمر ممن يذكرنى بغبائى .. أو بحالات الغباء التى أصاب بها .. والتى لا يمكن أن تلتقى مع حسن ظن الكاتب الكبير بى .. وحمل الى أخى محمود جريدة الجمهورية وأشار الى الخبر ثم تساءل متخابثا :

- فاكر حكاية عبد الحليم الدكر ؟

وأجبته ضاحكا :

- فاكر ...

وعبد الحليم الدكر .. مقاول .. أو هكذا منذ ثلاثين عاما .. وقصتى معه ، التى يدللون بها على غبائى ، هو أنه زارنا مرة للاتفاق على عملية لا أذكرها بالضبط .. ويبدو أنه لم يحدث اتفاق بينه وبين أهل البيت فخرج والمسألة ما زالت معلقة .. فطلب منى بعد أن خرج أن ألحق به لأبلغه شيئا .. أغلب الظن أنه زيادة فى السعر المعروض أو شىء من هذا القبيل ..

وكان المقاول يصطحب انسانا لا أعرف من يكون .. قد يكون مهندسا ، أو قد يكون أحد معاونيه .. وكان المطلوب منى الا ابلغ المقاول الشىء المطلوب إبلاغه الا بعد أن يفارقه .

ولم تكن المسألة برمتها تعنى لدى شيئا .. لا الموضوع ولا المقاول ولا صاحبه .. كنت اعرف أن المطلوب منى فقط هو أن الحق بالمقاول وأبلغه كلاما بعد أن ينصرف عنه صاحبه .

وخرجت وراء المقاول .. وكانت الساعة حوالى الخامسة بعد الظهر .. ولم يكن مفروضا أن تستغرق المهمة أكثر من بضع دقائق ..

وعندما عدت الى البيت .. كانت الساعة قد بلغت الثامنة .. ووجدت البيت مقلوبا..وأخوى قد انطلقا للبحث عنى..والبلاغات عن غيابى توشك أن ترسل الى اقسام البوليس .. والبحث عنى يوشك أن ينتقل من شوارع روض الفرج .. الى الاسعاف ومشرحة زينهم .

وقوبلت بضجة .. وصاح الجميع بى :

- كنت فين .

وأدهشتنى ضجتهم وقلت لهم متسائلا فى برود :

- انتوا مش بعتونى ورا المقاول ؟ .

- أيوه ..

- مش قلتولى ماتكلموش الا لما يسيبه الراجل اللى معاه ؟

- ايوه ..

- طيب أهو لغاية دلوقت ما سابوش !!

وفعلا .. وقف الرجل مع المقاول على ناصية الشارع يتنافسان . ووقفت انتظر انتهاء المناقشة وانصراف الرجل .. وبعد نصف ساعة وجدتهما يتصافحان فأحسست بالفرج بعد طول انتظار .. ولكنى وجدتهما يتحادثان برهة .. ثم يتأبط كل منهما ذراع الآخر ويسيران تجاه دوران شبرا ..

وسرت وراءهما .. منتظرا افتراقهما حتى أبلغ المقاول ما اريد .. ولكنهما بدل أن يفترقا .. استقر بهما المقام على مقهى فى شارع شبرا .. ووقفت على الرصيف الآخر أرقبهما وهما يدخنان الشيشة فى استمتاع وتمهل .

وأخيرا .. أخيرا جدا .. نهضا .. وانتظرت أن يودع كل منهما الآخر ويفترقا .. ولكنهما عاودا التأبط والسير فى شارع شبرا ..

وكأى مخلوق امين مطيع..سرت وراءهما..كثيرا؟..حتى محطة مصر.

وعبرا كوبرى شبرا .. وعبرته وراءهما .. وأنا أسائل نفسى : متى ينويان الافتراق ..

وفى ميدان المحطة وقفا على محطة الترام .. ووجدت الفرج يوشك أن يحل .. وتوقعت - أو تمنيت على وجه أدق - أن يركب الرجل الترام ويترك لى المقاول أخيرا .. لأبلغه الرسالة .

وحضر الترام .. وركب الرجل .. وبمنتهى البساطة ركب وراءه المقاول ..

وتحرك الترام .. وأنا انظر الى الاثنين في يأس .. ثم عدت أدراجى أتمشى فى شارع شبرا .. حتى وصلت الى البيت فى روض الفرج ..

ولست أدرى حتى الآن .. أكنت غبيا الى الحد الذى وصمونى به .. أم أن أى انسان فى موضعى كان سيتصرف نفس التصرف !

مر كل هذا فى ذهنى مرور البرق .. وتوفيق الحكيم ينتظر منى أن أعلق على ملاحظته .. عن حالات الغباء التى يصاب بها كل انسان .

وأجبته ببساطة :

- معاك حق .. لكن أنت بتجيلك الحالات دى ؟

فهز رأسه وأجاب :

- أقربها .. الجمعة اللى فاتت بس ..

وبدأ توفيق الحكيم يقص على آخر حالات الغباء عنده ..

كان عائدا من الاسكندرية .. فى أوائل الشهر ليقضى فى القاهرة يومين .. وكانت العائلة تقيم فى الاسكندرية والبيت مغلق .. وكان عليه أن يعيش فى البيت وحيدا .. ولم يجد المسألة عسيرة .. إذ لم يكن عليه أن يمضى فى البيت غير سواد الليل ...

ووصل الى البيت فى الساعة التاسعة .. وفى طريقه الى الباب تذكر فلوس النور .. هل دفعها أم نسى أن يدفعها ؟ .. وإذا كان قد نسى دفعها فهل أنذرته الشركة بقطع النور أم هل قطعته فعلا ؟

لا بد أنها تستذوق وترسل له انذارا أولا ..

ولكن هبها لم تستذوق وقطعت النور .. ماذا يفعل .. كيف يقضى ليلته بلا نور ؟ .. انه يذكر الطريق الى حجرته ويستطيع الوصول اليها لو أن البيت فى حالته الطبيعية . ولكن الآن السجاجيد مرفوعة والاثاث مكوم .. ومعالم البيت قد تغيرت .. كيف يستطيع الوصول الى فراشه .. ويعرض نفسه

للاصطدام والكعبلة .. ان آأمن طريقة هى أن ينام وراء الباب مباشرة حتى الصباح .

ولكن لماذا كل هذه الوسوسة .. الا يحتمل أن يكون قد دفع الفلوس .. أو يحتمل أن تكون الشركة استذوقت باعتبار أنه فى المصيف .

أجل .. أجل .. يحتمل جدا ..

وأعاد الطمأنينة الى نفسه وتقدم .. ودفع المفتاح فى الباب ثم فتحه .. وقبل أن يخطو خطوة الى الداخل مد يده وضغط زر الكهرباء الموجود فى الدهليز وراء الباب ..

ولم يضىء الدهليز ..

وضغطه .. ثم أعاد ضغطه ..

واستمر البيت مغرقا فى الظلام ..

وهكذا وقع المقدور .. وتحققت الوساوس ..

وبحلق بعينيه الى الداخل .. فلم يبصر شيئا .. لا شىء البته .. لا جدران ولا ارض ولا سقف ولا أثاث .. لقد كانت الظلمة فظيعة .. وكان الدخول مستحيلا ..

وأغلق الباب .. وعاد ادراجه .. ونادى البواب .. وأخرج من جيبه خمسة قروش وسأله أن يحضر بها شمعا ..

أجل .. ليس هناك مخرج سوى هذا ..

ووقف الحكيم أمام الباب .. وكأنه على بابا أمام باب الكهف وبعد برهة حضر البواب وسلمه شمعة واربعة قروش ونصف قرش .

وأضاء الشمعة .. ثم فتح الباب ودخل .. وبدت معالم الشقة باهتة تهتز على ضوء الشمعة .. على أية حال انها خير من الظلمة ..

المهم أن يحتفظ بها مضيئة حتى يأوى الى فراشه .. ووضع الشمعة على المنضدة .. وبدت له وقد أخذت تذوب ويتساقط ذوبها على حافتها ثم ينزلق

على المنضدة ..

وبعدين .. مالها .. تذوب بمثل هذه السرعة يجب عليها أن تتمهل حتى يخلع ملابسه ويعد نفسه للنوم .

واتجه الى الدولاب .. ثم بدأ يخلع ملابسه .

والقى عليها نظرة ، فخيل اليه أنها قد انقرضت الى النصف .. ولم يزل أمامه الكثير مما يفعله ..

وبدأ سباق بينه وبين الشمعة ..

وساءل نفسه : لماذا لم يحضر هذا البواب الأحمق بضع شمعات .. لو أنه فعل لاطمأن قلبه واستطاع أن يضيء من حجرات البيت أكثر مما أضاء ، ولما اضطر الى أن يحمل الشمعة فى كل روحة له وغدوة .. ولما احتمل لسعتها عندما يسقط ذوبها فوق اصابعه .

لقد ابتاع له البواب شمعة واحدة .. بقرش أبيض .. انه يعرفه جيدا .. يعرف مبادئه وحدوده .. لقد تعود أن يبتاع له ترمسا بقرش .. فلماذا يبتاع له شمعا بأكثر من قرش ..

ولكن الترمس ليس كالشمع .. أنها مسألة ظلام أو نور .. هل يكثر عليه أن يبتاع بخمسة قروش نورا ؟ ..

لعنة الله عليه ..

وأخيرا ذابت الشمعة .. وآوى الحكيم الى فراشه على آخر لمحة ضوء ارسلتها فى البيت ..

وفى الصباح استيقظ .. ثم بدأ يلم أوراقه وسحب عصاه .. وقبل أن يهم بمغادرة الحجرة ارتطمت العصا بمفتاح الكهرباء ..

وبمنتهى البساطة أضيئت الحجرة .. الله .. ايه الحكاية ؟ ..

ويتمتم توفيق الحكيم القصة أو الحالة قائلا :

- اتارى الدهليز مافيهش لمبة .. واتارينى ضيعت الليلة كلها وأنا دايخ

مع الشمعة .. والنور موجود فى البيت كله .. ولا خطرش فى بالى أجرب أى زر تانى غير زر الدهليز .. بالذمة .. دى مش غباوة !!

وكان على أن اتعظ من درس الحكيم .. فأتبين بعد ذلك حالات الغباوة التى يمكن أن يصاب بها الانسان من هذا القبيل .

ولكن حدث وأنا فى بلودان .. أن استيقظت فى الصباح الباكر ، وكان أنيس منصور ينزل معى فى نفس الحجرة .. وسألته قائلا :

– فيه مية سخنة فى الحنفيات يا أنيس ؟

وأجابنى وهو نصف مغمض :

– امبارح الصبح كان فيه ..

ودخلت الحمام .. ووقفت تحت الدش وفتحت حنفية الماء الساخن .. فنزل الماء باردا .. وانتظرت أن تنتهى دفعة الماء البارد من المواسير ثم يعقبها الماء الساخن ..

وطال انتظارى وأنا اتكتك تحت الدش .. والماء فى بلودان ليس ماء باردا فقط ولكنه مثلج .. وكان على أن أحتمل واتمم الاستحمام بالماء المثلج .. وكلما أحسست بقرصة البرد صحت بأعلى صوتى « الله يخرب بيتك يا أنيس » .. كأنما هو المسئول عن حنفيات الفندق .

وأخيرا انتهى العذاب وارتديت ملابسى .. وقبل أن أغادر الحمام مددت يدى أغسل الصابونة .. ولم أجد مبررا لاستعمال الحنفية الساخنة ما دامت هى والباردة سواء .. وفتحت الحنفية الباردة فإذا بمياهها تلسع يدى من فرط السخونة .

يا نهار أسود ..

لقد كانت الحنفيات موضوعة خطأ .. كان على الحنفية الباردة حرف H أى حارة ، وعلى الحارة حرف C أى باردة .

أما لماذا أحاول أن أجرب الاثنتين .. مع علمى بأن هذا الخطأ يحدث فى كل البيوت .. فلا أظنها أكثر من حالة غباء .

معدم بين المعدمين

هل ينبغى أن يظل الكاتب معدما لكى يكتب عن المعدمين؟

وهل يجب أن يتشبث بالبؤس لكى يفهم أحاسيس البؤساء ويعبر عن مشاعرهم؟!

لقد كتب الى الأخ محمد عبد العزيز الزغبى من جامعة عين شمس، يعترض على عندما تمنيت ذات مرة أن أبنى فيللا اقطنها. وشرح وجهة نظره قائلا:

«انى اريدك أن تظل كما أنت تكتب من أجل الشعب التعس . انى أكره أن اراك ترتفع الى الطبقة الارستقراطية ، بل اريدك أن تظل حيث أنت. ولا أقول فقيرا.. لأنك لست فقيرا. لا أريدك أن تكتب وانت فى حجرة المكتب الفاخرة فى الفيللا الانيقة ، بل تكتب وأنت جالس فى مقر عملك أو فى حجرة متواضعة فى شقة تستأجرها. فأنا أكره أن أتصورك تستيقظ وتدق الجرس فيحضر الخادم وتطلب منه أن يأمر السائق بأن يعد السيارة لأنك خارج ، بل أريدك أن تستيقظ وتسير حتى محطة الأوتوبيس وتجد الاتوبيس مزدحما فتضطر الى أن تتشعبط مع باقى مواطنيك.

رحمة الله على الكتاب الذين بدأوا فقراء ثم امتلكوا وارتفعوا وتغطرسوا وتركوا كفاحهم الأول.

وتقبل تحياتى وأشواقى ورجائى أن تظل كما أنت.. ولا أقول فقيرا

لأنك لست فقيرا. وإن كنت افضل لو كنت فقيرا معدما.. أن الأدب الصحيح فى نظرى هو الذى يكتبه المعدمون من أجل المعدمين ...» .

وتحقيق رجاء الأخ فى أن أبقى كما أنا .. أمر غير عسير .. بل أغلب الظن أنى بغير رجائه باقى كما أنا .. فمستقبلى فى عالم الثراء - ما لم أكسب يانصيبا أو أعثر على كنز - مستقبل غير زاهر .. فمهنة الكتابة ليست من مهن الثراء الفاحش التى يخشى على الأخ القارىء من أخطاره الداهمة .. التى قد تؤدى الى انتزاعي من طبقة المعدمين الى الطبقة الارستقراطية .

ومع ذلك فأنا اتساءل عما كان يمكن أن يحدث لو أن الكتابة حقا مهنة مريحة .. وأن القارىء عندنا يشترى الكتاب ولا يقترضه ، وان الكتاب الواحد لا يشتريه واحد ويقرؤه خمسون بل يتساوى فى الاعتبار بتذكرة السينما والبطيخة وماتش الكرة .. وتصبح المكتبة فى كل بيت جزءا أساسيا منه كالمطبخ .. وحجرة الاستقبال .. وتحتل ميزانية الكتب جزءا من ميزانية كل بيت .. مع الطعام واللبس والسكن والنزهة ..

ماذا يحدث عندما تمحى الامية .. أمية الجاهلين وأمية المتعلمين ويصبح لدينا مليون قارىء .. وتصبح طبعة الكتاب الناجح لا تقل عن نصف مليون نسخة ؟

ماذا يمكن أن يكون موقف الكاتب عندما تتدفق نحوه النقود وعندما يجد نفسه فعلا محاطا بأخطار الثراء ؟

كيف يمكنه أن يدفع عنه غائلة الثراء .. ويبقى معدما بين المعدمين ؟

اننا نريده أن يبقى معدما .. لكى يستطيع أن يعبر عن المعدمين وهو إذا استطاع التعبير عن المعدمين .. وكان فنانا أصيلا .. فإن فنه سيكون صادقا معبرا.. وسيقبل عليه المعدمون وغير المعدمين.. وإذا اقبل عليه الناس.. فسينتشر انتاجه انتشارا واسعا . وإذا انتشر انتاجه.. فسينتفخ جيبه ويصاب بداء الثراء .. الذى سيخرجه من عداد المعدمين .. ويدخله فى عداد الكتاب

الذين ترحم عليهم الأخ صاحب الرسالة.. والذين - على حد قوله - بدأوا فقراء ثم امتلكوا وارتفعوا وتغطرسوا وتركوا كفاحهم الأول..

فخطر الثراء اذن واقع لا محالة.. ما دام الفنان فنانا اصيلا ناجحا .. وإن كانت الادلة تعوزنا فى الكتاب - لقلة عدد مستهلكى انتاجهم - فإن الادلة لا تعوزنا فى غيرهم من الفنانين الذين اتسع محيط روادهم.. كفنانى الموسيقى والسينما.. مثل أم كلثوم وعبد الوهاب وفاتن حمامة والريحانى وأنور وجدى وفريد الأطرش واسماعيل يس.. وغيرهم من الفنانين الناجحين.. الذين اتاح لهم نجاحهم اقبالا من الجماهير.. منحهم سعة فى الرزق.. وأصابهم بثراء لم يستطيعوا دفع غائلته.. أو صد اخطاره..

ولكى يبقى الفنان..معدما بين المعدمين.. ليس أمامه سوى حلين لا ثالث لهما .. الأول : أن يكون فاشلا .. أى غير فنان .. وهو ضامن فى هذه الحالة أن انتاجه البائر سيصد عنه الناس .. وأنه بمنجاة من خطر الثراء .. وأنه باق عمره معدما - إن كان معدما - بين المعدمين .. وإن كان بقاؤه بينهم كعدمه لأنه عاجز عن الانفعال والتعبير والتأثير ..

والحل الثانى : أن يصد عن نفسه غائلة الثراء .. فيتخلص من ايراده أولا بأول .. حتى يحتفظ بمركز ممتاز بين المعدمين .. والطريق الى ذلك لا يمكن أن يكون الا بإحدى اثنتين .. أولهما وأيسرهما هو أن يحولها الى بالوعة من بالوعات الكيف : خمر .. أو قمار .. أو حشيش .. أو ثلاثتهما معا .. فلا يضمن بقاءه بين المعدمين فحسب .. بل يزداد عدما على عدم ..

فإن تعذر الكيف ولم يجد فى نفسه قدرة عليه .. ولا قابلية له .. فليس أمامه الا أن يفرق نقوده على من حوله .. فلا يبقى معه مليما يمكن أن يدفع به الى خطر الثراء ..

والحل الأخير - على ما فيه من سفه - هو خير الحلول لصد غائلة الثراء .. وكان حريا أن ننصح به الفنان لولا خشيتنا من أمر واحد .. وهو أن يظل الفنان يعطى نقوده لمن حوله حتى تصيبهم هم غائلة الثراء ، فإذا بهم قد انفضوا من حوله تاركين له صفوف المعدمين الى غير المعدمين .. وينتهى

الأمر بالفنان الي أن يجد نفسه معدما ولكن ليس بين المعدمين .. ولا يجد هناك من يكتب من أجلهم بعد أن أخذوا ماله وخلوا به ..

وأؤكد للأخ القارىء .. أنه لو حول اليه مبلغ مائة جنيه شهريا من حساب أحد الكتاب (وليكن مثلا توفيق الحكيم) لكان أول من يترك صفوف المعدمين .. ولأسرع بابتياع عربة تغنيه عن الشعبطة فى الأتوبيس ..

اذن فبقاء الكاتب معدما بين المعدمين .. مسألة متعذرة .. الا بالفشل أو الفساد .. أو السفه .. أى بثلاث وسائل .. يجب أن تكون ضمن رسالة الكاتب الاجتماعية .. النهى عنها لا الانغمار فيها والاصابة بدائها ..

ولا أظن هناك كاتبا ناجحا .. عاقلا .. فى أمة مثقفة واعية .. استطاع أن يلزم صفوف المعدمين .. وأن يصد عن نفسه غائلة الثراء ..

ومع ذلك .. فالمسألة ليست مزعجة الى الحد الذى يتصوره القارىء .. فالفنان الأصيل أصفى نفسا .. وأعمق إحساسا .. من أن تبدله النقود .. فهو ليس ثرى حرب .. ان له من قوة وعيه وحسن إدراكه ما يضع سياجا حول مشاعره الصادقة النابعة من أعماقه ..

فطه حسين عندما اعتلى كرسى الوزارة .. وركب العربة الفاخرة .. لم يفقد قط احساس الطفل الضرير الذى يعب الماء من الصنبور بعد الطعام خشية أن يشرب أمام الناس .. لقد خرج من صفوف المعدمين .. ولكنه لم يتنكر لهم ولم يفقد إحساسه بهم .

ومسألة المكتب الفخم والعربة الفاخرة .. هى آخر ما يمكن أن يغير نفسية الكاتب .. أو يضعه فى الطبقة الارستقراطية .. أو يدفـــع نفسه إحساس الغطرسة .. فهى قد تكون فى نظر البعض أشياء ضرورية مكملة لقيمة الانسان متممة لاعتباره أمام الناس .. أما الكاتب فأشد فهما لنفسه واعتزازا بقيمته .. فهو يعرف أنه بعربة فاخرة وبغيرها .. هو هو .. فالعقاد على قدميه .. أو فى حنطور .. أو فى تاكسى .. أو فى كاديلاك .. هو العقاد .. انه يعرف أن قيمته أضخم من أن يؤثر عليها مظهره ..

فالكاتب عندما يكتب انما يعيش فيما يكتبه .. ولا يعود يذكر قط أنه يجلس فى حجرة فاخرة .. ومع ذلك فأنا لا اعتقد أن هناك كاتبا متمسكا بالحجرة الفاخرة حتى لو تهيأت له .. وعن نفسى لا أنكر أنى كتبت مرة واحدة فى حجرة مكتبى العادية .. المفروض أن أجلس فيها كأى انسان عادى .. ولست أدرى السر فى هذا .. ولكن الذى أعلمه هو أنى لم أستطع الكتابة فى البيت الا فى حجرة فوق السطوح .. وضع بها برميلان تخزن بهما المياه عندما يتعذر وصولها الى الدور العلوى .. ومنضدة خشبية صغيرة صنعت أصلا للمطبخ واستوليت عليها أنا للكتابة بعد أن فرشتها بورق الجرائد .. وكرسى من المواسير الصاج والخشب .. فى هذه الحجرة وعلى هذه المنضدة وفوق هذا المقعد .. يفرجها الله على .. أو كما يقولون يهبط الوحى ..

وعندما كتبت قصة أرض النفاق ، كنت وقتها مدرسا فى الكلية الحربية .. وكنا فى شهر رمضان .. وكانت لا تحلو لى الكتابة بعد أن أنتهى من حصص التاريخ الا فى مخزن قديم كائن فى سرية الصف والعساكر ، كان يمنحه لى قائد السرية وقتذاك عبد الرءوف طلبة .. بعد أن يخليه مما به .. وكان الجو وقتذاك شديد الحرارة .. فكنت أجلس فى وسط الحجرة وقد خلعت الحذاء والقميص والبنطلون .. وأغلقت النوافذ والابواب وأغرقت ارض الحجرة الضيقة بالمياه .. وانهمك فى الكتابة وأنا عائم وسط الحجرة ..

وما لى أذهب بعيدا وأنا أكتب الآن على منضدة الأكل .. وأمامى علبة بها فول مدمس وزجاجة زيت وصبينية وضع بها فلفل رومى أخضر وقوطة .. إعدادا للحشو .. والخادمة تحوم حولى تريد أن تمسح أسفل قدمى بعد أن مسحت كل الغرفة عدا الجزء الذى أجلس فيه .. وابنى يصيح فى الخارج ويرجونى أن اكف عن الكتابة .. وأنهض لألعب معه الكرة ..

لماذا أجلس وسط هذه الكركبة .. ولا اتربع فى حجرة المكتب كبقية الناس الذين يؤدون عملهم على مكاتبهم .

أما الجرس الذى يخشى على القارىء من أن أدقّه ليحضر الى الخادم .. فليطمئن باله من هذه الناحية .. لأن الجرس دائما متعطل .. ولأن الخادمة التى

لدينا لا ترد .. الا إذا انتقلت اليها وطلبت منها أن ترد ..

وأما العربة .. فقد تعودت أن تقف فى كل تقاطع مرور ولا تقوم ثانية الا بالزق .. فاضطر الى الاستعانة بمن حولنا من البوابين ونظل ندفعها حتى تقوم .. وأؤكد له أن الشعبطة في الأوتوبيس خير بكثير من عملية الزق هذه .. بما يصاحبها من فضيحة فى عرض الطريق .. وفى وسط المرور .

وبعد .. أما زال القارىء يخشى على الكتاب من غائلة الثراء .. ومن الصعود الى الطبقة الأرستقراطية ؟ .

أؤكد لك أنهم أعقل من هذا .. انهم لا ينسون أنفسهم أبدا ..

لقد نشأت فى السيدة زينب .. ولم أنس أبدا أنى ربيب جنينة ناميش .. وأظن أن خير ما اعتز به هو كتابى « بين أبو الريش وجنينة ناميش » .

سكينة والقصة الضائعة

كان يجب أن أقدم لكم قصة .. وقد تكون أفضل لديكم .. من هذه « السكينة » التى اقدمها لكم الآن .. ولكن ما حيلتى وسكينة قد سرقت القصة .. وتركتنى حائرا لا أجد ما أقدمه .. سوى سكينة نفسها ..

تفضلى يا ست سكينة .. لا تخجلى .. تقدمى حتى يراك القراء .

لا تريدين التقدم .. أنت مكسوفة ؟

لا لا .. هذا لا ينفع .. اما أن تتقدمى أو تقدمى القصة .

تقولين انك لم تأخذيها ؟ .. وأنا أقسم انك أخذتها .

وأنت ايضا تقسمين .. وتقولين انك ..

على أية حال هذا وقت المناقشة وتبادل القسم والايمان .. لا يصح أن نترك القراء يقفون بباب الصفحة .. وهم يتساءلون فى غيظ .. قل لنا أولا .. من تكون سكينة هذه .. ولما سرقت القصة ؟

أما من تكون سكينة .. فهو سؤال من اليسير الاجابة عنه .

أما لماذا سرقت القصة .. فلولا أنى مؤمن با لله .. موقن بأنه عليم بكل شىء .. لقلت أن الله نفسه لا يعلم .

سكينة .. خادمة عندنا .. أو على وجه أدق .. عند حماتى :

وارجو الا يأخذكم بها استهانة أو استخفاف .. فمنصب خادمة حماتى ..

ليس بالمنصب البسيط .. بل هو منصب متوارث .. يتوارثه أهل « بتانون » بجوار الماكينة الزرقاء جيلا بعد جيل .. ويظلون فيه حتى يتلقفهم « بيت العدل » حيث يمارسون سلطانهم فى الزوج السعيد .

وسكينة .. وريثة صلوحة .. خليفة محضية .. خليفة رتيبة .. خليفة سلسلة من الأسماء الكريمة التى لا يعيها الذهن فى الوقت الحاضر ..

وسكينة هذه مخلوقة ربعة .. قصيرة القامة عريضة المنكبين .. قوية العضلات .. كبيرة الثديين مدلاتهما .. قصيرة العنق غليظته .. كرتاء الشعر . وهى - بعد كل ما ذكرت من اوصاف لا مبالغة فيها - شديدة الاعجاب بجمالها .. لا تبخل على نفسها بشتى أنواع الزينة .. أو ما تظنه هى زينة .. وكان آخر ما رأيت من مظاهرها .. مانيكير فى أظافر يدها .

وسكينة أكولة نهمة .. تكاد تسيطر معدتها على كل تصرفاتها .. وهى فى نهمها شديدة الشبه بالمكنسة الكهربائية .. تلتهم كل ما يعرض فى طريقها وكأن بفمها شفاطة يمر بداخلها تيار شديد من الهواء يشفط كل ما يصادفه ويلقيه فى بطنها بلا تمييز ولا تذوق .

وقد انتهى الامر بحماى وحماتى الى أن أضحى جل مجهودهما فى الحياة منصرفا الى التحفظ على متاعهما من طعام وشراب ضد شفط سكينة ، فجمع حماى ما يخصه من جبن وقراقيش فى دولاب القمصان أو « الشفونير » وجمعت حماتى مأكولاتها ووضعتها تحت الفراش ، وأضحت الثلاجة خاوية على عروشها وأضحيت - وأنا أقطن فى الدور العلوى - معرضا لغارات سكينة تشنها على بين آونة وأخرى . فلا نكاد نشعر بوقع اقدامها على السلم حتى يصيح منذر « سكينة طالعة » فنسرع باغلاق الدواليب وإزالة كل ما نخشى عليه من طريقها .. حتى لا تشفطه وهى سائرة .

والسرقة من اكبر هوايات سكينة .. ولست اقصد بالسرقة .. سرقة الاطعمة .. فهذه لا تعتبر هواية .. بل احترافا .. أو هو واجب لا بد لها من تأديته نحو معدتها .. ولكنى اقصد السرقات الأخرى .. التى لا يمكن أن تعود عليها بأية فائدة .. والتى تقدم عليها .. لمجرد الهواية ..

بدأت مظاهر تلك الهواية .. عندما اكتشفنا اختفاء أشياء مختلفة متناقضة ليس لاختفائها مبرر معقول .. فردة شراب مثلا .. أو قلم رصاص .. أو مجلة الكواكب .. أو نتيجة .. أو صابونة .. أو مشابك .. أو .. أو .. أشياء لا تكاد توجد بينها صلة .. ولا يمكن أن تكون ذات فائدة لمخلوق بحيث يشك فى أنها سرقت ..

ولم نملك الا أن نسلم باختفائها .. كما يسلم المرء بالكثير مما يحدث له دون أن يرهق نفسه في التفكير فى أسبابه أو مبرراته . واقتنعنا بأنها قد تكون مختفية وراء دولاب أو مقعد أو تحت منضدة أو مكتب .

وتكرر الاختفاء .. وتكرر قبولنا له وتسليمنا به .. ولم نكن نملك غير ذلك .. فإن محاولة اتهام أحد بسرقته نوع من التجنى .. من العسير الاقدام عليه .. فقد كانت الاشياء في مفرداتها عديمة الجدوى .. ولا سيما لسكينة التى لا يمكن أن يلائمها الا الأشياء المأكولة المبلوعة التى يمكن أن تستقر فى المعدة .. وكنت اعتقد أن سكينة على نهمها لم يصل بها النهم يعدِ الى ابتلاع الجوارب والأقلام والمشابك والصابون .

الى أن كان يوم .. سمعت فيه صياحا من الدور السفلى .. ونزلت لأتبين الخبر .. فوجدت عمر « وهو أحد أحفاد حماى وكان وقتئذ يقيم معنا لأن ابويه في الاسكندرية وهو فى كلية الهندسة بجامعة القاهرة » قد قلب حجرته رأسا على عقب وأمسك بتلابيب سكينة وأخذ يصيح بها :

- قولى .. أين المشروع ؟

ووقفت سكينة تحملق فيه فى بله وتقول ببساطة :

- لا أعرف .

- أنت التى ساويت الحجرة .. ولا يمكن أن يكون هناك من أخذه غيرك .

وخلصت الفتاة من قبضته وأخذت فى تهدئته متسائلا :

- ما الخبر .

- المشروع ضاع .

- أى مشروع ؟

- المشروع الذى سهرت خمس ليالى فى انجازه .. لقد هلكت فيه حتى أتممته .

- وكيف ضاع ؟

- ضاع من هذه الحجرة . فى الصباح وضعته بيدى فوق هذا المكتب .. والآن لا أجد له أثرا .

- قد تكون أخذته معك وأنت ذاهب الى الكلية .

- لا .. لا .. لقد تركته هنا .. لأنه لم يكن هناك ما يدعو لأخذه لأن موعده باكر ..

- اذن ابحث عنه جيدا .. لا بد أن يكون هنا أو هناك .

- لقد قلبت الحجرة رأسا على عقب .. ليس له أثر .. لا بد أن تكون هذه الحيوانة قد سرقته .

- لا تكن غبيا .. هل مشروعك هذا مرسوم على ورق الجلاش ؟

- جلاش ؟ . أتمزح ؟

- هل هو مرشوش عليه سكر .. أو مغموس فى العسل ؟

- ما هذا الذى تقوله .. أنه مشروع .. مشروع .. مرسوم على ورق رسم .

- إذن .. انتهينا .. لا يمكن أن تكون سكينة قد سرقته .. فهى لا تسرق الا كل ما يؤكل .. ابحث عنه جيدا .

- لقد قلبت الحجرة .

اذن ابحث فى الكلية .

- لا يمكن أن أكون قد ذهبت به الى الكلية .. أنا واثق .

- إذاً أرسم غيره .

وتركته وانا واثق أنه لا بد واجده .. معتقد أن تهمته لسكينة ليست الا من أعمال العبط .. التى كان يفتأ يرتكبها من آن لآخر ..

ومع ذلك لم يجد المشروع .. واضطر المسكين الى أن يسهر خمس ليال لرسم مشروع آخر .. ولم يكن يخرج الا والمشروع فى يده ولا ينام الا وهو بين احضانه .. معتقدا تمام الاعتقاد أن سكينة ستسرقه .

وحاولت مرارا أن اردعه عن هذا السخف قائلا له :

- لا تكن غبيا .. ماذا يمكن أن تفعل سكينة بمشروع هندسى ؟ أنا أصدق كل شىء فى سكينة عدا انها تسرق مشروعك .

وكنت صادقا فى قولى .. فقد كان كل شىء فى سكينة جائزا عدا أقدامها على سرقة المشروعات الهندسية .

وهكذا اتخذت الموضوع مادة للسخرية من عمر .. والتشنيع به .. لا أكاد القاه حتى أسأله :

- أما زلت مصرا على أن سكينة تسرق مشروعاتك ؟

حتى كان يوم .. انتهيت فيه من كتابة إحدى القصص وطويتها ووضعتها على المكتب استعدادا لتسليمها للمطبعة .

وخرجت الى النادى ثم عدت .. فلم أجد القصة .

ولم افزع بالطبع .. فقد كان آخر ما يخطر ببالى أن تكون قد ضاعت ، كل ما ظننته - وأنا اعرف فى زوجتى هواية نقل كل ما أضعه من موضعه - ان المكتب قد اعيد ترتيبه وأن القصة قد اختفت فى هذا الدرج أو تحت هذا الكتاب .. حتى لا تفسد ترتيب المكتب ونظامه .

وبهدوء بحثت فى الادراج .. وتحت الكتب ..

وبهدوء أقل .. أعدت البحث .. ثانية .

ثم .. بغير هدوء مطلقا .. أعدت البحث ثالثة ..

وإذا عرفتم .. أن أشد ما أخشاه في حياتي .. هو ضياع إحدى قصصي قبل طبعها .. وأنه كثيرا ما تنتابني الوساوس بعد أن أعطى القصة للمطبعة فأخشى أن يشب بها حريق يلتهم القصة .. وأنا لا أملك منها الا صورة واحدة ..

إذا عرفتم هذا أدركتم مدى ما أصابني هياج وأنا أبحث عن القصة وأصرخ على من فى الدار أسألهم عنها .

وبحثت فى كل درج ، وفي كل ركن وتحت كل كتاب وتحت الحشيات والسجاجيد . وفى كل ما يخطر ولا يخطر ببال أن توضع به القصة .

وبين الوجوه المحيطة بى ، أطل وجه عمر ورأيته يقول فى لهجة جادة مؤكدة :

– أجاءك قولى .. أصدقت أن سكينة قد سرقت المشروع ؟ .

ونقلت البصر من وجهه الى وجه سكينة الأبله البرىء .

وصحت به :

– ماذا تقصد ؟

– أقصد أن القصة لم تفت سكينة ابدا .

ولم أكن فى حالة تساعدنى على قبول المزاح وقلت له ساخرا :

– أرجوك .. لا أريد مزاحا .

– أنا لا أمزح .. أتريد أن أؤكد لك ..

– تؤكد لى ماذا .. تؤكد لى أن سكينة وهى لا تعرف القراءة قد سرقت القصة .. كما سرقت المشروع .. ماذا يمكن أن تفعل بهما ؟

كف عن هذه السخافة .

ثم عدت مرة اخرى أبحث عن القصة .

ولم تظهر القصة .. ولم اعرف ابدا أين ذهبت .. ومع ذلك فلم احاول

أن اقنع نفسى بما قاله عمر .

ان سكينة قد تجوز عليها كل التهم .. فالذى وضع القوة فى معدتها قد أخذها بلا شك من ذهنها .

وأنا أذكر يوم خروجنا جميعا من الدار وأمرتها سيدتها بأن تغلق جميع الابواب والنوافذ قبل أن تخرج فكانت النتيجة أن أطلت علينا من طاقة مستديرة فى السلم وصاحت متسائلة :

- لقد اغلقت الابواب والنوافذ .. فمن أين أخرج ؟

وصحت بها ساخرا :

- الق بنفسك من النافذة .

واندفعت حماتى تصيح فى خوف :

- انزلى من الباب ثم اغلقيه .

ووجهت الى القول فى دهشة :

- امجنون أنت .. الا تدرى أنها قد تفعلها وتلقى بنفسها فعلا من النافذة ..

فهى بلهاء ما فى ذلك شك - وهى مع ذلك ضحوك طروب .. أو ربما كان لك متمما لبلهها .. فهى لا تكف عن الضحك .. وهى لا تفتأ تدندن بين آونة وأخرى بالحان وأغان لا أكاد أميزها .. وقد سمعت من ابنى بالأمس أنه سمعها وهى تغنى « جواب حبيبى » .

وهى على بلهها .. مغازلة .. لعوب .. بالطريقة التى يسمح بها تفكيرها .. وأذكر ذات مرة أنها استكتبت الجناينى خطاب غرام لعسكرى الدورية .. ومنذ بضعة أيام حاولت مغازلة البواب فضربها على رأسها وصاح بها محذرا :

-ابعدى عنى يا بت .. الرجال أمامك كثيرون .. لا تقطعى رزقى .

وعلى هذا فلم أكن لأستبعد عليها منكرا .. اللهم الا سرقة المشروعات

الهندسية .. والقصص .

ولكن يبدو أن عمر لم يكن يستبعده كما استبعده .. بل كان موقنا كل اليقين من أن المشروع والقصة لم يفلتا من سكينة .

ولست ادرى كيف دبر الأمر ولا وضع الخطط .. ولكن الذى أعرفه هو أنى فوجئت يوما بصياحه بأعلى صوت .. وهو ينادينى فى منتهى اللهفة .

ولم أميز مصدر صوته .. كان الصوت آتيا من مكام لا أعرفه ، لم يكن من حجرته ولا من أى حجرة بالبيت .. ولا من المطبخ .. ولا الحمام .. واستلزم الأمر منى بعض البحث حتى أكتشفت أنه آت من الصندرة التى فوق المطبخ .. واستطعت أن اراه يطل على بوجهه من بابها وقد حشر فيها جسده السمين .

صاح وهو يلهث :

- أطلع .. لقد وجدته .

- وجدت ماذا ؟

- كل شيء.. اطلع .. اطلع .

وتسلقت السلم.. وحشرت جسدى معه فى الصندرة الضيقة.. وعلى الضوء الباهت.. رأيت جميع الأشياء الضائعة.. من كل نوع وصنف.. مشابك.. صابون.. فرد شرابات.. علب ورنيش.. زجاجات فارغة.. لعب اولاد.. وبين كل هذا.. وجدت المشروع المفقود.. والقصة الضائعة.

وأمسكت القصة فى فرحة.. أو على الأضح فى نصف فرحة.. فقد ضاع النصف الآخر.. بضياع نصف القصة فى جوف الفيران.. كما ضاع ثلاثة أرباع المشروع الهندسى.. لقد كان الفأر القارض أديبا مهندسا.. أو على الأقل أضحى كذلك بعد ابتلاعه نصف القصة وثلاثة أرباع المشروع.

وقال عمر فى شماتة :

ألم اقل لك ؟

وتساءلت في ذهول: .

- ولكن ماذا يدعوها الى هذه السرقات غير المفيدة؟

ولم يجب عمر.. ولكنى ادركت الاجابة.. كانت سكينة بلا شك تقلد صلوحة.. التى اورثتها عرش الخدمة.. بكل تقاليده ومن بين هذه التقاليد عملية التخزين فى الصندرة.. ولكن صلوحة كانت تخزن الاشياء المفيدة.. كانت تعد نفسها لبيت العدل.. كانت تكوم الملابس والصابون وغيره من الاشياء التى يمكن أن تأخذها عندما تنتقل الى بيت الزوجية.. ولم يستطع ادراك سكينة أن يعى هذا.. كل ما وعته.. أن عليها أن تخطف أشياء وتضعها فى الصندرة.. مجرد تقليد أعمى.

وأحسست بدمى يفور.. ونفذ شعاع بصرى من باب الصندرة الى نافذة مقابلة تطل على الحديقة ورأيت سكينة تتشاغل بغسل الأوانى.. ولم يكن بصرها موجها للآنية بل كان معلقا بوجه سيد بلبل الحارس الاسود للجاراج المجاور.. ووصل الى صوتها خافتا وهو يدندن « مال القمر ماله ماجيناش على باله ».

وانفثأ غضبى ووجدت نفسى أضحك.. والقيت ببقية القصة فى الصندرة ليلتهم الفيران طعامهم فيها بالهناء والشفاء.. انها أجدى على أجسادهم منها على عقول القراء .

فيل في قفة العيش

اليوم أعطيت بائع الخبز ، فيلا أسود .

ورجوته رجاء حارا الا يعيده الى .. ورجاء آخر ، بألا يخبر أحدا من أهل الدار أنى اعطيته اياه والا ينبس عنه ببنت شفة .

وقال الرجل عنى بلا جدال - انى مجنون .. نمت عن ذلك نظرات الدهشة والذهول ثم الحيرة والاستسلام التى تقبل بها القائى للفيل الأسود فى قفة العيش .

ولست أشك - من نظرات التساؤل والدهشة البادية فى أعينكم - أنكم ايضا تشاركون البائع فى ظنونه .

أى فيل أسود هذا الذى ألقيت به فى قفة العيش ؟ أمجنون أنا ؟ ومع ذلك فاؤكد لكم أنى لست مجنونا .. وأن فعلتى تلك .. تجزم بأنى عاقل جدا .. أعقل منكم ومن بائع الخبز .. أعقل حتى من صاحب حديث الصباح فى الاذاعة .. الذى تحدث اليوم عن الغضب وعواقبه .

وكيف كان ذلك ؟ .

كان فى بيتنا فيل أسود .. وكانت بينى وبين هذا الفيل الأسود خصومة مستحكمة .. ولم أكن قد بلغت من الحمق مبلغا يجعلنى أخاصم فيلا بريئا لا حول له ولا قوة وأجعل عقلى بعقله فأقيم بيننا سدود العداوة والبغضاء ، ولكن زوجتى كانت السبب ، انها هى التى أشعلت بيننا نيران الخصومة . فقد ملأت

البيت بالتحف والتماثيل والزهريات والطقايق وغير ذلك من المنثورات التى احتلت كل بقعة فى البيت ولم تترك فراغا على منضدة أو دولاب أو على أى سطح من أى نوع الا وشغلته حتى ضاعت الفائدة المرجوة من مثل هذه الاثاثات وأضحى لزاما على حين أريد الأكل أو الشرب أو الكتابة أن أمسك لوازمها فى يدى وأستعملها فى الهواء بعد أن أصبح الهبوط على مسطحات المناضد والمكاتب مستحيلا بسبب ما بها من نتوءات التحف التى أضحت جزءا من هذه المسطحات .

وهكذا أفقدتنى تحف الزوجة الفاضلة حرية الحركة فى بيتى وحمدت الله – الذى لا يحمد على مكروه سواه – أنه لم يجعل المقاعد والأرائك والفراش أماكن صالحة لعرض التحف حتى لا أضطر الى قضاء الساعات التى أقضيها فى البيت مصلوبا على قدمى ، وكان من الطبيعى والأمر كذلك الا أكن للتحف المذكورة أى إحساس طيب والا اعتبرها سوى غاصب محتل .. عصب حريتى واحتل دارى وتركنى أقف أمامه عاجزا مستسلما ازاء تمتعه بتأييد زوجتى .

وفوضت أمرى الى الله واعتبرت المناضد والمكاتب وبقية المسطحات التى تشغلها التحف العزيزة كأنها غير كائنة .

وتركت التحف ترعى فى الدار .. وتركت الزوجة ترعى فى نظافتها وترتيبها .. واكتفيت من الخصومة بنظرات قرف القيها بين آونة وأخرى على الاثنين .. التحف والزوجة ...

وكان من الممكن أن تجرى الأمور فى مجراها الطبيعى وأن أعتاد مضايقة التحف ، وتعتاد هى قرفى منها . والا تزيد المسألة على حرب باردة .

لولا .. الفيل الأسود .

كان الفيل المذكور .. يقف على الدولاب المنخفض الذى توضع فيه القمصان والذى يسمونه فيما أظن « شفونير » .. وكان يَستقر على البنورة الموضوعة على الدولاب بجسده الأسود الممتلىء وزلومته وأنيابه بلا أناقة

ولا رشاقة ولا أى نوع من انواع الجمال الذى يهيىء له .. أن يحشر نفسه نى زمرة التحف ، ولم أكن لأعترض عليه .. رغم ذلك .. وكنت خليقا بأن أسلم أمرى منه لله وأن أقول لنفسى « بجملة » .. لولا .. أنه شذ عن بقية التحف .. ولم يكتف بالخصومة الصامتة .. بل تعداها .. الى التحدى بالصوت والحركة .

كانت قاعدته غير مستوية .. بحيث تجعل وقفته على البنورة مقلقلة .. وكان خشب أرضية الحجرة – بفضل مجهود حماى مع النجارين الذين صنعوه – لا يكاد المرء يخطو عليه خطوة حتى يهتز كل ما عليه من أثاث .. بما فيه الشيفونير وما عليه من تحف وتماثيل وعلب وزهريات بينها الفيل الأسود الرجراج وتنتهى الهزة .. ويهدأ كل ما فى الحجرة .. ولكن الفيل لا يهدأ بل يستمر فى قلقلته ورجرجته . واهتزازاته حتى أقبض عليه بيدى وأمنعه عن الحركة قسرا . وهكذا جعلنى الفيل .. أعد خطاى فى حجرة النوم .. وأفكر مرتين قبل أن أخطو بها .

فإذا علمتم أنى أمارس الرياضة فى حجرة النوم كل صباح .. وأنى لا أكاد أقفز أو أتحرك حتى ينطلق الفيل فى اهتزازاته وتكتكته .. أدركتم مدى ما ضقت بالفيل ، وحنقت عليه ، وحاولت أن أضع تحت القاعدة المقلقلة قطعة ورق أو قطعة خشب تثبت القاعدة ، ولكن عمليات النظافة التى تجرى يوميا فى المنزل اطاحت بما وضعت وتركت الفيل مقلقلا كما كان ..

وأخيرا رفعت أمره الى ولية أمره .. وشكوت لها ما يفعله بى .. وسألتها أن تجرى حركة تنقلات بين التحف وأن تحاول أن تجد للفيل المذكور نقله الى مكان قصى لا يزعجنى فيه برجرجته .

ولكنها أنبأتنى أنباء خبير أنه ليس للفيل فى الدار مكان أنسب من هذا .. ونظرت الى الفيل ولم أعرف بالضبط لماذا يكون موضعه فوق الشفونير هو أنسب مكان له .. ولم أجد فائدة من المجادلة وصممت على أن أتولى أمره بنفسى وحملته فى هدوء وحشرته بين حشد من التحف على منضدة الصالون .. وفى الصباح .. لم أكد أقفز القفزة الأولى حتى سمعته يتقلقل بعنف فوق

الشفونير .. وخيل الى أنه ينظر الى فى تحد وسخرية وأحسست ببوادر الغضب يفور فى صدرى فهدأت نفسى وأمسكت الفيل من عنقه الغليظ وحملته فى حلم .. الى حجرة الصالون .

وفى الصباح التالى وجدته ثانية فى حجرتى .. فتذرعت بالصبر وحملته الى حجرة الصالون ، وهكذا ظللت أنقله كل صباح فى صمت لأجده قد عاد الى مكانه فى الصباح التالى ، ليبدأ ضجته وتكتكته . وكلما هممت بالغضب .. هدأت نفسى وأبعدته فى حلم وسكون . وطالت عملية النقل والاعادة .. وأنا اتمسك بأهداب الصبر .. والزوجة العزيزة مصرة على أن أنسب مكان للفيل هو الشفونير وعلى أن وضعه فى أى مكان سواه تشويه لترتيب البيت ، ولم أجد بدا ازاء اصرارها على هذه الطريقة فى تنظيم البيت .. وعلى أن يحتفظ الفيل العنيد بمركزه الممتاز فوق الشفونير .. وعلى اعادتها اليه كلما حاولت ابعاده .. من أن اخفى الفيل عن عينيها كلية . وفى غفلة منها حملته .. ووراء كوم من الكتب .. قذفت به .. وأحسست براحة كبرى .. وأنا أجده قد اختفى الى غير ظهور .. وراح الى غير عودة .. وحاولت ولية أمره أن تعيده فى صمت كما كانت تفعل فى كل مرة ولكنها لم تجده ..

وأخيراً سألتنى :

- أين الفيل ؟

ورفعت كتفى وقلبت شفتى ببساطة كأنى لا أعرف وضحكت ونظرت الى نظرة فاحصة كأنها تحاول أن تستشف مكانه من ذهنى وعادت تتساءل :

- قل الحق .. أين ذهبت به ؟

- لا أعرف .

وهزت رأسها .. وفى اليوم التالى كان الفيل يقبع مكانه فى منتهى التحدى ، لقد نظفت دولاب الكتب فوجدته طريح أرض الدولاب ، فأعادته الى عرشه .. كان الخطأ خطئى .. إذ لم أحسن اختيار المنفى .. كان يجب أن أختاره بعيدا عن متناول أيدى التنظيف .

وفكرت مليا .. ثم حملت الفيل الى أريكة يستعمل مقعدها كصندوق لوضع الأشياء القديمة التى لا تستعمل ليتخلص منها أهل الدار حتى تتوارثها الأجيال القادمة .. ملابس قديمة وزجاجات فارغة وكتب وأشياء أخرى لا تدرى من فرط قدمها فيم كانت تستعمل ، وحشرت الفيل فى اقصى ركن وتحت أسفل متاع .. وتنفست الصعداء . هذه المرة لن ترى عينه النور الا عندما يرثنا ابناؤنا . ان هذا المنفى أبعد من ان تناله حتى يد التنظيف .

وفى اليوم التالى بحثت عنه زوجتى فى صمت حتى يئست من العثور عليه .. وحاولت معرفة مكانه بالحسنى والتهديد وبشتى الحيل .. ولكنى أنكرت معرفته انكارا باتا . وأحسست أنى تخلصت منه تخلصا نهائيا وصرت أسير وأقفز فى الحجرة كما أشاء . ومرت الايام والشهور ونسيت الفيل .. نسيته تماما ، حتى استيقظت فى صباح اليوم وبدأت رياضتى فسمعت رجرجة وقلقلة ، وأنصت مذهولا ثم رفعت عينى فإذا بالفيل المنكوب يتربع على الدولاب وكأنى به يقهقه ساخرا .

لقد بحثت زوجتى عن مضرب الاسكواتش الضائع .. بحثت عنه كما رجوتها فى كل مكان ، حتى فى جوف الاريكة ، ولم تجد فيها المضرب ، ولكنها وجدت الفيل !! وقفزت من مكانى وأمسكت بعنقه والغضب يغلى فى صدرى ووصل الى مسامعى حديث الصباح فى الراديو يتحدث عن عواقب الغضب فأسرعت بإغلاقه قبل أن أحطمه .

كان يجب على أن أغضب ، ولو حدث لصاحب الحديث ما حدث لى لأبطل أحاديثه عن عواقب الغضب وتحدث فى ضرورته وفوائده .

وفتحت النافذة على مصراعيها وهممت بقذف الفيل .. ولكنى تذكرت أن ولية امره لن يصعب عليها ان ترسل الخادمة لاحضاره ووقفت ممسكا بخناق الفيل حائرا ماذا افعل به .

ودق الجرس فإذا به بائع الخبز . وأخذت الخادمة ما يلزمنا ، وقبل أن ينصرف الرجل دسست الفيل فى قفته ورجوته رجاء حارا الا يعيده .. والا ينبىء أحدا بأننى أعطيته اياه ..

أمجنون أنا ؟ ! .

(ليلة حمر)

أنا وعمي والكبيبة الشامي

مرة أخرى جمعتنى الظروف وعمى العزيز « طه السباعى » فى بيت واحد بلا خدم ولا حريم . وفى هذه المرة كنت السابق الى البيت فقد عدت من الاسكندرية وحيدا لانجاز ما تعطل فى غيبتى من أعمال ..

ومن أهم مشاكلى التى يتحتم على حلها فى الفترة التى أقضيها وحيدا فى صيف كل عام .. مشكلة الطعام . فأنا مع زوجتى مجبر على الطعام فى أوقات محددة ، وأجد أصنافا جاهزة على المنضدة دون أن أشغل تفكيرى كثيرا فى كيف وضعت . وأنا مضطر فى سبيل العودة للطعام أن أقطع كل عمل لى مهما بلغت أهميته .

أما وأنا وحدى .. فليس هناك ما يدعونى للعودة الى البيت فى مواعيد معينة وأنا لا أحب أن أتهم نفسى بضعف الذاكرة أو السرحان - لأنى فعلا لست كذلك وأن حلا للبعض أن ينسبه الى لا لشىء الا لأنى كاتب . ومع ذلك فقد حدث وأنا فى إحدى تلك الفترات التى أحيا بها وحيدا أن شعرت فى الساعة السابعة مساء بضيق وكركبة فى المعدة .. ولم أدر سرهما حتى تذكرت أخيرا أنى نسيت أن أتغدى ..

وعلى ذلك .. وخشية النسيان .. كان على أن أدبر أمر طعامى بمجرد وصولى الى القاهرة .

والغداء أمره سهل ، فانى أستطيع تناوله فى نادى (هليوبوليس) أو فى

أى مطعم فى البلد إذا لم يكن لدى وقت للعودة الى مصر الجديدة .

بقي أمر الفطار والعشاء ، وأنا لا أتعشى سوى فاكهة يسهل تخزينها فى الثلاجة فأتناول منها ما أشاء وقتما أشاء . أما الفطار فأنا اتناوله فى الصباح المبكر . ولا يصمد فى معدتى ويقيم أودى حتى الغداء سوى الفول والطعمية .

أما الفول فتناوله يحتاج الى زيت وليمون وطبق ، والطبق يحتاج الى غسيل ، أى أن مسألته معقدة جدا ، ولذلك فلم تبق لى سوى الطعمية .

ولذا لم أكد أصل الى القاهرة حتى ابتعت مؤونتى من الفاكهة بطيخة وأقة تين وبضع حبات منجة هندى ، ثم توقفت عند أول بقال وابتعت نصف أقة جبنة رومى لمعاونة الطعمية فى الفطار وعلبة سردين كاحتياطى عام ..

ووصلت الى البيت .. ووضعت اكباس الكهرباء وفتحت محبس المياه .. ووضعت مؤونة الطعام فى الثلاجة وملأت زجاجات المياه وأطمأننت على وسائل العيش فى البيت ثم هبطت لأوصى الجناينى أن يحضر لى كل صباح رغيفا وطعمية وثلاثا من الصحف اليومية .

وفاجأنى الرجل بسبت ملىء بالمنجة جمعه من أشجار الحديقة . وأحسست وأنا أنظر الى السبت بالندم على ما أبتعته من الفكهانى ووظيفة شجر المنجة فى حديقتنا ليس اطعامنا منجة ولكن منعنا من شرائها .

فمن الحمق أن نشترى منجة ولدينا مثل هذه الكميات الهائلة ، وهى فى مظهرها منجة وفى مخبرها هيكل منجة أو « جلد على عظم » وعلينا أن نتمتع بأكلها ونحمد الله على البذور والجلد والألياف اللاذعة .

واستطعت أن أطرد من ضميرى اللوم . وحمدت الله الذى الهمنى أن أشترى المنجة الهندى قبل أن أرى سبت المنجة البيتى وأفرض على نفسى التمتع بأكلها .

وقذفت بما فى السبت فى الثلاجة ثم هبطت ثانية مغادرا الدار .

ومرت بضعة أيام وحياتى منتظمة .. نوعا ما .. والنظام والنظافة مستتبان الى حد ما ، الجلباب معلق على الشماعة ، والشبشب أمام الفراش

والطعميات الخمس تؤكل عن آخرها مع فتافيت العيش حتى لا تتبقى أية بقايا للطعام قد تجلب النمل ، ولب البطيخ مع بذر المنجة وقشرها ملفوف فى ورقة الطعمية ومقذوف به على طول الذراع من البلكون بحيث يستقر فى الأرض الفراغ المجاورة للبيت ، والملابس المتسخة مجمعة فى كوم بجوار الدولاب .

وكل شيء على ما يرام .. والأشيا . كما يقولون - رضا .. والنظافة تامة .. فيما عدا طبقة من التراب تكسو البيت كله « أو على وجه أدق الأسطح المكشوفة منه سواء كانت أرضا أم أثاثا » .. لم يكن لى حيلة فى رفعها الا بالقدر الذى أتلامس فيه مع هذه الأسطح فينتقل ما بها من تراب الى قدمى أو يدى .. مخلفا مكانه آثارا مطبوعة .

ومع ذلك .. ورغم الاتربة المخيمة فى الدار فقد كنت قريرا راضيا مستريح الضمير مطمئنا تمام الاطمئنان الى ان النظافة تامة .. حتى عدت ذات مساء فإذا بالبيت قد عصفت به عاصفة . دلتنى على أن العم العزيز قد وصل ، وكان أول مظاهر العاصفة هو سباق عنيف بين الصحف اليومية الثلاث : الجمهورية والأهرام والأخبار .. سباق ليس فى التوزيع بالطبع .. ولكن فى العدو .. فقد رأيت الأخبار تعدو وراء الجمهورية تلاحقهما الأهرام ، فى خشخشة وطقطقة ، لا يكاد يستقر بها المقام حتى تعود الريح المندفعة من بلكونة الصالة الى دفعها لتعدو فى أنحاء الصالة قارعة الباب كأنه إيذان ببدء السباق .

وعدوت وراء الصحف العابثة فأطبقت عليها إحدى المخدات فأوقفتها فى مكانها ووضعت حدا لعبثها أو عبث الريح بها .

وثانى مظاهر العاصفة هو سيل من ماء البطيخ ينحدر من المنضدة متدفقا على الأرض راسما مجرى فى تراب الأرض ملتويا متعرجا كأى نهر طبيعى ينحدر من منبعه الى مصبه .

وأدركت من ماء البطيخ أن العم قد اعتدى على مؤونتى من الطعام . وفتحت الثلاجة لأطمئن على المنجة الهندى فوجدتها سالمة من غير سوء : فقد حول بصره عنها الحشد الهائل من المنجة البيتى ذات الالياف « الطويلة

النيلة » التى يعتز بها العم أشد الاعتزاز كأنما ينوى أن ينشىء منها مصنعا للغزل والنسج يساهم به فى نهضتنا الصناعية .

وحاولت جهدى قبل أن أنام أن أعيد للدار نظامها وأن أصلح ما أفسده العم فى حدود قدرتى فدفعت حذاءه وشرابه وبعض أوراقه تحت الفراش حتى لا يشوه مظهرها النظام . ثم دفعت نهر البطيخ الى التدفق بمزيد من مياه قطعة أكلتها بحيث جعلته يستمر فى السير حتى يصب فى الحمام وهذبت مجراه كما هذب أحد وزراء الأشغال مجرى النيل حتى لا يشوه منظر الصالة .

وقبل أن أغمض عينى . طاف بذهنى خاطر أرقنى فقد ذكرت حادثة رواها لى عديلى وابن عمتى المهندس عبد العزيز مهران حين حملته الظروف الى العيش مع الغم فى موقف مشابه ولم يكد يأوى الى الفراش ويستغرق فى النوم حتى أحس بيد تهزه وصوت يناديه فى عجلة فقام فزعا فإذا بالعم يصيح :

- قوم .. قوم ..

ثم مد يده اليه بحبة مانجة وهو يردف فى نفس لهجته العاجلة :

- منجة .. منجة .

وكان صاحبنا فى أشد الحاجة الى النوم ولم يكن يحس بأية قابلية لأكل المانجة ولا غير المانجة فتمتم معتذرا وهو يغمض عينيه ويلقى برأسه على الوسادة :

- معلهش يا خالى .. أصلى مالياش نفس .

وصرخ به الخال متعجبا من بلادته .. التى تؤدى به الى رفض مثل هذه النعمة :

- قوم .. دى منجة مادقتش زيها ابدا ..

وأجاب عبد العزيز فى لهجة متوسلة والنوم يكاد يقتله :

- معلهش يا خالى .. خليها لبكرة الصبح .

- ما يمكنش ..

- ليه بس .

- أصلها لو فضلت لبكرة الصبح .. حاكلها أنا .. لأنني باصحى قبل منك .

وهكذا ذكرتني الحادثة .. بأن العم شديد التبكير في اليقظة .. وأنه في يقظته هذه أكوّل للمنجة على غير ارادة . فقد كان يخشى أن يأكل المنجة في الصباح رغم حرصه على أن يطعمها لزميله في وحدة البيت في المساء .

وعلى ذلك فقد كانت هناك خطورة منه على منجتي الهندى .. ولا أظن منجته الطويلة التيلة ستفلح في صد غائلته عنها ..

وهنا قضى قلقي على المنجة على كل محاولة للنوم من أن يقرب عيني .. وقفزت من الفراش بغير وعي وسرت الى الثلاجة وكأني سائر في نومي وفتحتها وأطمأننت على وجود المانجة ثم أقمت أمامها سياجا منيعا من التين يحميها تماما من الأعين المتطلعة ..

وعدت الى الفراش قريرا ناعم البال . وفي الصباح استيقظت .. وقبل أن أفتح عيني تماما ذهبت الى الثلاجة للاطمئنان على المانجة ..

وفتحت بابها فإذا بسياج التين قد انهار والمانجة الهندى قد طارت ونظرت الى المنضدة فإذا بأطلال المانجة من بذر وقشر مسجاة عليها .. ولم أجد بدا من أن أتناول بعض حبات المانجة - الطويلة التيلة - على سبيل العزاء .

وارتديت ملابسي ، ووجدت العم يجلس على الأريكة يقرأ صحف الصباح التي أحضرها الجنايني ، ونظر الى من فوق النظارة وبادلته نظرة بنظرة دون أن ينبس أحدنا ببنت شفة حتى ولا كلمة تحية .. فقد تعودنا الا نضيع وقتنا في التحية .

ومع ذلك فقد أحسست أنه لا بد لنا أن نقول شيئا ، ان اتفاق الجلاء قد أعلن في اليوم السابق ورأيت أنه حدث يستحق أن نتبادل من أجَله كلمة فقلت له :

- ما رأيك في الجلاء ؟

- كويس جدا .. هذا خير ما فعلوا .

وانتهى الحديثي ، وتأبطت حقيبتي وتهيأت للخروج ، وقبيل أن أخرج تبرعت له بقرطاس الطعمية والرغيف .. فقد كان اليوم يوم الجمعة وكنت ذاهبا الى الهرم لمشاهدة أحد مشاهد فيلم « انى راحلة » وصممت أن اتناول فى طريقى سندويتشا من الفول فى ميدان الاسماعيلية .

وقد عرفت فيما بعد أن العم أكل الطعمية حاف فقد رأيت الرغيف فى الثلاجة .. وهى أول مرة أرى خبزا فى ثلاجة . وأستمر محافظا عليه بها حتى موعد سفره . وقبل أن يغادر البيت لفه بعناية كأنه تذكار ثمين ، ووضعه فى حقيبة ملابسه .. ويعلم الله ماذا فعل به بعد ذلك ، وإن كنت أخشى أن يكون قد وضعه فى ثلاجة الاسكندرية وأن يجده أحفادنا بعد خمسة الآف عام كما وجدنا نحن مركب الشمس .. وأن يستدلوا به على أشياء ما أظنها خطرت لنا ببال .

وعدت قبيل العصر الى البيت وفتحت الباب ولم أكد أصعد بضع درجات حتى وجدت لفافة ملقاة على البسطة .

وكانت اللفافة ورقة جرائد نضحت منها بقع زيت وأطبقت فى عجلة وإهمال على محتوياتها .

ورفعت اللفافة بين السبابة والابهام فى تقزز إذ لم أشك أن ما بها هى « زبالة » البيت حملها عمى فى ورقة الطعمية كما أفعل . ولكن جهوده فى سبيل النظافة نفدت عند هذه البسطة فألقى بها عليها وانصرف .

وحمدت الله الذى ألهمه السير فى طريق النظافة ودعوت أن يمنحه من لدنه جهدا يمكنه من استمرار السير فيه والقاء لفافة الزبالة خارج المنزل بدلا من القائها على السلالم .

وصعدت باللفافة .. وأمام باب الشرفة وعلى طول ذراعى وبكل ما فى من قوة قذفت باللفافة فى الأرض الفضاء المجاورة وصممت فى نفسى أن أعلم عمى هذه الطريقة فى النظافة .

وفى المساء حضر العم ، وكان أول ما فعل هو أن أتجه الى الثلاجة مباشرة وفتحها ثم اقفلها وعاد الى مسرعا وهو يسأل :

- أمال فين الكبيبة ؟

- الايه ؟

- الكبيبة .

- كبيبة ايه ؟

- كان فيه لفة مليانة كبيبة شامى جابها سامى « سكرتيره السابق » وأنا خارج فحطيتها على البسطة لغاية ما أرجع .

وأحسست الأرض تدور بى .. ووضعت يدى على رأسى ، ماذا أقول ..

أقول له قذفت بها من البلكون .. هكذا من غير مناسبة ، ومن الباب للطاق .

يقول .. مجنون ..

لقد قلت له أنى كنت ميتا من الجوع فأكلتها .

وصمت هو .. واعتبرها واحدة بواحدة .. لقد أكل المانجة .. وأكلت أنا الكبيبة .

ونمت ليلتها محسورا .

وإذا عرفتم أننى لا أحب فى حياتى كالكبيبة الشامى وأن خير ما وصلنى ردا على كتاب أهديته هو صينية كبيبة أرسلتها الى مديحة المحررة بروزا اليوسف ردا على « انى راحلة » .

إذا عرفتم هذا ادركتم مدى حسرتى فى تلك الليلة وأنا ملقى على الفراش متهم ظلما بأنى أكلت كيس الكبيبة . وعمى ينظر الى نظرة تأنيب ولسان حاله يقول :

- بقى ما كنتش تسيب لى ولو واحدة .

عُقدَة الإنجليزيّة

مررت اليوم بتجربة جديدة .

لقد تحدثت فى الاذاعة .. بالانجليزية .

والتجربة التى مررت بها مزعجة .. ورطتنى بها لبنى عبد العزيز .. أو العمة لولو .

فالحديث الى الجمهور أمر عسير .. وهو فى الاذاعة أشد عسرا .. فما بالكم إذا كان بالانجليزية ؟ !

أما عن مشقة الحديث الى الجمهور .. فقد سبق أن كتبت عنها .. وعن مهابتى لها وجزعى منها .. واعتقد أن سبب ذلك هو طبيعة الكاتب .. الذى خلق بطريقة تجعله أقدر على الانزواء والمراقبة منه على الظهور والاستعراض .. فهو يحب .. أن يجعل الناس تحت عينه بدل أن يكون هو تحت اعين الناس ..

أما عن التحدث الى الجمهور فى الاذاعة .. فلست أحس بأمر اكثر ارباكا واحراجا .. من أن يدفع فى فمى بميكروفون .. ثم تملى على أسئلة كأنى مذنب فى قفص الاتهام .. ويطلب منى الاجابة عليها .. فى هذه الآلة المفزعة التى تخفى وراء مظهرها البرىء الساذج ملايين الآذان .. المنصتة المترقبة .

ومع ذلك فقد عملتها .. بشجاعة .. وكنت أجرأ من توفيق الحكيم الذى يعتبر الميكروفون .. شبحا مخيفا .

وأنا أذكر أن سعد لبيب طلب منى ذات مرة أن يذيع إحدى جلسات مجلس الفنون .. وقلت له اننى لا أملك الاذن بهذا .. لأنى لا أستطيع أن أكره أعضاء المجلس على الاذاعة .. وإن كنت أستطيع أن أعاونه بشخصى - بمنتهى الجرأة - فى كل ما يريد حتى ولو فى برنامج ساعة لقلبك .

ومع ذلك فقد طلب منى سعد أن آذن له بتركيب الأجهزة والاستعداد للتسجيل .. فلعل رئيس المجلس وأعضاءه يأذنون بها .. ولم أجد هناك ما يمنع بالاذن فليس فى مجرد تركيب الأجهزة ضرر .

وشرع سعد فى إجراءاته ..

وأحس توفيق الحكيم .. بالمؤامرة .

فكان الفزع الأكبر .. والطامة العظمى .

ووصف لى عبد الرحمن الشرقاوى .. كيف أقبل على المجلس فى ذلك اليوم الأغبر .. فوجد فى باب المجلس عربتين .. عربة الاذاعة .. وعربة بوليس حربى .

لقد أخذ يراجع نفسه .. فيما كتبه أمس .. وبدأ ضميره يعنفه فى شدة :

- يعنى كان لازم المقالة دى .. انت فاكر نفسك ايه .. انت بقيت دلوقت .. صاحب ولاد .. اتقى الله .

واجتاز عبد الرحمن حديقة المجلس وهو يتلفت حوله فى حذر وخشية .

وفى اقصى الحديقة وجد توفيق الحكيم .. وقد انكفأ بذقنه على عصاه وبدا عليه الشرود .

وحاول عبد الرحمن أن يطمئن من توفيق الحكيم عما يقلق باله فنظر الى الباب ثم تساءل فى حذر :

- ايه حكاية العربية اللى واقفة على الباب دى يا توفيق بك ؟

وبدا القلق على وجه توفيق الحكيم ورد عليه فى حنق :

- أنا عارف .. أهى بلاوى بتتحدف علينا .

وزاد خوف عبد الرحمن الشرقاوى وحاول أن يطلب مزيدا من التفسير .. فتساءل :

- هى جاية لمين ؟

- جاية لنا كلنا .

- الله .. كلنا ازاى .

- انا عارف .. أسأل سى يوسف السباعى .. احنا يعنى بناخد منه ايه غير كده ؟ .

وزاد ارتباك عبد الرحمن .. وزادت دهشته .. من أن تكون عربة البوليس الحربى قد أتت .. لجمع المجلس بأكمله .. و .. عاود تساؤله قائلا :

- لكن .. هى العربة دى حاتساعنا كلنا .

- وتساعنا ليه .. ما هم حايخشولنا جوه ..

واستبد العجب بعبد الرحمن عندما نصور ما يمكن أن يحدث من دخول البوليس .. وحدوث معركة بينه وبين المجلس ..

ومصمص توفيق الحكيم شفتيه قائلا فى جزع :

- أهى مصيبة والسلام .

ورد عبد الرحمن وهو يطرق بأسف :

- أيوه .. مصيبة لكن ايه بس سببها .. البوليس الحربى ماله ومال المجلس .

ورفع توفيق الحكيم رأسه وتساءل فى دهشة :

- بوليس حربى ؟ .

- أيوه .

- وايه اللي جاب سيرته دلوقت ؟ .

- ما هي اللي واقفة ع الباب عربية بوليس حربي .

- بوليس حربي ايه يا جدع انت .. دي عربية اذاعة .. هو فيه مصيبة أكثر من الاذاعة .

وهكذا اعتبر توفيق الحكيم الاذاعة .. مصيبة يتساوى وقعها لديه .. مع وقع البوليس الحربي .. عند عبد الرحمن الشرقاوي .. وجلس الاثنان كل منهما يندب حظه .. حتى اتضح ان عربة البوليس الحربي كانت تحمل أحد الضباط الذي جاء للمجلس ليزور صديقا له .. كما اتضح لتوفيق الحكيم أن الاذاعة قد عفت عنه ..

هذا هو الذعر الذي أحدثه مجرد حديث في الاذاعة باللغة العربية ..

فما بالكم .. إذا كانت بالانجليزية .

انها لا شك تحتاج الى مخلوق جرىء .

ولكي أوضح لكم .. مبلغ جرأتي عندما أقدمت على الاذاعة بالانجليزية .. أقول لكم أني رسبت في حياتي مرتين .. مرة في السنة الأولى الثانوية .. ومرة في السنة الرابعة .. وكان رسوبي في المرتين .. دور اول .. ودور ثان .. في اللغة الانجليزية .

وعندما تخرجت في الكلية الحربية الى سلاح الفرسان .. اخترت للذهاب الى بعثة في انجلترا .. ثم ذهبت - كما سبق أن رويت - للقاء وزير الحربية حسين سري .. وسألني عن سنة تخرجي .. وكان علي أن أجيب باللغة الانجليزية .. وعندما استطعت أن اتمالك نفسي .. وارتب نطقي لعام ١٩٣٧ .. كانت البعثة قد طارت .. للذي بعدي .

وفي كلية أركان حرب .. لم أضق بشيء قدر ضيق من الدراسة باللغة الانجليزية .. وكانت هي وحدها التي أثرت على درجة تخرجي .

تأتي لبنى عبد العزيز .. لتقدمني في البرنامج الاوروبي لشخصية

الأسبوع وتطلب منى التحدث الى الناس .. بالانجليزى .

« لا يا ست لبنى - حد الله بينى وبينك .. أنا لا شخصية ولا حاجة .. بس اعتقينى لوجه الله وحياة ابوكى » .

وأفهمتها أن المسألة .. عسيرة جدا .. وذكرت لها تاريخى المجيد فى اللغة الانجليزية .. وأكدت لها ان ثلاثة ارباع كرهى للاستعمار الانجليزى هو كرهى للغة الانجليزية ولما جنيته منها فى تلمذتى .

بل انى ، من فرط تحكم عقدة الانجليزية من نفسى لا اتساءل كيف استطاع جمال عبد الناصر أن يحقق المعجزات التى حققها .. بل اتساءل كيف استطاع أن يتحدث بالانجليزية كما يتحدث الآن .. مع الدبلوماسيين والصحفيين الاجانب .

وحاولت أن أزوغ من الحديث .

ولكن لبنى أصرت عليه واقنعتنى كما تقنع الأطفال عندما تحاول أن تشكمهم بالحقنة .. بأن المسألة بسيطة جداً .. وأنى سأحضر ما اريد قوله وأتلوه كما أقرأ أى كتاب مطالعة .

وحذرتها من الاسئلة المفاجئة .. وبدأت أتلو الحديث .. كما كنت أتلو قطع المحفوظات فى صباى وكما كنت أنشد :

I have two eyes and I can see

وأخيرا انتهى الحديث .. وتنفست الصعداء ونظرت الى لبنى ضاحكة تماما كما تنظر الى الطفل بعد ان تشكمه بالحقنة .. وقالت :

- شفت بأه .. مش حاجة سهل قوى .

- بسيطة بس أوعى تعمليها تانى .

هدايانا

زرت ذات مرة صديقا مريضا ..

وكان على أن أحمل له هدية .

وفكرت فى نوع الهدية .. فلم أجد امامى سوى هدايانا التقليدية للمرضى .. علبة مارون أو شكولاته .. أو سبت زهور .

وقبل أن اقدم على شراء الهدية .. تذكرت رقدتى فى المستشفى بعد أن أجريت عملية الأعور . وتذكرت تجربة الهدايا التى مررت بها .

لقد رقدت فى المستشفى ٧ أيام .. وقبل أن أغادر المستشفى كان على أن أقوم بعمليتين : عملية دفع الحساب .. وعملية التصرف-فى ٤٠ طبق مارون و ٢٠ علبة شوكولاتة وما تبقى من ٣٠ سبت زهور .

ولم تكن العملية سهلة .

فقد كان علي إما أن آكلها .. وهذا أمر يتطلب عودتى الى المستشفى لعلاج معدتى من آثارها .. وعودتى الى المستشفى .. ستحتم عودة الزوار الى .. وعودة الزوار الى تعنى مزيدا من المارون والشكولاته .. التى يتحتم على أن أتخلص منها بالاكل .. وتعود المسألة من جديد .. ويصبح على أن أقضى عمرى فى الرقاد فى المستشفى .. واستقبال الزوار .. وأكل المارون .

والحل الثانى .. أن أتصدق بالهدايا على المساكين .. فأذهب الى الحسين

والسيدة .. وافرق على الشحاذين .. مارون جلاسيه .. وشوكولاتة .. وباقات ورد .. ثم أسلم نفسى بعد هذا .. الى اقرب مستشفى مجاذيب .. وبيدى – كما يقول المثل – لا بيد عمرو .

والحل الثالث .. هو ان أفتح محلا لبيع المارون والشوكولاته .. الرجوع .. أبيع فيه .. هداياى .. والمرتجع من هدايا الكثير من ضحايا المارون والشوكولاتة بالتخفيض .. الى الذين ينوون أن يعيدوها الى المستشفيات مرة اخرى .

وأعتقد أن المحل سيروج جدا .. فسيوفر على المهدى جزءا من ثمن الهدية .. وسيتيح للمهدى اليه .. إعادة هديته .. والانتفاع بثمنها .. فيما يحتاج اليه .

وسينتهى الأمر .. بعلب المارون والشيوكولاتة .. الى التحرك فى دائرة مفرغة بين المرضى والزوار .. والزوار والمرضى .. عن طريق المحل .

ولست ادرى بعد كل هذه الغلبة .. لماذا لا يوفر الزوار على أنفسهم ثم هداياهم .. ويكفيهم جدا مجرد إظهار مشاعرهم وتمنياتهم الطيبة .

وإذا كان لا بد من الهدية .. فلماذا لا يدفعون .. بدل هدية .. ويتركون للمهدى اليه .. أمر شراء ما يحتاج اليه .

لو أنهم فعلوا هذا معى .. لخرجت من العملية بما لا يقل عن مائتى جنيه .

كنت ادفع منها مائة تكاليف العملية والمستشفى .. ثم أخرج بالمائة الأخرى .. ربح عملية .

وليس على بعد ذلك .. إذا احتجت الى نقود .. الا أن أدخل المستشفى .. لأمكث أسبوعا .. وأخرج .. بمائة جنيه .

ولا أظن هناك عملا .. أكثر راحة وأوفر ربحا من هذا .

وانا لا أنكر هدية .. قدمت الى .. فى موضعها .. كالهدية التى قدمت

الى من سلاح الفرسان عندما تركت السلاح .

لقد بدأ الأمر فى مثل هذا الوقت من العام الماضى .. عندما عرف الضباط أنى سأترك سلاح الفرسان الى مجلس الفنون والاداب .

وكان أول من تقدم الى هو عدلى سعيد قائد مدرسة المدرعات وقتئذ وسألنى قائلا فى صراحة :

– ضباط المدرسة عايزين يقدموا له هدية وداع .. فايه الحاجة اللى انت محتاج لها علشان يجيبوهالك ؟ .

ولم أجد طريقة للاهداء خيرا من هذا .. ولكننى .. كنت مصمما على أن أجنب الضباط تكاليف الهدية .. لأنى كنت أعرف كيف يضيقون بها .. ولا سيما عندما يكثر التوديع .. وتكثر الهدايا .. ولأنى لا أستطيع أن أجزم أن كل واحد منهم سيقدمها مرحبا .. ولأنها شىء لا ضرورة له .

وأخبرت عدلى بأنه ..

– مافيش داعى يا عدلى .. كفاية نسلم على بعض .

– هم مصرون أنهم يجيبو لك حاجة .

– خليهم يجيبولى سلسلة مفاتيح بخمسة صاغ .

– لا .. هم عايزين يجيبولك هدية محترمة .. فأحسن اختار أنت بدل ما يجيبولك حاجة متعجبكش .

ومع ذلك أصررت على رفضى .

وتوالت على بعد ذلك أسئلة بقية الوحدات . جاءنى حسن مراد وصلاح طاهر وابراهيم الموجى .. يسألاننى نفس السؤال .

وأجبت بنفس الرد ..

ثم جاءنى البكباشى سيد زكي يبلغنى أمر قائد السلاح اللواء عبد العزيز مصطفى يسألنى عن الهدية التى أطلبها من رئاسة السلاح .

وضحكت وقلت لسيد زكى :

- ايه الحكاية .. دانا حاخرج من السلاح صاحب ثروة .. وأنا كنت تايه عن الشغلانة دى من زمان ليه .

وأصررت على رفض الهدية . وأصر سيد زكى على إحضارها ، ثم ذهبت الى البيت وقصصت على زوجتى ما حدث .. ثم رأيتها قد سرحت برهة ثم قالت ضاحكة :

- كنت قل لهم يجيبولك زهرية كريستال .

- هو ايه ده ؟ . اشمعنى الزهرية الكريستال دى .

- أصلها الحاجة اللى نفسى فيها .. ومستخسرة أدفع فيها فلوس .

- مش معقول اقولهم هاتولى زهرية كريستال .. لأن إذا كان الواحد ناوى يختار فلازم يختار حاجة ضرورية .. مش زهرية كريستال .. وعلى العموم أنا رفضت خالص .

- لكن هم حايقدمولك .. فبدل ما يقدمولك حاجة مالهاش لزوم .. قولهم يجيبو لك الزهرية الكريستال .

- خلاص أنا رفضت وانتهينا .. يجيبوا اللى هم عايزينه .

وقبل أن أخرج ذكرتنى بأن أحضر صينية القهوة التى سبق أن طلبتها منى عدة مرات .

وبعد الظهر ذهبت الى الرسالة الجديدة ولقيت عبد العزيز صادق فنظر الى الحقيبة التى أحملها .. وقال لى مؤنبا :

- يا أخى مش ربنا حايتوب عليك من الشنطة الكحيانة دى ؟ .. أنت دلوقت بقيت سكرتير مجلس الفنون والآداب لازم تشيل شنطة عليها القيمة .

- آهى كويسة .. مش شايلة الأوراق اللى فيها والسلام .

وفى اليوم التالى ذهبت الى السلاح ..

وكان أول من زارنى عدلى سعيد .

سلم على بيد .. وباليد الثانية .. سلمنى حقيبة أنيقة .

وكان ثانى من زارنى هو الموجى .

ولم يسلم على لأنه كان يحمل بكلتا يديه .. صينية كبيرة من الفضة .

وزارنى بعد ذلك حسن مراد يحمل مصحفا كبيرا .. وصلاح طاهر يحمل طبقا من الفضة عليه شارة الفرسان .

وفى المساء دعيت الى حفلة شاى .. أقامها لى مدير السلاح فى الميس .

ودخلت الميس الذى دخلته منذ عشرين عاما .. وورائى العربة البروسيانى يجرها البغل القبرصى وقد حملت عليها السرير والدولاب الذى أحضرته من بيتنا فى روض الفرج لأضعه فى حجرتى فى الميس .

وجلست بين الضباط .. فى نفس الصالة التى كنت اتناول فيها الفطار والغداء والعشاء منذ عشرين عاما وسط الضحك والتهريج .

ولكن الجلسة .. أهاجت فى نفسى ذكريات هاجعة .. الجدران الصماء .. والأثاث القديم والحديقة التى تبدو من النافذة بنخيلها الأبيض .. كل هذا تآلف واتسق .. وجسد لى جزءا عزيزا من عمرى .

وأحسست أنى أضعف .. وأتخاذل .. أمام حياتى الماضية .

وحاولت أن أضحك .. ولكن احساس البكاء فى نفسى كان أغلب وأشد .

وتكلم الموجى .. وتكلم عبد العزيز مصطفى .. ومدحا فى .. بما لا أعتقده فى نفسى وما لا كنت أظنهما يعتقدانه فى .

ثم نهضت لأتكلم .

ولست أدرى ماذا قلت .

لقد رددت بعض ما اعتمل فى نفسى .. وبعض ما بعثته الجلسة فيها من ذكريات الصبا الحلوة .. وبعض ما تملكنى من احساس لرفاقها وأيامها

ومواطنها .

وجلست وقد خيم على من حولى صمت حزين .

وقبل أن ننهض لنودع بعضنا البعض . قام عبد العزيز قائلا :

- انتظر .. لقد تذكرت شيئا .. لقد سألناك أن تحدد الهدية فرفضت .. وكان علينا أن نختار نحن .. فخذ هذه وننبك على جنبك .

ثم مد يده وناولنى .

زُهرية كريستال !!

وحتى الآن لا تصدق زوجتى .. أنى لم أحدد لهأ نوع الهدية :

وحتى الآن .. لا يعرف عبد العزيز مصطفى .. أن هديته .. هى الشىء الوحيد على ظهر الأرض الذى كنت اتمنى أن يقدمه لى .

لورى خبطة

رأيت فيلم « الطريق المسدود » ورأيت فيه صديقى الممثل أحمد مظهر .

ومن قبل رأيته فى فيلم « حتى نلتقى » وفى فيلم « رد قلبى » .

وأحسست بالاغتباط وأنا ارى صديقى وهو يمثل .. بطريقة تبعث على الطمأنينة على مصيره كممثل .

ولم يكن اغتباطى لمجرد نجاح صديق فى مصير اتجه اليه .

بل كان اغتباطا .. لأنى اعتبر نفسى المسئول الأول عن هذا المصير .

هل أقص عليكم القصة ..

بدأت صداقتى بأحمد مظهر وأنا أعلمه ركوب الخيل فى فرقة الركبدارية فى سلاح الفرسان .. (ولست أقولها على سبيل التفاخر .. لأنه أضحى وثلاثة أرباع الذين علمتهم ركوب الخيل ابطالا فى الفروسية .. وأنا لم أصبح شيئا) .

كان مظهر شديد التعلق بالركوب . وكان وقتذاك يركب حصانا أسود اسمه السردار .. وقد كان على كبر سنه مدربا أصيلا .

وفى كل يوم كان يأتى الى شاكيا أنه لقى السردار والعساكر يركبونه فى طابور كذا .. أو يجرون به فى مسابقة كيت .. وأنهم ينهكونه ويسيئون معاملته .

وأجرى تحقيقا مع العساكر فيتضح أن السردار لم يخرج من الاسطبل وأن الحصان لا يركبه الا مظهر .

وأخيرا اتضح لى أنه لا يميز السردار الا بسواد لونه .. وأنه يعتقد أن كل حصان أسود فى السوارى هو السردار .. ولم يهدأ حتى أفهمته أن لدينا فى السوارى مائة حصان أسود ، وأن عليه أن يميز السردار بشىء آخر غير السواد ..

وعندما انتهت فرقة الركبدارية .. الحق مظهر برئاسة سلاح الفرسان وعمل مساعدا لأركان حربه .. وكانت هوايته وقتذاك تلميع أحذية الركوب الطويلة (لنفسه طبعا) ومداعبة قطط السلاح .

وأذكر أنى كنت وقتذاك مكلفا بعمل شارة نحاسية لسلاح الفرسان وكنت منهمكا مع ابن المرحوم توفيق بشاى فى وضع تصميمها .. واصطحبته معى ذات يوم لعرض التصميم على مدير السلاح .. وشعرت وأنا أجتاز به بوابة السلاح بمدى الرهبة التى تركها مظهر القرقول بالمزاريق فى نفسه .. وتمنيت أن تمر بنا دبابة ونحن فى طريقنا الى الرئاسة لتزيد من رهبته .. ولم يبخل على الله بالأمنية .. ومرت بنا دبابة تصم الآذان بأزيزها .. وهمس الى صاحبى متسائلا :

- عندكم كثير من دى ؟ ...

- كثير خالص .. مائتين .. ثلاثمائة .

وأذكر أنها كانت إحدى دبابات خمس أخذناها من الجيش الانجليزى . وكانت الاربع الباقية فى الجراج .

وتوقعت أن تزداد رهبته .. عندما يهل على الرئاسة ويلمح يافطة الأركان حرب ..

وفعلا .. أحسست به يصلح هندامه ونحن نقف أمام اللافتة .

وطرقت الباب .. ودخلت .. ودخل هو فى أثرى .

وعلى المكتب .. وجدت مظهر .. أعنى وجدت حذاءه الطويل .. مستقرا على المكتب .

ولم يكن مظهر يمد ساقيه بالحذاء فى كبرياء كما قد يتوهم البعض .. بل كان الحذاء يستقر وحده بلا ساقين على المكتب .

وكانت الساقان تقفان وحدهما بالشراب وبنطلون الركوب .. وداخل الحذاء كانت تستقر إحدى ذراعى مظهر .. والذراع الأخرى منهمكة فى مباشرة هوايته المحببة .. فى مسح الأحذية وتلميعها .

وارتبكت أنا .. فقد أضاع مظهر كل الرهبة التى أمتلأت بها نفس صاحبى من سلاح الفرسان .

ولم يرتبك مظهر .. بل ترك خرق التلميع ومد يده فصافحنا ببساطة :

- تفضلا .

وأنزل الحذاء .. ووضعه جانبا .

وبدأت الحديث .

ولكنى لم أكد انطق بكلمتين حتى وجدت مظهر قد فتح درجا على يمينه ثم أخرج شقة عيش .. وعزم على وعلى صاحبى قائلا ببساطة :

- تفطر معايا ؟؟ !

وقلت له فى اقتضاب :

- متشكر .

ولكنه أعاد يلح قائلا :

- ده فيها لحمة .

ثم بدأ هو يقضم العيش واللحمة بشراهة .

وكان على أن أجلس لأرقبه فى افطاره .. وأرقب هيئة سلاح الفرسان .

تتبخر من نفس صاحبى .

وتمنيت أن يدخل أحد الرؤساء .. لعله يرتدع فيلبس حذاءه . ويكف عن أكل ساندوتش اللحمة .

وطرق الباب .. وتوقعت خيراً .

وقال مظهر :

- تفضل .

وتفضل الطارق بالدخول .. وكان صاحبنا ابراهيم الموجى .

وأوجست من دخوله خيفة .

لأن الموجى لا يمكن أن يردع مظهر .. بل هو قد يحتاج الى أحد لكى يردعه عن أى عمل فجائى يمكن أن يطير ما تبقى من هيبة الفرسان .

وكان أول ما فعله مظهر هو أن مد يده بشقة اللحمة فى كرم قائلا للموجى :

- تفطر يا بو خليل .

- فطرت .

وحمدت الله أن الموجى ترفع عن ساندوتش اللحمة . ولكن مظهر عاد يقول ملحا :

- ده فيه لحمه !!

ورأيت الموجى يردد فى أعجاب :

- كده !!؟

ثم يمد يده فيخرج اللحمة من داخل الساندوتش ويلتهمها بمنتهى البساطة .

وسحبت صاحبى من يده وطرت من الغرفة قبل أن يطير ما تبقى من هيبة السلاح .

وكنت فى ذلك الوقت أذهب الى السلاح بعربة بيك آب .. وكانت العربة تمر ببيتى ثم تتجه بى بعد ذلك الى العوامة التى يقطن بها مظهر .

وكما كانت هواية مظهر .. تلميع الاحذية .. كانت هوايتى .. صنع السدود والحواجز .. التى يقفز عليها الخيل .

وكانت هوايتى تدخل فى نطاق مهنتى كمعلم لفن الركوب .. وكان المفروض على أن أنظم حلقة لقفز السدود .. تشابه أى حلقة قفز مما تحويها نوادى الفروسية ..

ولكن العين كانت بصيرة واليد قصيرة .

ولذا كان على أن أمارس صنع السدود كهواية .

وأنا شديد التركيز فى كل ما أفعل .. وكنت لا أنظر الى أى شىء فى العالم حينذاك .. الا من زاوية صلاحيته لأن يكون سداً لقفز الخيل .

وفى ذات صباح عندما مررت بمظهر لآخذه من العوامة .. لمحت سور العوامة المصنوع من درابزين خشبى .. وعجبت لنفسى كيف غابت عن ذهنى صلاحيته لأن يكون سدا .

وهززت السور فوجدته خفيفا .. سهل النزع .. سهل الحمل .. ولم يكد مظهر يدخل العربة بجوار السائق .. حتى رفعت الدرابزين ووضعته فى صندوق العربة .. ودلفت بجوار مظهر دون أن يحس بما فعلت .

وانطلقت بنا العربة حتى وصلت الى السلاح .

وقفزت قبل مظهر وشددت السور فألقيت به على الأرض .. وأنطلقت العربة تحمل مظهر الى مكتبه .

وفى الظهر .. لم يكد ينزل من العربة .. حتى سمعت صوتا من داخل العوامة يطلب منه أن يبلغ البوليس لأن سور العوامة سرق .. وهم مظهر بالعودة الى العربة .. وهو يضرب كفا بكف قائلا :

- تصور الجرأة .. يسرقوا سور العوامة .

وقلت ضاحكا :

- والاجرأ من كده .. يعملوه سد .

وانطلقت بالعربة .. وفغر مظهر فاه .. وتذكر السد الوجيه الذى كان يقفز عليه طوال اليوم .

وافترقنا بعد ذلك .. نقل هو الى آلاى الدبابات .. ونقلت انا الى الكلية الحربية .. فلم نلتق الا بعد سنوات عشر .. فى الفرسان مرة أخرى .. أنا كقائد للتدريب .. وهو كقائد لمجموعة مدرعة .

وفى ذات يوم سرنا فى السلاح نتجاذب أطراف الحديث ، وقلت له :

- انت عارف أن « رد قلبى » حا تطلع فى السينما .

- حقيقى .. مين حا يمثل فيها .

- والله لسه بنختار الأدوار مع عز الدين ذو الفقار ومدام آسيا .

وتذكرت أنه قام ذات مرة بدور أبى جهل فى فيلم ظهور الاسلام .. فقلت مازحا :

- ايه رأيك لو تمثل فيها .. أنت ما وحشكش التمثيل .

وأجاب هو بنفس اللهجة المازحة :

- يا ريت .

وفى المساء جلست مع عز الدين ذو الفقار وعرضت عليه اسم مظهر .. وفى اليوم التالى التقى مظهر بعز الدين وآسيا .. وفى اليوم الثالث وجدت منهما حماسا له .. واستقر رأيهما على أن يسند له دور النبيل علاء .

وجرت المسألة بمنتهى البساطة .. وكان علينا أن نحصل على اذن من القوات المسلحة .. ولم نتخيل الحصول عليه بالأمر الشاق .. بل بدا لنا مجرد مسألة روتينية ..

وتعاقدت آسيا مع مظهر .. وبدأ يعد ملابس الدور .. ويجهز نفسه للقيام

به .

وتأخر اذن القوات المسلحة .

وعندما حاولنا استعجاله .. علمنا أن قيام مظهر بالتمثيل أمر متعذر .. لأنه لا يتناسب مع مركزه كقائد مجموعة مدرعة .

وأسقط فى يدنا .

وظننت أن مظهر سيعتذر عن القيام بالدور وتنتهى المسألة .

ولكنى وجدته ينبىء المسئولين أنه يود لو قام بهذا الدور وأنه إذا كان هناك مساس بمركزه فهو مستعد أن يتخلى عنه وأن يحال الى المعاش لأنه يعتقد أن يستطيع أن يخدم بلده فى هذا المضمار كما يخدمه فى أى مضمار آخر .

وبعد يومين .. أجيب الى طلبه .. وأحيل الى المعاش .

وكانت مفاجأة شديدة لى .. فقد أحسست اننى المسئول الأول .. عن هذا المصير الجديد الذى دفعت به اليه .

وبعد بضعة ايام بدأ التصوير ..

وكان المشهد الأول فى حجرة المائدة بقصر الأمير بالمطرية .

وكانت اللقطة الأولى تضم الأمير (أحمد علام) وابنته (مريم) وابنه (مظهر) حيث ينبىء الأخير أباه الأمير بمقتل الحصان عنتر بواسطة أحد اللوريات .

وكان الحوار يسير كالآتى ..

يقول مظهر :

- عنتر مات .

فيصبح الأمير :

- ازاى ؟؟ .

فيجيب مظهر وهو يهز كتفيه :

- لورى خبطه .

وبدأت بروفات اللقطة .. وبدأ الحوار .. وكان المشهد الأول الذى يلتقط فى الفيلم .. بالألوان والسينما سكوب .

وطالت البروفات .. وتكرر الحوار .

ومضت أربع ساعات .

ومظهر .. يقول .. عنتر .. لورى خبطة .

وآذنت الشمس بالغروب .

وانتهى اليوم .

ومظهر يدخل .. ويخرج ليقول :

عنتر .. لورى خبطه .

وأخيرا .. انتهت اللقطة .. وبدأ العمال يلمون عددهم .

ووضع مظهر ملابسه فى العربة .. ونظر الى وقد بدت عليه امارات اليأس .. وهز رأسه قائلا :

- بقى ده أسمه كلام ! .

وسألته مستفسراً :

- ايه هو ؟؟ ..

ورفع كفيه متسائلا فى يأس :

- بقى أروح المعاش . عشان عنتر .. لورى خبطه !! .

وضحكت .. وحاولت أن أهون عليه .. وأنا أحس فى قرارة نفسى بالندم على ما فعلته به . .

ثم رأيته بعد ذلك فى فيلم رد قلبى .. وحتى نلتقى .. والطريق المسدود .

ولم أعد أحس بالندم .. فقد رأيته يؤدى كل أدواره بمنتهى المهارة .

وأحسست .. أنى دفعته .. الى المصير الصحيح .. وأن تحوله من القوات المدرعة الى السينما .. قد افاد السينما .

والقوات المدرعة .. !

رقم الايداع ٢٣٥٢ / ٨٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

الثمن ٥٥٠ قرشا